

جولیان غرین



لویا نشان

ترجمتہ:
عبود کا سوختہ



Bibliotheca Alexandrina



0104136

جوليان غرين

لويثان

ترجمته:
عبدوكا سوخته



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

كتاب :

LEVIATHAN
JULIEN GREEN

روايات عالمية

« ٥٨ »

لويثان = Leviathan / جوليان غرين ؛ ترجمة عبود كاسوحة . -
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ . - ٣٢٤ ص ؛ ٢٤ سم . -
(روايات عالمية ؛ ٥٨) .

١ - ٨٤٣ غ ري ل ٢ - العنوان ٣ - غرين
٤ - كاسوحة ٥ - السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٥٢ / ١٩٩٧.

لويثان(١)

● « أنت ... شذخت رؤوس التناين على المياه • أنت رضضت رؤوس لويثان ... » مزمو (٧٣ - ١٤) •

● « في ذلك اليوم يفقد الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لويثان الحية المقومة ولويثان الحية المتأوية ويقتل التين الذي في البحر • » أشعيا ، (٢٧ - ٠١)

● « أما لويثان افتمسكه بشص^١ أم تربط لسانه بحبل ؟ اتجعل في أنفه أسلة وثقب فكه بحلقة ؟ ... ليس لأحد جراحة أن يثبته ... من يكشف طرف لباسه ومن يدخل بين صفي أضراسه ؟ من يفتح مصراعي وجهه ؟ إن دائرة أسنانه هائلة . جسمه كصفائح المجان^٢ . كانه تحت تحت حراشف ملززة ، تتصام^٣ بعضها الى بعض فلا تسلك بينها الريح • كل^٤ منها ملتصقة بالأخرى فهي متماسكة لا تنفصل • عطاسه يقدح النور وعيناه كاجفان الفجر • تخرج من فيه مشاعل ويتطاير منه شرر النار ، ومن منخريه ينبعث دخان كانه من قدر تغلي أو من رجل من نفسه يصرم الجمر ومن فيه يخرج لهيب ... قلبه صلت كالحجر وقاس كالرحى السفلى ... ليس له في الفبراء نظير وقد طبع على عدم الخوف ... » أيوب (٤١) •

(١) لويثان : حيوان مائي هائل ذكر في الأسفار الشعرية فقط من الكتاب المقدس . (هذه الشواهد من الاختيار المترجم •)

القسم الأول

١

حين وصل الى عبارة الخط الحديدي توقف وفكر . قال في نفسه :
ما الداعي للاستعجال ؟ سأصل مبكراً على كل حال . لن تكون الساعة
إلا الخامسة والنصف . ومن بعد ؟ سأقصد المقهى وانتظر نصف ساعة .
وبعدئذ ؟

رفع صوته وهو ينطق بتلك الكلمات الأخيرة وهز رأسه نفيًا وكأن
جواب السؤال الذي طرحه على نفسه لم يكن مما يرغب في سماعه .
وظلّ بعض الوقت ساكناً مقوس الظهر ، ويده على العارضة الحديدية ،
ثم صعد دونما استعجال واستند بمرقبه الى الحاجز . كان يوسع من
مكانه أن يرى المحطة على بعد ثلاثمائة متر من هناك . وهي عبارة عن بناء
صغير من الأجر ليس له طابع مميز ، ومن ورائها جادة طويلة مشجرة
الجانبين بالبحور تؤدي من المحطة الى المدينة . وتتوزع هنا وهناك دارات
اثرياء مشرّعة سطوحاً من الأردواز ومتربعة في أعماق حديقة تزينها
المساحات الممرجة وأشجار الزينة . ويرتفع رتلان مديدان من أشجار
الزيزفون عن يمين الخط الحديدي وعن يساره كأنهما ساهران على
حمايته .

نقل بصره فوق مختلف زوايا ذلك المشهد وأخرج ساعته فأطال
النظر إليها مثل من يستغرق في عمل وهو يتفكر في آخر . صحيح أنه
ما زال في سن الشباب ، لكنه شباب فيه ذلك الشيء الذي لا يدرك أحد

كنهه . مشوب بشيء من الذبول والمرارة على نحو ما يتبدى لدى أولئك الذين نهشت الهموم أوائل سني حياتهم واقتربتها . وهو ذو وجه ممتلئ من غير لون ، وبشرة رخوة تنبئ للمستقبل عن خدين أجوفين وتجاعيد عميقة ترسم حول الفم ما يشبه الضحك الصامت حين يبلغ المرء الأربعين . وكانت عيناه بلونهما الرمادي الكاشف تتعلقان على نحو قوي بما تحدثان فيه . أما أنفه العريض الممتلئ وشفتاه السميكان فتتم على رجل ضعيف الإرادة ، لكنه مأخوذ براحته الشخصية وما اكتسبه من عادات وهو قادر على أن يدافع عنها بحزم إذا ما دعت الضرورة . ويبدو أنه خلق ذقنه بكثير من العناية قبل أن يرتدي بزة رمادية غامقة ذات شكل ملائم جداً وقد عقد ربطة عنق سوداء ووضع بأناقة ساذجة منديلاً من الحرير بنفسجي اللون في الجيب العلوي من سترته ليظهر نصفه فوق صدره .

انقضت بضع دقائق دون أن يأتي بحركة حرصاً منه كما يبدو على الصمت العميق السائد من حوله . أما فترة الأصيل الخريفية القصيرة فشارفت على نهايتها وبدأت السماء تصطبغ بلون وردي .

وانتصب بقامته أخيراً ف ضرب الحاجز بقبضة يده مثل من يضع حداً لتأملاته ثم تابع دربه فدلف الدرج المؤدي إلى الطريق من الجانب الآخر للخط الحديدي . إنه طويل القامة شديد البأس حتى لكان شعوراً بالخجل يساوره من فرط طوله وقوته فيخفض رأسه ويقوس ظهره قليلاً . وبحركة متواصلة كان يفرك كفا بكف وهو يمشي بخطى منتظمة وسريعة تنم على مجرى أفكار مهيمنة ، وكان شيئاً من هموم الروح يتسرب إلى الجسد فيطبعه بإيقاعه . وقاده ذلك التمرين الرياضي إلى سور أرض واسعة محاطة بأشجار مهيبة ، وانبسحت باحة واسعة ممرجة ذات شكل بيضوي تحدها المماشي المتعرجة أمام ما يمكن أن يسمى بقصر صغير ، مصمم على النمط الذي كان سائداً قبل أربعين عاماً . أما نوافير المياه والكهوف المزخرفة بالحصى واحواض الأزهار فأسبغت

انطباعاً عن ثراء فاحش يستغل للادعاء والغرور . وثبتت على الحاجز المعدني لوحة صغيرة كتبت عليها بخط أنيق عبارة « خلوتي » .

استحوذت تلك الدارة على انتباه المتجول برهة من الزمن فانترعت منه تنهيدة . ولم يبتعد عنها إلا مرغماً . فرجع أدراجه نحو المعبر ثانية . ونظر الى ساعته مرة أخرى فانتابه بفتة فرع من أن يكون قد تأخر بعد أن كان لا يدري كيف يصرف وقته فأخذ يركض .

بدأت المصابيح تضاء واحداً فواحداً وهو يسلك شارع المدينة الرئيسي . كان يلهث قليلاً بسبب الركض ويمسك قبعته بيده رغم الريح الباردة . وحين صار بمحاذاة الكنيسة انعطف ليسلك شارعاً صغيراً على اليمين ودخل مقهى يصدر عنه ضوء أصفر بلون حجارة الشارع . أجال نظريه في القاعة فتأكد وهو راض من أنه وحده . فالنادل نفسه كان غائباً . وتوجه دونما تردد ليجلس الى مائدة تشغل نصف احدى النوافذ . ولما كان دخوله على درجة من التكتّم لم تثر انتباه أحد ، اضطر الى النقر باصبعه على رخام المائدة كي يأتي أحد لتلبية طلبه .

— ها هو ذا الآن جالس وأمامه فنجان من القهوة التي يختلط طعمها ورائحتها ، مع كثير من الأشياء الأخرى الصغيرة بالمغامرة الكئيبة التافهة التي مازال يمارسها من أسبوع الى أسبوع ، يقرب وجهه من الزجاج بقلق لم تخفف العادة من حدته . فيرى على ذلك النحو دكانين تواجهان المقهى من الجانب الآخر للشارع . وبدأت له إحداهما ذات أهمية ضئيلة فكان لا يوليها إلا نظرة عابرة : ذلك أنها مخبز صغير لا يحتل واجهته إلا رغيفان مستطيلان زنتهما أربع أوقيات ، مسندان الى عارضة نحاسية على نحو يجعلهما يجتذبان بسهولة أنظار القادمين من الزبائن . لكن يبدو أن أصحاب المخبز ما عادوا يتوقعون قدوم أحد حتى إن شعلة مصباح الغاز المتدلي من السقف خبت فلم تعد تنشر غير ضياء باهت ضارب الى الزرقة . أما الدكان الثانية المطلية بدهان أخضر لوزي فيشع منها في عتمة الليل نور شديد باهر يبدو مسيطراً على

الشارع . امتدت على زجاج الباب كتابة بخط عريض تعلم المارة أن السيدة أرملة « إرنست برود » صاحبة المكان غسالة كوازة للملابس (السميكة والرقيقة) . كما وضعت في الواجهة خمسة أو ستة قمصان رجالية تجذب الأنظار بنظافتها الناصعة ونضارة طياتها . وتنسدل ستارة سميكة ذات ثنيات بيضاء متدلّية من قضيبها المحيط بالواجهة فتحجب داخل الدكان عن الخارج ، لكن دمدمة متواصلة تتولى الإفصاح عن النشاط الدائر داخل المكان . وبين وقت وآخر يبرز فجأة رأس من فوق الستارة ليلقي على الشارع نظرة عجلّية . فيجفل عندها الرجل كأن أحدا ناداه . ثم فتحت باب المصبغة على نحو مفاجيء ، وسَمِع صوتاً حاداً يصيح بشيء ، ثم ضحكات ترد عليه . فأنارت اضطرابه تلك الضجة التي جاءت على نحو مباغت . وبعثت دفقة من الحرارة بالدم الى وجنتيه فالصق جبهته بالزجاج ، إنما بنوع من التعطش لرؤية ما بداخل الدكان حتى تشوّش كل شيء أمام ناظريه . فلم يبصر إلا بشرشف معلق على حبل صدمه ببياضه ، ثم رأى ذراع امرأة ، عالياً من المرفق حتى المعصم وقد امتد فأغلق الباب من فوره .

كفّ عن مراقبة الدكان وأطرق برأسه . وزال عن وجهه كل شكل من أشكال التشنج لتحل محله مسحة من مرارة عميقة جعلته يبدو مسناً . وأطلق تنهيدة تعب وخبط بيده على الطاولة ثم وضع بضع قطع من النقود قرب كأس نصف فارغة ونهض . دقت الساعة الجدارية السوداء تعلن السادسة . وظهر النادل عند تلك اللحظة . شاب ناحل ذو عينين زائغتين . نظر الى الساعة ثم بدت على وجهه ابتسامة ذات مغزى وهو يرى الزبون يتحرك في المقهى جيئة وذهابا .

قال : لن تطول المسألة . ودسّ القطع النقدية في جيبه . إذ ليس من سبيل لإبقائهن الى ما بعد السادسة أو السادسة وعشر دقائق .

فاستدار الرجل نحوه واستند الى المائدة .

قال : أعتقد ذلك ؟

ثم أضاف بصوت متهدج شبه أجش :

— لعلك تعرفهن ؟

أجاب النادل بإبتسامة وهو يرفع كتفيه : بشكل عابر . لكن من الواضح يا سيدي أنك في هذه المنطقة منذ مدة غير طويلة .

فسأله الرجل بشيء من الاستياء : ولم تقول ذلك ؟

— لأننا نعتقد هنا بأن الفضلى من بينهن لا تستحق عناء القائها في الماء .

وضحك ضحكة صغيرة ساخرة . ثم كفّ وهو يلاحظ عدم جدوى طرفته ليقول بلهجة بوح جاد وهو يمسح المائدة بخرقه في يده :

— لولا أنك في عجلة من أمرك يا سيدي ، لقلت لك كلمتين بهذا الشأن .

— لا بأس . ماذا بوسعك أن تقول لي ؟

قعد النادل مستنداً الى حافة المائدة وقال بلهجة استخفاف :

— إن كانت الكبرى تستأثر باهتمامك ، أقصد السمرات التي تحمل الفسيل الى المدينة فإنني أنصحك بالحدار : إنها الأكثر شراً والأكثر اختلاسا .

تلفظ بتلك الكلمات ونظر بطرف عينه عبر النافذة فطالع محدثه بوجهه الجانبي الطويل الماكر والفضولي في آن معاً .

قال الرجل بصبر نافذ : والأخريات ؟

– الآخرين ؟ ولكن ليس غير واحدة ، اذا ما تركنا ربة العمل جانبا
والصغيرة التي تساعد في حمل الفسيل .

ثم سأل وهو يوشك أن يغرق في الضحك : ليست الصغيرة على أية
حال ؟

– الصغيرة ؟ وهل من يسألك عن الصغيرة ؟ أم أن بوسعي أن أعرف
كم يبلغ عددهن هناك ؟

لابد أن اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات قد باغتت النادل فلزم
الصمت برهة لا يجيب وقد جحظت عيناه . ثم استأنف قائلا :

– إن كانت الأخرى فتلك أجيال . لقد ماتت أمها في العام الفائت .
ثم قوطع هنا بحركة بدت عن الرجل وهو يلمح أحداً قد خرج من
المصيفة .

* * *

- ٢ -

شوهده من جديد يسلك الدرب المؤدي الى المعبر . لم يكن القمر قد طلع بعد فبدت الظلمة داكنة . لكن نظره كان يميز في العتمة بقعة باهتة مصدرها قميص الفتاة الابيض . فحث الخطى حتى صار بمحاذاتها وبات يرى ذراعيها العاريتين وعنقها . لاحظت وجوده فتوقفت فتوقف .

قالت بصوت ينمّ على الضيق : أنت تمشي بسرعة كبيرة . لو مرّ احد على الدرب لعرف الكل غداً أنك تبعته . دعني اتقدم عليك قليلاً .

وبقيت ساكنة برهة تنتظر جواباً لكنه لزم الصمت وقد تنازعتهم الرغبة في الإقبال عليها والفرع من ازعاجها . حينئذ سمعها تستأنف سيرها ولم يلحق بها توطاً تاركاً المسافة التي تفصل بينهما تزداد بين ثانية وأخرى .

شق عليه تقديم دليل الطاعة ذاك . فقال في نفسه إنه سيعود حتى الثلاثين قبل أن يواصل سيره . إلا أن وقع الخطى تضاعف فجأة على نحو سريع حتى انتابه القلق فتساءل : ترى هل ستهرب منه أو تختبئ حتى تستهزئ به . ومع ذلك لم يأت بحركة ، بل أحس فجأة وهو يعاني من مرارة الانتظار ، تلك المتعة الغريبة التي يشعر بها المرء حين يكبح جماح اندفاعه .

راودته فكرة غريبة . هل من يمنعه من الرجوع نحو المدينة والعودة الى بيته ؟ وراى نفسه يقوم ، مدفوعاً بنزوة فكرية كتلك التي تنتاب

ذوي الطبيعة السوداوية ، بما هو معاكس لرغبته تماماً ، فيدير ظهره لتلك الفتاة التي تلاشت خطاها الآن وسط الصمت . وتخيل نفسه عائداً الى غرفته التي أبعدته عنها الكآبة والرغبة منذ الصباح . وأحس في توالي تلك الصور بشيء قاهر سبب له اضطراباً . ا يكون قادراً حقاً على التخلي عن تلك المغامرة إذا ما أراد ؟ وما الدافع وراء تلك الفكرة الحمقاء حتى برزت في ذهنه ؟ كل المقصود حقاً توالي طرح الاسئلة بينما تكون الدهشة قد استولت على تلك الفتاة لعدم سماعه قادمًا ! وتراى له أن عقله انتزع منه بعض الوقت ثم أعيد اليه فجأة ، فشرع يركض وقلبه منقبض فرعاً من أن يكون قد أطل الانتظار ، فلا يجد على الدرب من أحد .

وأخذ وقع اقدامه على الأرض يدوي في رأسه دوي صدمة تصيب صدغيه . وركض بسرعة أكبر حتى أدرك الفتاة بعد بضع ثوان . بدت مفتاظة ...

قالت : كنت تستحق أن اتركك وانصرف . قلت لك فوق المعبر .

كان يلهث ووجهه قريب جداً من وجهها . وميز نظره المتعطش خديها الابيضين وعينيها في عتمة الليل . فضحك بشيء من الارتياح .

ثم أوضح قائلاً بصوت لاهث : حسبت أنك هربت ، فجريت .

ورفعت كتفيها :

— كنت متمسكاً جداً بهذا الموعد ؟

فقال وهو يمسك بأصابعها : أما كنت إذن تعرفين ذلك ؟ الا تصدقيني اذن على الاطلاق ؟

سحبت يدها منه بحركة مفاجئة ومشيت بضع خطى الى الامام .

قالت : لا ينبغي لنا البقاء هنا . قلت لك إن ذلك خطر .

تبعها من فوره وسارا معا في صمت . وحين أصبحت على مقربة من
المعبر أمسك بيدها بقوة وقال لها :

— ماذا عليّ أن أفعل كي أروق لك ولكي تكوني لطيفة بي ؟

فبدت لهجتها رقيقة وهي تجيبه قائلة :

— لست أدري . عليك أن تجد تلك الأشياء بنفسك .

ظل الرجل صامتا . ثم شد فجأة على معصمها بقوة أكبر :

— قل لي ، لم تخشين اللقاء بأحد ما على قارعة الطريق ؟

فأجابت دونما تردد : لأنني لا أرغب أن يعرف أحد أنني أضرب
المواعيد .

فقال بغضب : مواعيد ممي ؟

— أجل ، معك .

— أما مع الآخرين فليس الأمر بلدي بال ، ليس كذلك ؟ أما ممي ،
فالخجل ينتابك بلا أدنى شك .

فرفعت الفتاة نحوه عيني ملؤهما الدهشة والغضب . وكانا قد
وصلا الى جانب مصباح فتوقفا فجأة وكان البقعة الكبيرة المضيئة قد
أمسكت بهما .

وسأله : مع آخرين ؟ وماذا تقصد بقولك ؟

أما النظرة التي رمقته بها فجعلته يفقد ثقته بنفسه ، فاحمر وجهه .

— أقصد أنك لا تريد أن يعرف أحد أنك تقابليني .

لماذا ؟

— ليس لي أن أجيب . فأنت تعرفين خيراً مني .

— وهل أعرف ما الذي يجول داخل رأسك ؟ قل لي لم تطرح علي كل هذه الأسئلة والا انصرفت من فوري . فأنا لم آت لأدخل في نزاع معك .

فتنهذ وقد أعيته رعونته :

— لا تنصربي . فأنا أخطأت .

فقالت بلهجة ازدراء : إذا كنت قد جئت بي الى هنا من أجل أن تعنفني فإني أؤكد لك أنك لن تراني هنا من بعد أبداً .

فأطرق برأسه وقال بلهجة عذبة :

— لا ينبغي لنا البقاء هنا ، مادمت لا تريدين لأحد أن يرانا . هيا بجتاز المعبر .

فسألته من غير أن تتحرك : الى أين نذهب بعدئذ !

نظر إليها الرجل من قبل أن يجيب ، محاولاً أن يتبين سلفاً وقع كلماته . وارتسمت ابتسامة وجلى على شففيه وهو يقول :

— كنت سأعرض عليك العشاء بصحبتني .

وضحكت .

— العشاء بصحبتك ؟ وأين ؟

فأشار بيده نحو الريف الى الجانب الآخر من الخط الحديدي .

- في لورج .

- هذا مستحيل . فالمكان بعيد جداً .

- بوسعنا أن نركب القطار . سوف يمر بعد خمس دقائق .

لكنها هزت رأسها .

قلت لك اني لن أتعشى معك .

- لماذا ؟

- الامر يتعلق بي .

- هل أنت مستعجلة للعودة الى المدينة ؟ هل ستخرجين هذا المساء ؟

قالت متبرمة : لن أجيبك . قبل قليل كان لديك كلام ستقوله لي . قل لي ما تريد ودعني أعود . فقال متوسلاً :

- لا يسعني التحدث اليك هنا تحت هذا النور . لنذهب الى الناحية الاخرى من المعبر . هل توافقين ؟

ورضيت أن يمسك بيدها وهي تدلّلت بتنهيدة منها أن ذلك المعروف ينبغي أن يحسب حسابه . ولم ينبس أي واحد منهما ببنت شفة الى حين اجتيازهما المعبر .

قال بلهجة تنم على مرح كاذب : الست خائفة مني على الأقل ؟

- كلا . لكنك تطرح علي أسئلة مضحكة !

- أما أن تكوني غير خائفة مني ، فلا يعني أنك تستمتعين بصحبتني اليس كذلك ؟

وأدرك في ومضة اشراق أنه يتحدث على ذلك النحو لأنه لا يدري
ماذا يقول ، وأن كلماته الحمقاء تقلل من قيمته في نظر الفتاة . ولم يدفع
بها إلى أن تقول له : « كلا ، اني لا أستمع بصحبتك ؟ » فأضاف بسرعة
يقول :

— والامر على كل حال ليس بذي بال . كل ما أريده أن تكوني
مسرورة وسعيدة . هل تسمعين ؟

ولم تجب .

فقال وهو يبحث في إحدى جيوب صدارته : هاك ، لقد جئتك
بهدية . كنت أنوي إعطائك إياها فيما بعد ، لكن ما دمت في عجلة من
أمرك .. انها خاتم . انظري .

فكرت بفضول : خاتم . آه ، ما أجمله !

وودت أن تأخذه ، لكنه توقع تلك الحركة فاحتفظ به بين إبهاميه
والسبابة .

كان خاتما فضيا مزينا بقطعة صغيرة من الياقوت .

قال : دعيني على الأقل أضعه في أصبعك .

ومطت شفيتها بنفاد صبر .

— كما تشاء .

عندئذ اقترب منها وأمك بيدها ، لكنه كان يرتجف بشدة حتى
أنه لم ينجح في لباسها الخاتم .

قال في نفسه وقد أفرغه ارتباكها : « علي أن أقبض على ذراعها
وأضمها الي . قد تدمن الآن ، أما فيما بعد فلن توافق » .

وفجأة داخله اليأس فقال على نحو مباغت :

— اليك هذا الخاتم ضعيه بنفسك .

ودهشت من لهجته فرفعت نظرها اليه ، وانتابتها الشفقة لمراى
الاسى على وجه لم تعد الرغبة تشع فيه فأمسى لا ينم الا على التعب
والضنى .

ثم رفع كتفيه وهو مخدول وقال :

— أرى بوضوح أنك لن تحبيني ابدا .

ولم تجب بشيء . فداخله الامتنان لصمتها القاسي من غير شك . لكنه
دون قسوة كلامها . ثم اجتازا المعبر ثانية وبلغا مدخل المدينة من دون
ان يتبادلا كلمة ما . وحينما كان يوشك أن يتركها توجه نحوها بابتسامة
قائلاً : « إلى اللقاء غداً » .

واجتاحه انفعال عنيف امتزج فيه الفرح بالحزن فمنعه من أن
يشكرها ، لكنه تابعها بنظراته الى أن توارت عن ناظريه .

* * *

- ٣ -

بينما كان ذلك الحوار دائراً ، وعلى ما يقرب من ستمئة متر من هناك ، كانت مدام جورج لوند تفكر ملياً وهي أمام مراآئها ، بانتظار أن تحين الساعة لتدخل قاعة الطعام . ذلك شكل من أشكال الطقوس الاحتفالية ، ولا يمكن أن يجري من غير استعدادات معينة . ومام لوند لم تعد فتية ، لكنها تحافظ على انافتها نفسها منذ أن كانت في الخامسة والعشرين . فلا يسمها الظهور امام زبائنها قبل أن تغدق على جمالها اللاوي كل أشكال الدعم من حمرة ومساحيق .

كانت جالسة في حجرة صغيرة قائمة بين بابين فتصلح كحجرة خدمة وغرفة زينة في آن معاً . والواقع أن المرء يشاهد فيها طبقة (١) من الخشب الابيض ملاصقة للجدار ، كما يرى منضدة زينة مطلية بدهان وردي صارخ تحت المصباح الغازي المتدلي من السقف . وتزدان تلك المنضدة بمرآة بيضوية الشكل كانت تعكس منذ ثلاث أو أربع دقائق وجهها ساكناً ذا عيينين فطنتين .

أية أفكار تدور في خلد تلك المرأة ، فهي لا تبدو سعيدة أو تعيسة وبتت في انحناءتها القليلة الى أمام وكفاها تستقران برخاوة فوق فخذيها مثل من يشاهد مسرحية . أما نظراتها الثاقبة فتنتقل من جبينها الضيق المحاط بضفائر كستنائية الى الفم الحازم بزوايتيه الهابطتين . (لكن ابتسامة مدروسة بعناية تتولى اصلاح ذاك العيب أمام الناس) . أما بعد انتهاء الجولة حول الوجه فان العيينين تعودان لتستقرا على

(١) قطعة ريش توضع عليها الاطباق وأدوات الطعام .

العينين . او رأيتهما لقلت إنهما تسعيان لاختراق هذين البؤبؤين
الأسودين ، حيث رسم النور نقطتين صفراوين ، لشدة ما في نظرتهما
المتفحصة من الحاح يقارب سوء النيات . وتطبق الاجفان بين لحظة
وأخرى ، وهي أجفان سمر داكنة بفعل السهر ، ثم تنفتح على النظرة
النافذة ذاتها .

كانت ثيابها من الحرير الاسود . فجذعها مشدود بصدار يضيق
عليه الخناق حتى العنق ، لكنه يترك للمعصمين البضين الممثلين كامل
حريتهما عند طرفي كمين مخرمين فضفاضين . وينم الحجر الكريم الذي
يزين خاتما في الاصبع والمشبك الالماسي المثبت عند أعلى الصدر على
حرص على الاناقة ، لكن رتوقاً في الثوب عند الخصر شكلها قبيح وعددها
اربعة أو خمسة تشي بأوقات عصيبة وضائقة يصعب اخفاؤها . فلون
المنضدة الوردي يشكل مفارقة حادة مع المظهر لبأس والكئيب لتلك
الامتعة المهترئة وذلك الوجه القاسي . فقد بدا وكأنه لطفة مضيئة داخل
لوحة معتمة ، وضعت فيها بدافع السخرية أو لتبرز حدة التناقض
وعنف الطاقة الكامنة في الرسم .

دقت الساعة لتنتزع مدام لوند من تأملاتها . فانتصبت وانتظرت
انتهاء تجاوب الدقات السبع داخل صمت الحجرة قبل أن تنهض . عندئذ
لمعت ابتسامة فأضاءت قسما وجهها وبثت في عينيها حيوية مباغتة .
وبدت تلك المرأة كأنها صحت بعد أن كانت مخلوبة اللب وأنها استيقظت
من نوم سحري فعادت لاستئناف حياتها . ومسحت بحركة سريعة من
يدها على شعرها الملتف في مؤخرة رأسها ثم ألقت نظرة أخيرة على
صورتها في المرأة وتوجهت نحو باب قاعة الطعام .

لكنها لم تدخل القاعة من قبل أن تنحني عند حاجز واق وضع
لدى الباب ، لتلصق عيناها بشق في القטיפه الحمراء التي تغلف الحاجز .
وكان بوسعها على ذلك النحو أن تشاهد كل من في المطعم ، كما يفعل
القيم على مسرح حين ينظر من ثقب في الستارة فيتفحص وضع المشاهدين .

ومكثت وقتاً ما وهي على تلك الحال مقوسة الظهر مع انثناء خفيفة في الساقين ساكنة مثل وحش يتحفز للوثوب . وتشيح بوجهها أحيانا وهي تخنق تنهيدة ثم تعود وهي غير قانعة بما رأتها عينها اليسرى فتوكل لليمنى مهمة بحث اضافية فتطبقها على فتحة الشق بعد أن تكون قد وسعته برأس بنانها .

وأخيرا تغادر مرصدها وتدخل القاعة فتخطو ثلاث خطوات لترتقي منصة فوقها شبه مكتب تستقر في جلستها وراء كل مساء . وتشرف من مكانها ذاك على قاعة كبيرة طويلة ضيقة يمتد فيها رتلان من ست موائد صغيرة دفعت للاصقة الجدار . وقامت في وسط المشى مائدة بيضوية كبيرة يمكنها أن تستوعب اثني عشر شخصا جلوسا . وإذا ما سرحت مدام لوند النظر بعيدا ، الى ما وراء باقة كبيرة من النباتات الشتوية المترتبة في وسط المائدة الرئيسية ، رأت الشارع عبر باب زجاجي مكتوب عليه اسمها بحروف مقلوبة .

تشابكت أصابع يديها فوق رخام المكتب . ماتزال القاعة الان فارغة . فالساعة هي الساعة ومدام لوند لا تجلس هناك الا لتكون قدوة لربائنها في دقة تقيدها بالمواعيد . وهي تعرف في الواقع حق المعرفة أن شرائح اللحم تسمي بعد الساعة والرابع أكثر جفافا وتصير الخضار المطهوه هشة جدا . وإذا كان الاعلان المعلق على الجدار يحدد ساعات الوجبات فان ذلك لا يحول بين الناس وبين وصولهم متأخرين . وصدرت عنها زفرة عميقة حملتها نفاد صبرها وتمتت :

« لِمَ لا يأتون ؟ » قالتها بلهجة ذلك المشاهد الذي ينظر الى الستارة مسدلة فيتساءل : « لِمَ لا يبدوون ؟ » لكنها لا تجهل أن ذلك يحصل كل مساء . كان حلول الساعة السابعة وبضع دقائق يباغتتها كل مساء وهي في مرصدها وراء الحاجز . لقد اكتسبت عادة التطير تلك حين جاء زبونان ذات يوم على غير علم منها ، ومن قبل أن تدخل الى القاعة . وعليها بعدئذ أن تعاني اليأس والملل ربع ساعة ، بل طوال

ربع ساعة بحالها ، تكون يداها العاطلتان قد قامتا أثناءها بإزاحة باقة الازهار الصغيرة ، التي تزين مكتبها ، عشرات المرات ، تارة الى اليمين وطورا الى اليسار . وبتحريك دفترها السميك الاسود الذي كانت تفتحه ثم تطبقه بحركات مباغتة اكثر فاكثر . فهي لا تجيد الانتظار ولم تحاول يوما ان تعرف كيف يتدربون على الصبر . لكن لِمَ لاتعمد الى تبديل موعد العشاء مادام الكل يصلون متأخرين ربع ساعة بصورة دائمة ؟

اتكون قد اجابت في نفسها على مثل هذا التساؤل وهي تصفق دفتي دفتر حساباتها فوق رخام المكتب ؟ هل ثمة ما يستوجب اضافة خمس عشرة دقيقة الى نهار طويل طويل أمضته بالبكاء ؟ كلا . لكنها اعلنت ان المطعم يفتح بابه في الثانية عشرة ظهرا والسابعة مساء . وكلما كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا والسابعة مساء ، تكون هي هناك وراء مكتبها .

أخيرا مالت براسها ، وقد عيل صبرها ، ناحية الحجرة التي انجزت فيها العناية بهندامها قبل قليل وصاحت : « يا غريفوار ! » فرد عليها صوت من بعيد : « هالندا » وسمع صرير باب يفتح .

فقال مدام لوند « هات الحساء » ، من قبل ان تنتظر دخول الشخص الذي نادته الى القاعة .

كان الايعاز بجلب الحساء ملاذها الاخير والوسيلة التي تستخدمها حين يتغلب عليها اليأس . اذ يتراءى لها ان ذلك « يجتذب الزبون » على حد تعبيرها . ذلك انها لاحظت مرارا وتكرارا ان قدوم النادل وهو يحمل الحساء يتوافق وقدوم تاجر الحبوب المسيو غونسولان الذي كان يتناول وجباته عندها والذي كان على نحو عام اول من يدخل الى المطعم . لكنها كانت ترتعد خشية ان يأتي يوم تثبت فيه العملية السحرية عدم جدواها ، ويصل صاحبها تاجر الحبوب متأخرا مثل الآخرين

وأن تفقد الثقة . لذا لم تكن تلجأ الى هذه الوسيلة الا حينما يوشك صبرها أن ينفد .

اسندت وجهها الى كفيها ، ومرفقاها معتمدان على المكتب وأخذت تصفي وهي في وضعها ذاك الى وقع الخطى تروح وتغدو داخل المطبخ . فبدت كأنها ترفع الى السماء امانة^(١) تلك الدقيقة الاخيرة من الانتظار . وليس من طائل وراء الطلب الى النادل أن يسرع . لان جل ما يتمناه هو الانتهاء من عمله بأقصى ما يستطيع من السرعة ليمضي فيتسكع في المدينة . وهكذا مادامت مدام لوند لا تملك أن تجعل المسيو غونسولان يصل في الوقت المحدد او يتأخر عنه ، فلانماص من ترك الامور تسير على هواها .

وبفتة ازاحت يديها ونظرت امامها . لقد فتح الباب ودخل احدهم . لكنه ليس تاجر الحبوب ، بل رجل لم تقع عليه عينها من قبل البنت . وهاهوذا يرفع قبعته ويجلس . ولم تصدق ما رآته عينها ليقينها الراسخ بأن المسيو غونسولان سيكون اول الداخلين الى مطعمها . وأخذت وهي في غمرة انفعالها من المفاجأة ، تتفحص الغريب بنوع من التمعن حتى رفع نظره بدوره وتأمل مدام لوند وكأنه توقع ان تبادره بالكلام ، وحينما رآها تلوذ بالصمت ويحمر وجهها فجأة ، غص الطرف وبسط فوطة الطعام .

شعرت مدام لوند بشيء من الارتباك للدهشة التي بدت على محياها وقالت في نفسها ان ذلك الرجل قد وجدها حمقاء حقاً . لكن اضطرابها لم يكن كبيراً ليحول دون ملاحظتها عشرات العلامات الفارقة والتفاصيل في قسمات الغريب وشكله وتسريحة شعره . بل ان عينها الخبيرة رأت فيه مادة تكفيها لتفسيرات وتأويلات شتى . وحاولت أن تتلافى تصرفها الاخرق ، فتصنعت مظهراً من اللامبالاة وبدلت موضع

١ - الامانة ، في بعض المذاهب ، تعذيب الجسد تقرباً الى الله ولكبح الشهوات - م.

دفترها الاسود ثم موضع اناء الازهار . كان الرجل حسن الهندام . من أين جاء يا ترى ؟ اذ لا يمكن ان يكون مسافراً بقصد التجارة : فهي تعرف ابناء هذه المهنة حق المعرفة وهيئات ان تخطيء : وهو فوق ذلك لا يرتدي معطفا ولا يحمل حقيبة ، لكنه ليس احد أبناء البلدة . قد يكون احد القادمين حديثا الى لورج او شانتيليا . وجعلت هذه الفكرة قلبها يشب من موضعه . فلاربعة اعوام خلت ، قدم رجلان على هذا النحو للاقامة في شانتيليا . وهي تذكر ان ما انتابها يوم رأتها أول مرة في المطعم كان مماثلا لانفعال هذا المساء . فقد شئت غرائب المصادفات الا يبلغها نبأ وصولهما ، وهي التي تعلم في العادة كل شاردة وواردة قبل الجميع . فلاحداث المباشرة تلحق بالنساء ، اللواتي يسيطر عليهن الفضول مثل مدام لوند ، اهانة بل خزيا لا يقل عما ينتاب المراقب في برج منارة من مهانة اذا ما عبر مركب من غير أن يلحظه .

وبعد دقائق سادها مزاج متعكر ، تجلى في تحريك متواتر لانياء الازهار الصغير يمنية ويسرة ، راح يفارقها الاحساس بما يشبه شيئا من النقرة على نفسها ، فتشابكت اصابع يديها فوق رخام المكتب ورفعت رأسها مجددا لتلقي على الغريب نظرة طويلة . كان يرتدي بزة رمادية . ويتدلى منديل بنفسجي اللون من جيب سترته العلوي . انه يحني رأسه من وقت لآخر ليرفع الى فمه ، وهو في حالة من شرود الذهن ، قطع الخبز الصغيرة . لكن هذا الرجل لم يكن في تصور مدام لوند مثل أي مسافر عادي جاء ليجلس نصف ساعة امام مائدة احد المطاعم . بل كان رجلا نجهل عنه كل شيء . لذا بات في نظرها ذا أهمية استثنائية . ولم يبق أمامها الا القليل حتى تعده عدوا لها ، وما ذلك إلا لانه يعرف أشياء وأشياء لا تخطر منها على بال . فاسمه وعمله وحياته تمثل مجموعة من الاسرار بודהا لو تنتزعها منه اليست الكتابة البادية عليه ، وصمته المتعالي تحديا سافرا لتطفلها ؟

لا جرم أنها رات فيما مضى زبائن كثيرأ يجلسون الى تلك المائدة وكلهم ، أجل كلهم تقريبا . بادروها بالتحية وهم داخلون ، وطالعوها

بابتسامة أو بكلمة رقيقة . وفيهم الذين لم يعرفوها من قبل . ومن شأن ذلك أن يفسح المجال أمامها لتسريب أسئلتها ضمن مجرى الحديث الذي يمكن أن يدور بينها وبين الزبون حين يتقدم الى الصندوق لتسديد حسابه .

تلك هي الطريقة المتبعة في مطعم لوند . وإذا كان النادل يتولى توزيع فواتير الحساب عند انتهاء الوجبة ، على نحو ما هو متبع بشكل عام ، فإن الزبون لا يسدد حسابه في النهاية الا للمعلمة نفسها . أما فوائد هذه الطريقة فعديدة ومتنوعة . لان مدام لوند الجالسة في عليائها فوق ما يشبه كرسي العرش ، تتمتع بكامل راحتها كي تبتسم بحرية ، وتستفسر ، بل وتبدي فتنتها حين تجد الفرصة مواتية . أما الطرائق التي تعتمدها فتجمع المراوغة والانفة في آن معا ، فتفقد على السامع كلاما غير ذي معنى على نحو ما يسمع من أفواه الملكات وترد اليه بقية نقوده بمظاهر من السخاء . لكن تلك المظاهر الكاذبة ذات جدوى على الدوام تقريبا . فالغريزة تقود هذه المرأة على نحو مذهش فتستنفد قواها لتروق في أعين من حولها قصد أن تعرف .

وإذا لم تكن تتمتع بكل ما ينسب الى بنات جنسها من حس مرهف، فهي تجيد ما ينبغي قوله وما يلزم عمله لتنال حظوة لدى الزبون وتقتنص منه الوعد بالرجوع ثانية . وتتضافر جهودها كلها يوم يظهر أمامها قادم جديد . فتلجأ الى سلاح السعر المعتدل وبعض التسهيلات المخادعة في طريقة التسديد لانجاز المهمة . وثمة في الواقع فارق إضافي بين هذا المطعم وأمثاله في باريس . فبوسع المرء على سبيل المثال أن يفتح فيه حسابا على نحو ما يفعل لدى البقال أو الصيدلاني ، وأضحت مدام لوند تعرف ، بعد خبرة عمرها اثنا عشر عاماً ، أن من يصبح مدينا لها بعشر وجبات أو بخمس أو بثلاث فقط يسمي وقد وقع في الفخ . أي يصير من زبائن المطعم بشكل حاسم ونهائي .

لكن كيف السبيل الى اجتذاب انتباه امرئ لا ينظر اليك بل لعله
لا يحس حقاً بوجودك ؟ وما الذي حدا بذلك الاحمق لياكل الخبز على هذا
النحو من غير أن ينتظر وصول الحساء ؟ وبم عساه يفكر ؟ ألا تحس جبهته
وكتفاه بوقع النظرة القاسية التي لا تحيد عنه ؟

هاهي ذي قد استعادت الان صفاء فكرها فسعت إلى أن ترسم على
قسماتها وتضع في عينيها كل السلطة التي تقدر عليها . لكن أبة فائدة
تجتني من ذلك ؟ من الواضح أن هذا الرجل بعيد عن مطعم لوند كل
البعد وأنه يفكر في شيء مغاير تماماً . وشدت قبضتها على دفترها . هل
سيتكلم في نهاية المطاف ؟ أن يطلب شطيرة أخرى من الخبز بعد أن يأتي
على تلك التي في يده ؟

لكن لم يكن ليخطر ببال الغريب على ما يبدو شيء من نفاد الصبر
الذي كان قلب المعلمة يروح تحت عبئه . وأوشكت مدام لوند بسبب
مرارة الخذلان أن لا تلاحظ وصول تاجر الحبوب الذي أدى لها التحية
بتلويحة عريضة من قبعته وعلى مرحلتين حسب الطريقة التي لم تعد
متبعة إلا في المناطق الريفية . فأحنت رأسها وقالت بصوت جعله الغم
يرتعش قليلاً :

— طاب مساؤك يا مسيو غونسولان .

وقالت بجفاء للنادل الذي دخل حاملاً إناء الحساء :

— هيا اسكب للسيد الجالس في الأخير !

الا كم كانت تودّ لو تعرف اسمه من أجل أن تقول :

— هيا احمل الحساء للسيد فلان ، فقطاره سيتحرك في الساعة
كذا !

لكنها ، بدلاً من ذلك ، أضافت غاضبة وقد استبد بها الفيظ
بسبب ما تجهله من جهة ، وبسبب إمارات الدهشة التي بدت على
النادل :

— قلت لك هيا ! الا ترى انه اتى على شطيرة الخبز كلها !

بدا الزبائن الآن يتوافدون من غير انقطاع فالباب لا ينغلق الا لينفتح
توآ . وكل هؤلاء الناس سيَلَمون على المعلمة ببشاشة يمازجها احترام .
وتقوم هي بإغداق التحيات يمنة ويسرة ، مثل ملكة جالسة في عربتها ،
وقد أطربها كل هذا الاهتمام الذي أحيطت به فبدات تطيب نفسها
وتتعزى شيئا فشيئا .

أحدث دخول الأشخاص العشرة أو الاثني عشر وجلسهم الى المائدة
ضجة وصخباً بسبب تحريك الكراسي من مواضعها . أما سرعتهم في
اتخاذ أماكنهم فتدل على انهم جميعاً من رواد المطعم . فلقد ملأ لفظ
أحاديثهم القاعة بالدمدمة العميقة المتواصلة الصادرة عن خلية نحل .
كان يدور حول المائدة الكبرى نادلان لتوزيع الحساء وعلى صدر كل
منهما مريلة بيضاء .

وتألفت مدام لوند منشرحة الصدر وسط جلبة يختلط فيه اللفظ
بضوضاء الملاحق والصحون . فحياتها تتخذ معناها في هذه الدقيقة .
لأنها تعيش من أجل أن ترى تلك الظهور المقوَّسة والرؤوس المطرقة
أمامها ، بل تحت قدميها الى حد ما . ويمكن القول إنها تجد في تلك
الهيئات صورة من صور الخضوع . وعدت الزبائن بصوت خافت :
عشرة حول المائدة الكبرى وواحد جالس وحده عند المائدة الصغيرة
قرب الباب . الا كم تضاءلت أهمية هذا الأخير في اللحظة الراهنة !
فقبل قليل كان يغيظها لأن وجوده في القاعة الفارغة بدا على شيء من
الاستفزاز ، لكن مادام العدد قد اكتمل حول المائدة الكبرى ، فقد بات
متوارياً في ركنه .

واغمضت عينيها نصف إغماضة كأنها تريد أن تستمتع على نحو
أفضل بذلك الطنين المتصاعد من حولها . وميزت وسط ما يسود
العشاء من هرج ومرج ، صوت السيد غونسولان بنبرته الشخينة وهو
يسرد بتبجح قصة صفقة رابحة عقدها ، والصوت الأبح للسيد باريزيه

القصر القائمة وهو يتحدث في السياسة والسيد ليون وهو يرد عليه
مغمغماً : والسيد موريستيل وهو يجادل ابن بلوندو والسيد تريب
ذي الحديث العذب وهو يروي قصة طويلة حول صاحبة منزله الأنسة
كلارافون . عندئذ هزت رأسها تعبيراً عن الرضى والتسامح : فهي
تعرف هؤلاء الناس حق المعرفة ، تعرف مشاغلهم ومغامراتهم الصغيرة
وهومهم وديونهم وما يملكون . ولا يبدو أن في حياتهم هنية واحدة
قد أفلتت منها ، إذ كانت تداورهم فتطرح عليهم أسئلتها حين يأتونها
لتسديد التزاماتهم : فيزوّدنها البعض بمعلومات عن البعض الآخر .
والواقع أن جزءاً كبيراً من مهابتها كان يتعلق بطريقة إحاطتها بالمعلومات .
فليس من يتذكر مثلها كل أشكال الفضائح أو يعرف كل خفايا البؤس .
وأما ذاكرتها فلا يفوتها شيء ، بما في ذلك آلاف التفاصيل الصغيرة التي
تحرص عليها كشيء ثمين فتتلقفها ذات اليمين وذات الشمال في عملية
تجميع يومية ، لأنها كلها يمكن أن تكون ذات فائدة .

وبعد برهة من الزمن فتحت عينيها مجدداً ورفعت رأسها . لقد
خطرت ببالها فكرة . إذ تذكرت أنها أحيطت علماً في الصباح بسفر أحد
زبائنها إلى مدينة مجاورة . ومن أجل أن تظهر أنها تحيط بكل شيء
علماً ، ومن أجل أن تبين أنها « تعرف » ، قالت على نحو مباغت
وبصوت جهوري طفى على جلبه المائدة كلها :

— أراهن على أن المسيو تريب قد ذهب صباح أمس إلى شامبريكور
لشراء قبعة جديدة .

فران صمت قصير واستدارت نحوها كل الرؤوس . وهتف السيد
تريب السمين بعد أن خفت دهشته الأولى قليلاً :

— هذا صحيح حقاً يا مدام لوند . وإذا ما رغب المرء في أن يخفي
عنه شيئاً فسوف يلقي أشد العناء .

وقهقه أولئك الرجال ضاحكين وحولوا انظارهم صوب المشجب حيث بدت بين القبعات الرثة الباهتة واحدة غامقة كأنها تخجل من وجودها في صف زميلاتها . وغمرت قلب مدام لوند بعض الوقت سعادة لا مثيل لها . وتألفت وسط ضوضاء الاطناب مثل نبتة غمرها النور . ففتحت دفتريها الأسود وتظاهرت بالقراءة متصنعة الالامبالاة بينما يخفق قلبها مفعما بالفرح . أما ذلك المستقر في ركنه البعيد فقد رآها هذه المرة وسمعها . ولم تفتها ومضة حيرة برقت في عينيه . لعله يعرف الآن حقيقة المعلمة وأنها امرأة ذات تأثير وسطوة ، تجيد محاوره الرجال . وإن عينها تحيطان بكل شاردة وواردة . ومدت يدها وقد امتلأت نفسها بالرضى ، فأزاحت إناء الازهار الى اليمين قليلا ، بحركة الفوز التي يقوم بها لاعب الشطرنج حين يزيح قطعة تترك تفوق الخصم وتحول نصره الى هزيمه .

الحق أنها لا تستطيع التباهي منذ الآن بفوزها في الجولة ، لكن بات واضحا أن كلمتها قد فعلت فعلها . فبدأ الرجل كمن أب الى نفسه واستعاد حواسه بفتة فأخذ يوجه صوب مدام لوند نظرات حائرة لرجل مشدوه أيقظوه من نومه على نحو مباغت . وتهللت فرحا لمراى امارات الدهول التي جاءت لتثار لها مما كانت عليه قبل قليل من انكماش وارتباك . فقد آن أوان شن الهجوم . إذ لا ينبغي أن تدع للعدو وقتا لاسترداد انفاسه . وحين مر أحد النادلين على مقربة منها مالت صوبه قليلا وقالت بسرعة :

— دع عنك وعاء الحساء واذهب الى السيد الجالس في الأخير ،
واسأله إن كان راغبا في أن نحجز له مكانه وفوطته . تصرف بكياسة.
أليس كذلك ؟

لكن ما كاد النادل يدبر ظهره حتى انتابها شعور بأنها ارتكبت خطيئة فأوشكت أن تستدعيه . كيف سيقوم غريغوار السميع هذا بانجاز المهمة الموكلة اليه ؟ قد يكون من الأفضل انتظار قدوم الغريب

ليسدد حسابه . فثقتها بالنادل ضئيلة جداً . الا أن شيئاً ما ظل يمنعها من التدخل : فهي تريد أن ترى ماذا سيحصل وتريد على الفور أن تعرف . فالتطفل الجنوني المتعظم كان يدفع بها دفعا نحو ذلك الرجل . وامست منذ لحظة لا تشاهد احدا سواه ، جالسا بمعزل عن الآخرين كأنما هو راغب في التفرد عن باقي الزبائن واجتذاب انتباهها . هل اختار الجلوس في مكان ناء عن الآخرين لو لم يكن راغباً في اثاره غيظها ؟

وبدا لها أن النادل تعتمد التثاقل في مشيته وأنه دار حول المائدة الكبرى ببطء شديد . فمدت رأسها الى أمام لتتابع هذه الرحلة التي بدت بلا نهاية وانتصبت قليلا وهي عاجزة عن احتواء صبرها النافذ . أما حين بلغ غريغوار المائدة القريبة من الباب فقد أصاحت السمع عليها تلتقط ما يقال ، لكن بلا طائل . وتطيرت مع ذلك من هيئة الدهول التي بدت على قسماط الغريب فتمتعت عدة مرات بلهجة غاضبة : « يا للابله ! يا للابله ! » من غير أن توضح أكثر بأي الرجلين ينبغي الصاق هذا النعت . وادركت أن الغريب استفهم ثانية ورائته من ثم ينهز بكتفيه اعرابا عن جهله .

أغمضت عينيها خجلا ولم تفتحهما الا حين أصبح غريغوار أمامها .

— أجل ، ماذا قال لك ؟

— قال إنه سينتظر نهاية العشاء حتى يجيبني فجهرت له مدام لوند بالقول لتجعل كلامها مسموعا :

— بكل تأكيد . فهذا السيد على حق لانه لا يريد أن يكون رأبا عن الطعام قبل أن يتذوقه . فهل كلفتك بأن تذهب لتطرح عليه اسئلتك الآن ؟

وغضت من صوتها لتضيف بلهجة متوعدة :

— اياك أن تنفوه بكلمة . هيا انصرف . عد الى المطبخ . يا اك
من غبي !

لم يتابع الحضور من ذلك المشهد الا نهايته فكفوا عن الكلام وهم
يرمقون المعلمة بدهشة . فحدجتهم بنظرة صاعقة ثم قالت بعده :

— هل للسادة الكرام من حاجة في شيء ؟ شيء من لخبز أو الماء ؟

واتخذت من أحدهم ، على غير تحديد ، هدفاً تصب عليه جام
غضبها . مثلما تنقض معلمة على تلميذ كسول :

— ماذا ينقصك يا مسيو بانسو ؟ أياكون الحساء غير لذيذ ؟ أم أنك
تعرف أماكن أخرى طعامها أطيب ؟

وتشابكت أصابع يديها وتصنعت الهدوء لكن بعد أن خرجت عن
طورها وارتجف صوتها . فمضت تقول :

— أماكن ، أماكن أسعارها أكثر اعتدالا من أسعارنا وتسهيلات
الدفع فيها أكبر ، أليس كذلك ؟ ها أنت مدين لي بست وجبات يا
مسيو بانسو . فهل طلبت اليك مرة واحدة أن تسدد لي حسابك ؟

مسح السيد بانسو ، وهو شاب منزوف رث الثياب ، بأصابعه
زجاج نظارته الذي غشاه بخار الحساء الساخن ، وبدأ كأنه راغب في
النهوض ثم عدل عن رأيه فبقي جالسا . ثم همس قائلا :

— كلا . فكررت مدأماً لوند من بعده .

— كلا . أنت على حق يا مسيو بانسو . فانا لم أزعج زبونا في
حياتي قط .

كان لتلك الكلمات وقعها وسط صمت كنائسي . فلم تند عن المائدة الكبرى ، وقد حوِّمَ نظر المعلمة المهيمن من فوقها ، همسة واحدة . أي سحر ذاك الذي مكنها من السيطرة على أولئك الطاعمين الاحد عشر وابقافهم عند حدهم حتى غصوا الطرف أمامهم كأنهم تلامذة مدنون ؟ واية لعبة من تصفية الحسابات لعبتها معهم حتى لم يجرؤا على الاحتجاج على تعنيفها ؟ ان الحسابات الكثيرة المؤجلة هي ثمن الخنوع الذي أرغمتهم عليه وليس في ذلك من شك .

وأستمتعت هنيهة بما تسببت به من وجوم فتفتح منخراها . عندئذ رأت الغريب ينظر اليها وادركت أنه يتفكر فيما سمعه من كلام فاعمضت اجفانها كيما تسترجع لذاتها مشهد النصر الذي حققته ، وتأملته في فكرها .

ومضت بضع ثوان من التردد ، تبادل الطاعمون النظر بعدها خلسة ، واطرقوا برؤوسهم على نحو من الاشتراك في الدنب . واعقبت ذلك فترة طويلة ، لم يسمع أثناءها الا صوت تناولهم آخر ملاعق الحساء .

انتهى العشاء في جو من الكتابة . فحال القلق دون استئناف اولئك الرجال الحديث على وتيرته نفسها فأمسى الكلام المتداول فيما بينهم بصوت خافت ذا طابع من الوجل والقهر . وباتت تلك الامسية بالنسبة لهم من دون طائل . وصار يوسع المرء أن يتبين اتفاقا صامت فيما بينهم يحثهم على الاسراع في عشاء لم يعد يحمل لهم أية متعة .

وظلت المعلمة وهي في عليائها تنقل النظر بين تلك السحنات الخائبة وتدون عدد الاطباق التي تحمل في صمت . كانت بوجهها المتجهمة اشبه بطاغية يمعن النظر بعد البطش فيما جنته يدها . الا أن نظرتها اظلمت أكثر . فهي ستكسب الجولة من غير شك وغريزتها أحسنت إرشادها . ورات بحدسها في الغريب الذي يتعشى عند طرف القاعة كائنا ضعيفا وتعبسا . وأنه فار من وجه شخص ما او هارب من شيء ما . وهي عازمة على أن ترغمه بقوة سلطتها فقط على اللجوء اليها . قد لا يكون من ناحيته على دراية بالامر بعد . أما هي فوائقة من ذاك كل

الثقة . وعليه فهي حاليا غير مبالية . وهذا الواقع بحد ذاته ينبغي
بنصرها . ذلك أن من أغرب نزوات طبيعتها فور معرفتها بالسيطرة على
فريستها ، احساسها لبعض الوقت بأن تلك الفريسة أضحت غير مرغوب
فيها . ولتجديد استمتاعها ينبغي بروز عائق جديد في فترة راحتها كيما
تندوق مجددا طعم الفوز وسط غمرة الكفاح . أي ينبغي باختصار قيام
الفريسة بمحاولة للتمرد والتحرر وهذا هو مصدر الازدراء الذي
يعمل في نفس مدام لوند تجاه زبائننها . فهي تمقت خضوعهم ولا تقوّم
طاعتهم الا بمقدار ما تناضل للحصول عليها والاحتفاظ بها .

مرت سنون وهؤلاء الرجال يأتون لتناول الطعام أمامها خاضعين
فتضبطهم كالاولاد وتوبخهم دونما انقطاع . لكن اذا كانت لا تستغنى
عن رؤيتهم وهم على تلك الحال من العبودية المعنوية فان روحها المتعطشة
لا تلقى داخل فوزها نفسه غير العدم . وهي تتمتع في الواقع بما يقوم
مقام الذكاء لدى الاشخاص الموهوبين : انه حدس عميق بالناس
والاشياء يسم سعادتها من غير أن يهبها القوة للتخلي عنه فتغشى نفسها
نوبات من الكآبة تمنح في حياتها بكل تمهل .

يستحق ذلك الغريب الذي يتباطأ الآن في تقشير تفاحته ، كل ما
بدلته من عناء بغية استعباده ؟ أيكون قوام حياتها كله مراقبة الرجال
الذين يفشون مطعمها ومنعهم من الذهاب الى مكان آخر ؟ وباتيها من
داخلها صوت ودت لو تستطيع إسكاته فيقول : « أجل ، تلك هي
الإمرة ، إنها التنتطع لقيادة رجال أضعف من أن يقووا على مقاومتك ،
والتوجه إليهم زجرا مثل قائد لجنوده . وسوف يسلبك الموت
ومصادفات الحياة واحدا أو اثنين منهم بين وقت وآخر الى أن يأتي
يوم يأخذك الأجل فيه أنت أيضا . بعدئذ يفلقون مطعمك ويبيعشرون
أموالك ، ويتكلمون بعض الشيء على مدام لوند ، تلك التي كانت تعتمد
أسعارا رخيصة جدا ، ثم تمحي ذكراك من كل الحافظات ، وكأنك لم
تمر في هذه الحياة » .

وعلا صدرها . ما الذي يجعلها تشعر أنها حزينة جدا على هذا النحو المبالغ ؟ أليست موضع تقدير في المنطقة كلها ، بل مكرمة وذات نفوذ أيضا ؟ فيماذا ترغب علاوة على ذلك ؟ وانتزعها الطامعون من تأملاتها حين شرعوا ينهضون متوجهين نحو مكتبها واحدا فواحدا ، لتسديد ثمن الوجبة أو لطلب مهلة . وهكذا عادت الى نفسها ، فقست ملامحها ، واسترجعتها مهنتها على نحو تام . الا يريد المسيو غونسولان أن يدفع أيضا ؟ الا يزال متمسكا بمراكمة الديون الصغيرة ؟ لا بد من عقد الحاجبين قليلا على نحو يتناسب وخطورة هذا الوضع . يلزم الانتظار هنيهة لتدوين اسم السيد غونسولان في دفترها الكبير . والسيد بلوندو كذلك لا يدفع ؟ لا بأس يا مسيو بلوندو ، لكن حذار ! هنيهة أيضا من أجل السيد بلوندو . ثم أقبل السيد ليون ودفع . وهذه ابتسامة للسيد ليون . والسيد غورش كذلك ؟ نعم ما فعل ! إنها الوجبة الرابعة من غير نبيذ ، أليس كذلك ؟ (بلا نبيذ بسبب العجز المعروف الذي يعاني منه السيد غورش . ومدام لوند على علم بالأمر) . وهذه ابتسامة للسيد غورش .

نعم يا سيد ؟ ذلك هو الزبون الجديد . وناولها قائمة حسابه . فأخذت الورقة بحركة رشيقة من يدها وهزت رأسها من غير أن ترفع عينيها . وسألته بهدوء :

— هل أوضح النادل الأمر لك ؟

— أجل ، يا سيدتي وأنا أود أن أدفع .

— ما دمت عازماً على العودة ، فسوف أبقى حسابك جانباً .

— لكنني لا أعرف هل أعود أم لا .

نفدت تلك الكلمات كنصل خنجر الى قلب المعلمة . فرفعت ناظرها وتفحصت الغريب دون أن تقوى على التفوه بكلمة . أيمن أن تكون قد أخطأت التقدير ؟ وهل سيفلت هذا الرجل من بين يديها رغم كل شيء ؟

فمظهره يتم على شدة وجله ، وكانت قبل هنيهة واثقة من أمره كل الثقة ! ما من شك في أن زلّة لسان غريغوار ، ذلك الأحمق الذي لم يعرف كيف يتصرف بكياسة ، تسببت في هذا كله . كان الواجب يقتضي أن تتولى بنفسها شرح عادات المطعم لهذا السيد (عادت تعتبره سيداً نتيجة ما أبداه من مقاومة .) أما الخجل خوفاً من تلقي الصداق أمام الزبائن أجمعين فقد تبتدأت آثاره على وجه مدام لوند . فلو كان يحمل حقيبة على أقل تقدير ، لأدرك الجميع أنه مسافر ، وأن وجوده في لورج مؤقت ، على سبيل العبور . ولكن ما دام لا يرتدي معطفاً ، فدلّيل واضح على أنه يقيم في مكان قريب .

تسببت الإصابة التي استهدفت زهو تلك المرأة بألم شديد لها ، حتى حسبت أنها على وشك أن تنفجر غماً ، لكن نوعاً من الإلهام جاء فجأة يشد من أزرها . فنقلت نظرها واستعرضت بتمهل وجوه الزبائن وقد أصاحوا السمع للمشهد ، فاستعادت الثقة ، لما قرأته على وجوههم من خوف غريزي ، فأخذت الفاتورة التي باولها إياها الغريب فمزقتها أربع قطع . ثم أعلنت بصوت عال وقوي :

— القاعدة العامة هنا أن الوجبة الأولى لمن يألف المطعم لا يدفع ثمنها أبداً .

وأجالت نظرها مجدداً على وجوه الزبائن وكأنها تتحداهم أن يردوا فلم تبدر عنهم حركة ما . إلا أنهم كانوا جميعاً واثقين من أنهم قد سدّدوا قيمة وجبتهم الأولى عند مدام لوند . بيد أن ذهولهم وفزعهم من إفاضة تلك المرأة أبقيا شفاههم مطبقة . وبحركة غريزية ازداد اقتراب بعضهم من بعض فأحاطوا أكثر بالغريب الذي ظل صامتا . فوجهت المعلمة نحوه كل انتباهها وأضافت تقول بلهجة حازمة :

— احسب أن السيد لن يبخل عليّ بمتعة تقديم هذا العشاء الأول إليه بصورة مجانية .

ثم استغفلت دهشة الغريب والقبول الضمني الذي قرأته في أعماق عينيه ، فتغلبت على انفعالها (ماذا بوسمها أن تفعل بعد كل شيء لو أنه رفض هبتها ؟) وفتحت دفترها بشكل مفاجيء ، وقدمته إليه مشيرة بإصبعها إلى صفحة بيضاء . ولن تكون مضطرة على ذلك النحو لأن تسأله عن اسمه فتعترف أمام الجميع بجهل عانت منه الكثير .

وقالت من غير أن تقوى على تمويه رعشة خفيفة في صوتها :

— أرجو أن يتفضل السيد بالتوقيع هنا .

أحست بجفاف في حلقها . لقد أمسك بالقلم . لماذا لا يقوم بتدوين اسمه ؟ هل يوجه إليها اهانة بحضور زبائن المطعم كافة ؟ لقد ضاق صدرها أخيرا من هذا الرجل الذي يقاومها وطفح بها الكيل . إن لم يوقع فستصفعه .

وقال بعد لحظة من التردد :

— ذلك أني لا أدري متى يمكن أن أعود .

ثم رفع ناظره إليها وبدأ أنه يبحث عن حل لتلك المعضلة في عيني المعلمة . ودقق كل منهما النظر في الآخر بضع ثوان . كان الرجل ذا وجه يفيض حزنا ونصبا . ماذا يريد منه كل هؤلاء الناس المحيطين به وتلك المرأة التي بدت كأنها تتملى بالنظر إليه ؟ وشعر كآته متهم في محكمة أبلغ عنه أمام القاضي حشد من الشهود .

أجاب مدام لوند وهي مطبقة أسنانها :

— حسبي أن أعرف أن السيد سيعود ذات يوم .

قد يكون ارتاع من اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات حتى أطرق برأسه ووقع . فأدارت المعلمة الدفتر على الفور فألقت نظرة نهمة على التوقيع وقالت وهي تومئ براسها :

— الى اللقاء قريباً ، يا مسيو غريه .

واستعادت من ثم كل قوتها ووقاحتها لتقول بصوت جاف ، كي تستمتع بالقسوة على جمهورها من جهة ، ولتقدم لزبونها الجديد فكرة عن سلطانها :

— هيا أيها السادة ، لا تتباطؤوا ! ينبغي إخلاء القاعة في خمس دقائق . فليس لدي من وقت أبدهه هنا . هيا فليتقدم التالي !

واستراحت في قعدتها وأزاحت بحركة انتصار إناء الأزهار الصغير ناحية اليسار . فلقد كسبت الجولة .



- ٤ -

حين اغلق غريه وراءه باب المطعم خطرت فكرة على باله . وهي فكرة مألوفة ، تعتاده منذ سنين في الحظات الاضطراب العنيف : « إنه القدر ! إنه قدري . » وتطمئن نفسه لهذا التوكيد ، مثلما تطيب نفس كل كائن ضعيف حين يجد مصيره بين يدي قوة عليا ، ولو كان سيعاني العذاب ، بل ولو كان سيعدم حياته . ولا يعود له من بعد ان يقرر أي شيء من ذاته . فالاحداث الصالحة أو الطالحة سوف تقع تلقائيا . وما دامت تلك المرأة تلح عليه ان يعود إليها فسوف يعود اذن . وهو يرى في ذلك مؤشرا يوحى بأن ارادة غامضة تتحكم بوجوده .

ففي الصباح ذاته استبد به على نحو مباغت فرح بليد حينما تحسس في جيبه الخاتم المخصص لانجيل . ماذا او نجح في مسماه أخيرا ؟ فالاعتقاد لم يساوره حتى ذلك الحين بأن الامر ممكن . لانه عندما يرغب في شيء رغبة عنيفة يكون واثقا من أنه لن يحصل عليه ابدا . فالحياة علمته ذلك ، لكنه اعتقد هنيهة قصيرة ودونما سبب بأنه سينجح . فقال في نفسه : « سوف تفهم ولو لم تكن تحبني اني اعاني أقسى العذاب . » وبدت ساعات القلق الطويلة في نظره ذات ثمن بخس إذا ما قورنت بلحظة السعادة وقد لاح له اقترابها .

تذكر الآن ، وقد حل الليل وشعر بوحدته وخذلانه ، ذلك الوهم الذي يساوره في الصباح ، فهز رأسه . وانتابه الاحساس وهو في نهاية يوم على تلك الشاكلة ، بأن اعواما كاملة قد مرت في بحر بضع ساعات . وأنه أمسى بنقطة عجوزا . عندها اغرورقت عيناه بالدموع على نحو مباغت

وهو يتفكر في مرحلة شباب يسرقها منه الزمن . واتخذت كل المغامرات الدنيئة التي خاضها حتى الآن نفس المظهر من الكآبة والرتابة . فاستعداد بحركة طبيعية لديه نفس الصورة التي كان عليها قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة ، وقلبه مثقل بالرغبات ومفعم ذاتيا بوعود عالم يتكشف شيئا فشيئا . فما هو كنه ذلك العالم الذي لمح في حلم عذب ؟ وإلام آل سحر المراهقة ذاك ؟ ها هو لا يجد في الذكريات التي تعتاده الآن إلا مرارة الخيبات الأولى وبؤس واقع شحيح ، وهول الكلمات والحركات ومالاً يعطى ويؤخذ دون كلمة واحدة . ومن ثم الزواج وجروحه وضغائنه ، وما ينبني التحلي به من صبر للعيش كل يوم بصحبة مخلوق مل صحبته منذ سنين ، والتسميم المتصاعد لحياته كلها .

توقف واستند الى جدار أحد المنازل . اذا كان الماضي يمنحه كل تلك الضمانات لتأكيد لاحق فاي خير يأمله في المستقبل ؟ ولم يقول في نفسه إن الحياة قد تحلو بعد عام أو بعد عامين ؟ اليس غيبا مثل غبائه السابق وهو ينتظر ضربة كريمة من حظ تغمره بفرح فائض ؟ وبعد عشر أو خمس عشرة سنة ، حين يسمي عجوزا خائبا ، ان يقعد ينن ويندب سذاجته الماضية كما يفعل اليوم ؟

هبب الريح بأسى في الشارع المنزوي ذي النوافذ الممتمة ، فأحدثت دمدمة شبيبة بصوت انساني ، ثم توقفت على حين غرة مثل شخص لم يعد يعرف اين بلغ به السرد من حكايته . لا يمكن ان تكون الساعة قد تجاوزت التاسعة لكن الليل في المدن الصغيرة المنعزلة مثل مدينة لورج ، لا يتعرض لنفس عمليات انتهاك الحرمات التي تصيبه في العواصم فتبهره بأنوارها الساطعة . وعليه فقد بلغ بول غريه ، وسط الظلمة ، الطريق الرئيسية المؤدية الى سانتيليا .

ولم يقو وهو يجتاز عبارة الخط الحديدي أن يحبس زفرة . لم يمض غير شبر واحد مذ أن استقر في المنطقة وهذه نفسه تعاف كل ما يراه . وما انقضت عليه إلا أيام قلائل وسط هذا المنظر الجديد الذي

ظن انه سينسى فيه كل سأمه ، حتى عاد يجد نفسه على مثل ما كان . وضع يده على عارضة الحاجز في نفس المكان الذي رأى أنجيل تضع يدها عليه . ويا لحياته المنفجرة في أن يلقى الضنى من أجل مخلوق سينساه يوماً مثلما نسي آخرين كثيرين . وأن يتحول عن هذا الكائن ليحمل رغباته الى موقع آخر ، والرغبات هي نفسها على الدوام ! حاول ان يتذكر وجهها بالضبط . ففي المساء نفسه راقبه بفضول محموم كأنما قد سعي ليعوض بجرأة النظر عن الارتباك الذي أصاب لسانه ويديه . إلا أنه عجز عن رؤيته . حاول عبثاً وهو يغمض عينيه . لكن القسمات أفلتت منه . وإذا لم تكن القسمات كلها ، فقد أفلتت منه على الأقل شيء ما في طريقة تكوينها ، أي ذلك العنصر الذي يتيح لك تمييز شخص ما من النظرة الأولى . ذلك أنه تذكر ، وهو يعمل التفكير ، شكل أنفها وشفتيها وحتى تعبير عينيه ، لكن الصورة التي رسمتها ذاكرته ظلت تنقصها الحياة وظل الوجه يفرّ منه مع بقائه على مقربة منه ، مثلما يلوح للبال اسم ما دون أن يتوصل الفكر الى ايجاد حروفه .

واعتترف في دخيلة نفسه : « معرفتي بها اذا رديئة جداً . فكيف لي أن أقول إنني أحبها ذلك الحب الجم ؟ » لو رآها غداً للقي عناء في التعرف إليها من الوهلة الأولى ، وشيئاً فشيئاً ستستعيد في نظره شكلها الحقيقي . ومن تلك التقلبات في التذكر وتبدلات وجه يظهر ثم يختفي تارة إثر أخرى ، كان يقرر ، بحكم عادة قديمة تعودها قلبه ، مدى عمق رغبته .

حين وصل الى شارع رفع رأسه وعبس لرؤية نور في نافذة غرفته . كان يأمل أن يستطيع النوم من فوره ، وإلا فإن زوجته التي لا يحبها ستطرح عليه اسئلة مقيته ، اسئلة تعتقد أن من حقها أن تطرحها عليه لأنها زوجته . وخطرت بباله فكرة البقاء خارجاً والتجوال في البرية الى أن ينطفئ ذلك النور الذي يرقبه مثل عين مفتوحة . لكن حاجته الى النوم ونسيان عنائه حولته عن فكرته بسرعة . فدخل بيته وصعد الدرج .

كانت زوجته ساعة دخوله منهمكة باعادة ترتيب الغرفة ودفع الكراسي لمحاذاة الجدار . إنها امرأة طويلة القامة مائزلة شابة ، لكنها على درجة واضحة من الدمامة رغم أنها قد تروق للعيون لما هي عليه من صلابة وصحة . إنها تذكرك بفلاحة علمتها المدينة ان تزدري رأسيتها(١) وخمارها وتنورتها المخملية ، فأرادت أن تلبس مثل سيدة مدنية من غير أن تقوى على التحرر من ميلها الى الثياب السوداء . كانت قبعتها التي لم تنزعها بعد تلقي بظلمها على وجهها . أما أشكال جذعها القوية فتتجلى تحت قماش صدارها اللامع . وتحزم تنورة من الصرج(٢) أعلى السقين ولا تتراخى إلا عند الركبتين .

قالت وهي تستدير : « ها أنت قد عدت » .

علق قبعته على المشجب وجلس قرب منضدة مستديرة تحتل وسط الحجرة .

قال : « اجل » من غير أن ينظر اليها ، وفتح جريدة وجدها في متناول يده ، لكن عينيه كانتا تنتقلان من مقطع الى اخر من غير أن تتوقفا عند أي واحد من أنباء الساعة الأخيرة . إلا ما أثقل هذه الدقيقة عليه ! وما أشد ما تثير نفوره ! هناك شيء ما يلزمه على رصد حركات زوجته فيسعى رغما عنه ليخمن ما ستقوله . وراها تتردد برهة ، وتهم بطرح سؤال عليه ، ويدها مستقرة دون شك فوق مسند الكرسي . أخيراً نزع قبعتها وقالت وهي تجلس قبالة زوجها :

— ألا تسألني ماذا فعلت وإلى أين ذهبت ؟

فتظاهر بأن قراءته انقطعت ، وقال : وماذا بعد ؟

(١) رأسية : غطاء نسائي للرأس شائع في الريف الفرنسي . «م» .

(٢) صرج : نسيج صوفي متين .

— هل يروق لك ان تعرف اني ذهبت الى المخزن ؟

فسألها : وهل دفعوا لك ؟

أومات برأسها إيجاباً . وجعلته قسماتها الضخمة القريبة منه
جدا يبدو كالأحمق ، لولا مسحة خفيفة من الحزن تطفو على صفحة
وجهه . ولم يتهرب من القيام بمقارنة فكرية بين هذه السحنة ومحيا
أنجيل . وتسائل عن نوع القوة ، بل عن نص الاتفاق الذي يمنعه من القيام
فجأة ليقول الحقيقة لهذه المرأة ، ويوضح لها أنه اثناء حديثه معها لا يفكر
إلا في واحدة أخرى ، وأن قلبه وعقله تحولاً عنها ويتهربان منها .

قال بلهجة آلية :

— اليس الموعد مبكراً ؟

فهزت رأسها مجدداً وسالت قائلة : وانت ؟

استقرت عليه عيناها الزرقاوان بإلحاح ضايقه . وبدأ له أن تلك
وسيلة تستخدمها لإرغامه على الرد . كان فيما مضى يهوى هاتين
العينين ويتأمل لونهما الدافئ بعض الشيء وشكلهما اللوزي ونوعاً من
لهيب مرح كان يراه متألّفاً فيهما على الدوام . أما الآن فهذه النظرة
الفتية التي ظلت كامنة في وجه هرم ، تبلو له شكلاً من أشكال الهزء .
فقال في نفسه : كل مافيهما من فضل يزيد مافيهما من سوء حدة .

اجاب بصوت عالٍ :

— انا استلمت اجري كالمادة .

— ومتى ستطلب علاوة ؟

فكرر قائلاً وهو يخفض جريدته :

— علاوة ؟ أليس لديك من شاغل غير هذا ؟ وهل تحسبون أن
المرء يطلب بعلاوة بعد ثلاثة أسابيع فقط ؟

— مضت أكثر من ثلاثة أسابيع ، يا بول . فنحن وصلنا إلى هنا
في شهر آب .

ونهز: بكتفيه .:

— لست إلا طفلة . ولن أطلب شيئاً قبل نيسان أو أيار .

فأجابت بهدوء :

— لن نكون في رغد من العيش هذا الشتاء . هل فكرت بكل النفقات
التي تكبدناها بسبب الانتقال ؟

فحدق فيها ملياً وقال :

— إلام ترمين بقولك ، يا ماري ؟ أنا المسؤول إن كنا لسنا اغنياء ؟
أم أنك ترين أنني لا أعمل ما فيه الكفاية ؟

— أراك تعمل ما فيه الكفاية ، لكن هؤلاء الناس الاغنياء لا يدفعون
لك الأجر المناسب .

— هل فهمت قصدي حين قلت لك إن المرء لا يطلب علاوة
في غضون بضعة أسابيع ؟ العلاوة ليست هدية . ولا مناص من الانتظار
سنة أشهر على الأقل .

— كان عليك أن تطلب أكثر منذ البداية .

لنسلم بأنني أخطأت . هل أنت راضية ؟ على كل حال فات أوان
طلب المزيد . فات أوان الطلب . وأوان المطالبة لما يحق .

— كما تشاء .

ثم حملت قبعتها وقامت فخرجت من الحجرة . انقضت بضع دقائق . وبارك لحظة العزلة تلك إذ أتاح له أن يسترجع منحنى أحلامه وأن يتخيل مئات الأشياء المستحيلة . وحياة مغامرة ، وكل السعادة التي حرم منها . لقد أعوزته العزيمة وهو يواجه أنجيل . وكان عليه أن يقدم لها مالا على الفور بدلا من أن ينساق على درب العواطف ليلبغ مرحلة لم يعد يجرؤ فيها على أن يتحدث إليها أو حتى أن يلمسها . وهناك احتمال في أن ترفض لكنه عندئذ سيعرف أي سبيل يسلك . فحالة الشك التي يعيشها الآن تثير سخطة . وهل هناك ما هو أكثر مدعاة للسخرية من مغازلة فتاة ، مغازلة غرامية ، وهي ربما لا تطمح إلا للحصول على ماله ؟ ربما ؟ بل بالتأكيد ! اقتنع بفتة بأنها كانت ستقبل المال . وهل من فتاة فقيرة لا تفعل ذلك ؟ وهذا يفسر قبولها ببقائه في الطريق من غير أن تمنحه شيئا آخر . كانت تتوقع أن يقدم لها ذلك المال ، أن يشتريها . وأعطائها هو خاتما هزليا سرقه من زوجته وهو لا يصلح إلا لبنت صغيرة . وكان ذلك كل ما استطاع أن يعثر عليه كهديّة . ويا له من غبي ! وقد ساورته الشكوك بشأن التصرف اللائق ، فيما كان الواجب يدعو له لأن يفتح محفظته ويعدّ الأوراق النقدية . أما هي فأخذت ذلك الخاتم دون كبير مسرة ، وغادرت على الفور تقريبا ، وقلبها يطفح ازدياء دون شك . ولقد أحسنت بتصرفها على ذلك النحو .

قالت ماري وهي تدخل الغرفة :

— لا أريد أن ينشفل بالك بذلك الشأن . فنحن سوف تدبر أمرنا في نهاية المطاف ولو اضطررنا إلى الاستدانة .

واستدار بفتة لدى سماعه نغمة ذلك الصوت ونظر إلى زوجته بوجه مكفهر . فبساطة هذه المرأة فاجأته . فمنذ سنين وهي تعيش

بجواره من غير أن تساورها شكوك بشأن أفكاره . فهي لم تر شيئاً ولم تحزر شيئاً ولم يخبروها بشيء . فالخياطة تشغلها من الصباح حتى المساء . وهي تنزل الى باريس مرة في الاسبوع . فتقصد أحد المخازن الكبرى حيث يؤدونها أجر عملها . تلك هي حدود حياتها ، وهو يعرفها . أما نفس هذه المرأة المطمئنة ، فلم تبرز فيها من رغبة قط ، ولا ظهر لديها البتة من قلق لتعكير صفو سعادتها النشيطة . وإذا كان الهم يعتربها من وقت لآخر ، بشأن بعض العضلات المالية وكيفية حلها ، فإن سكينتها الطبيعية ما تلبث أن تتجاوزه . وهي مدينة بسعادتها للفقر الذي نشأت في ظله ، لكنها سعادة رتيبة من غير حماسة يمكن أن يفيظ مظهرها زوجها لأنه يعرف أن السداجة منبعها . ويتراءى له في بعض الأحيان أنه كان يفضل فظاظة امرأة غيورة على لين طبع (ماري) الأبدى ، فيمقت الخضوع الذي تقابل به تعنيفه إياها ويمقت طرائق استكانتها ، وطيبتها ، حتى طيبتها التي يراها تتجلى في كل حركاتها .

قال متعباً : « بالي غير منشغل . أنت ستخيلين أشياء وأشياء . هل أغلقت المصاريع الخشبية ؟ »

تأملته برهة ويداها تستندان الى الطاولة كأنها تجهد لتدرك ما لم يشأ أن يقوله لها . ولم يقوَ على احتمال تلك النظرة . فقال بحركة تنم على تعب :

- دعيني ، أرجوك . عملت اليوم كثيراً وأرغب في أن ارتاح . لا تسأليني عن شيء . هيا أغلقي المصاريع .

انصببت دون أن تتفوه بكلمة وقصدت النافذة ففتحتها على مداها الأقصى . فبدأ كأن الفلك دخل الحجرة بغثة ليملاها بليله ونجومه . فحول الرجل رأسه رغم حزنه ونظر . وأحس بغثة بشيء جعل قلبه

يخفق ، بانطلاق غامض نحو ذلك الكون الشاسع الصامت الذي بدا
كأنه يدعوهُ إليه . يا للسكينة الكامنة في تلك السماء السوداء بعد سكون
جلبة كلام البشر !

« إيه ، عيشة السعادة ! »

قال ذلك في نفسه حتى كأنه لم يشعر قط حتى الساعة بقوة تلك
الكلمات .

وانفلقت المصاريع واحداً في إثر واحد .



- ٥ -

كان يتراءى له أنه يعرف تلك القاعة الفخمة ، ذات الستائر المخملية والمفروشة بالسجاد ، منذ طفولته . ذلك أن بعض ساعات السأم تبدو طويلة طول حياة كاملة . وهناك على وجه التحديد كان يعاني من أشد حالات السأم . وإذا ما تجاوز الوضع حدود الاحتمال ، زاغ نظره عن كتاب القراءة ليسير في متاهات الجدران المفتاة كلها باللوحات ، فيتفحصها بعناية ، متنبها لكل التفاصيل التي يعرفها عن ظهر قلب ، لكنه يبقى جاهداً في أن يكشف فيها شيئا جديدا . عندها لا يبلغ صوت الولد مسمعيه إلا مشوشاً وبعيداً كأنه في حلم . ويتسرب الناس ويبدأ إلى عينيهِ فيغمضهما ، وإلى رأسه فيميل إلى صدره ، ثم يعيده الفرع إلى نفسه ، وخوفه من أن يسمع التلميذ يصيح بفتة : « لكنه نائم ! إن المسيو غرييه قد نأم . » أما الذي سيقع بعدئذ ، لو أن مثل هذا حصل ، فيتمثل في دخول مدام غروجورج ، التي لا تبتعد أبداً ، والتي تجلس له دوماً بالمرصاد ، وهو واثق من ذلك ، حسب طريقته المباشرة المألوفة لتطرده .

انهال المطر مدرارا في ذلك الصباح وكانت الزخات العنيفة تنتزع أوراق الأشجار من حديقة آل غروجورج بنوع من الفرح المسعور فتتهز السياجات وتحصد الأزهار ، ساحقة أزهار (البغونية) التعميسة التي رُسِم بواسطتها على نحو متشابه في زاوية من الباحة المرجة اسم أصحاب الدارة . أما أشجار الزيزفون فتلوح فوق ذلك الدمار بأذرعها العاجزة . كانت تلك السورة من غضب الطبيعة تشكل تناقضا فظا مع كل ما تحويه القاعة التي احتجز فيها من ضحالة وسماجة ! فلا يفصله

عن الهواء البارد النقي وصيحات الريح بين الأشجار غير لوح زجاجي رقيق . إنه لوح زجاجي فحسب جعله يشعر بأنه سجين . لكن ماذا عساه يفعل بحريته لو أنها ردت اليه بغتة ؟ لن تتأخر إجابته على هذا السؤال . سيهرع الى شارع المصابغ حيث لاتزال أنجيل تعمل في هذه الساعة . أجل ، هذا واضح ، لكن ماذا سيفعل من أجل أن يراها وأن يكلمها؟ فكر بعض الوقت فلم يمش على حل . إذ يستحيل عليه وهو في المقهى المواجه للمصيفة، حيث يجلس أحيانا ، أن يرى الفتاة إلا ساعة خروجها . فينتابه التذلل في تلك اللحظة عينها ويفقد صوابه . فيؤدي به خوفه من أن لا يرى أنجيل ، الى عدم تمييزها من لداتها . كان يرى على نحو مشوش ثلاث فتيات يعبرن أمام المقهى ضاحكات ثم يتوارى المشهد في ظرف ثانيين . أي تناسق شرس هذا الذي يسود العالم ! فهذه الارض تحتوى بكل تأكيد مروجاً خضراء ، وغابات يسع المرء أن يختبئ داخلها ويتيه وفيها نساء صغيرات وحسنات يمكن أن يعشقن ، لكن ضرورة حاقة تعتمد الى عزل الكائنات ، وإغلاق الابواب ، وتعبت وهي تدفع الى هذا الشارع بأولئك الذين كانوا سيجدون السعادة في الشارع المجاور ، وتلهو بجعل البعض بولدون من قبل ، والبعض الآخر بضع سنين من بعد . أما الفكرة القائلة إن السعادة ، بل سعادته هو ، موجودة في مكان ما وأنه لا يعرف أين ، فجعلته يستشيط غضبا . وحين كان يلاحق الفتيات انما كان يسمى وراء تلك السعادة . وهو في الواقع أشبه ما يكون بفتي عصبت عيناه من أجل لعبة (الدب الاممي) ، وبدأ يسمع الصيحات تتوالى في أذنيه : هنا ! هناك ! وروح يدور وهو في مكانه ، فيتوجه ذات اليمين وذات الشمال ، بشكله المضحك التائه ، ويوما بعد يوم يزداد عجزاً ويزداد شعوراً بالخيبة . وآخرون ينعمون بشروات طائلة تأتيهم على ما يبدو من تلقاء ذاتها لأنهم فقط لا يسعون وراءها . وقد يصير هذا الولد ، الذي يتعتع وهو يقرأ صفحة في كتاب التاريخ ، واحداً من أولئك في يوم من الايام ، فهو غني قبل كل شيء .

ملأت تلك الفكرة نفسه بكره مفاجئ فانحنى نحو الرأس الاشقر حتى استشم رائحة شعره المقصوص قصيراً مثل المرج . وساورته رغبة

جنونية في أن يصفع ذلك الصبي الصغير ليستمتع من بعد نالذهاله وهلمعه . فالولد غني وهو فقير . وعليه بسبب فقره ، أن يصفى الى ذلك الصوت المتلثم ، وأن يقوم اعوجاجه بلطف متناه كلما أخطأ ، وذلك بدلا من أن يمضي مسرعاً الى أنجيل ، فيقدم لها المال ويلطف من سعيير العاطفة المتوقدة التي تلهب قلبه . فأى اله شرس ذاك الذي وضع الذهب في جانب والشهوات في الجانب الآخر ؟ أكان ذلك معاينة أم هو مزاح ثقيل ؟

انفتح الباب بفتة وهو عند تلك المرحلة من أفكاره لتدخل منه مدام غروجورج. ومشت بخطى سريعة وصامتة فتوجهت نحو طاولة الولد الدراسية . كان وجه تلك المرأة البارد يحول دون تقدير عمرها . فخلوه من التجاعيد يشير في المرء العجب لعدم ظهور الغضون عليه . كما يتوقف ذلك على قسوة نظرها الخارقة . فعيناها السودوان المتحرزتان ، بلمعانهما المعدني، كانتا في الواقع عيني امرأة عجوز. لكن أنفها دقيق ومستقيم وفمها صغير وجيل ، رغم امتلاء ما في الشفتين . أما الوجنتان فعاليتان ، وتأتي من ثم بشرة بيضاء جداً لتغلف تلك القسمات الرقيقة ، وتحافظ على نعومة مخملية يمكن أن تضلل النظرة المتمرسه لعدوة لدودة . ولا يصعب على المرء أن يتبين لدى مدام غروجورج قوة شكيمة ، لا تتجلى في أقوالها وحركاتها وإنما في هيئتها ، بل حتى في طريقة تمالكها لأنفاسها . وقد يظن المرء أنها تحقد على رثيها لانهما ترغمانها على التنفس ارغاما . وهي طويلة القامة ، متينة البنية . كانت ترتدي صداراً أصفر مخزماً وتنورة من جوخ بني . ويشوب شعرها الاسود شيب خفيف عند الصدغين فلا تكلف نفسها عناء تخضيبه . لكنه مصفف بعناية فائقة .

قالت بصوت خافت قليلا :

— لم تنقض الساعة تماما ، يا مسيو غريه . وأريد أن تستغل ما تبقى منها لاعطائي فكرة عن الطريقة التي تعتمدها لتعليم ابني . ومن الطبيعي ان تتصرفا معاً كأنني لست هنا .

وقصدت الركن القصي من الصالة فجلست على كرسي متخذة
وضعية الانتظار ، فلفت ساقا على ساق ووضعت يديها على ذراع
الكرسي . القى الولد نظرة فزع على أستاذه . ونقل هذا نظره بين تلميذه
ومدام غروج ثم قعد مجددا .

همس الولد قائلا : « ما الذي يجب عمله ؟ » فهو يعرف أمه
معرفة جعلته يدرك أن هذه الزيارة ليست بشير خير .

قال غريه بصوت حاول أن يجمع فيه الهيبة باللفظ معا : طيب
يا ولدي ، اكمل قراءة صفحة التاريخ هذه .

— لم يبق الا ثلاثة أسطر ، يا استاذ .

— قلت لك اكمل .

انحنى الولد منكبا على كتابه حتى كأنه سيلعقه وتلجج في قراءة
عبارة لم تسمع منها كلمة واحدة ذات فائدة .

حين انتهى من أداء امتحانه ذاك قال له غريه :

— أغلق كتابك ، وهات قل لي ، ما الذي فهمته مما قرأته . فكرر
الولد :

— ... فهمته مما قرأته .

كان اشقر هزيلا ، ذا وجه زاده الرعب من صفة محتملة شحوبا ،
وأنف ضئيل مرصع بعدد كبير من نقاط النمش . لبث برهة فافرا
فاه ، وانتقل ارتبائه الى استاذة الذي احمر وجهه وتجلت عليه امارات
الصبر والضيق التي يخشاها الاولاد كثيرا .

— أسألك عما تتذكره من قراءتك ، وعن الانطباع الذي تركته
فيك ، في ذهنك ، في ...

ورأى الصمت . استرق غريه النظر الى مدام غروجورج فبدت
كمن قنّدت من صخر . وبدأ له جمود تلك المرأة أكثر هولا من غضبها .
فبدأت قطرات العرق تسيل على جبينه ببطء .

فاستأنف يقول بصوت متهدج بدت رنته مقيّنة على سمعه :

— قل لي ، يا بني ، عمن تتحدث تلك الحكاية ؟

— ماذا ؟ عن الملك .

— جيد ! جيد جدا ! عن أي ملك ؟ عن لويس الحادي عشر ، عن
لويس الثاني عشر ؟

— لويس الحادي عشر ..

ومن غير أن يحول عينيه عن غريه مد يده من تحت الطاولة
وحك ريلة ساقه .

— ولكن هذا جيد جدا ! — ثم سأل الاستاذ بشرود : « و ... ماذا
فعلوا به ؟ »

— وضعوه في قفص .

سادت لحظة من الوجوم لم يعرف غريه ماذا يقول في أثنائها .
لا شك في أنه أساء طرح سؤاله . لكن لماذا ظهور مدام غروجورج كان
وحده كافيا لتسوء الامور الى هذا الحد ؟ اذ لم تدر عنها منذ بداية
هذا المشهد اية حركة ، بل كانت تصغي بنوع من الضراوة المهذبة وتنتظر
المشهد التالي .

قال غيريه بمباغتة نجمت عن الخوف :

— ففكر فيما تقوله . انت تعرف حق المعرفة أنهم لم يضعوا لويس
الحادي عشر في قفص . بل هو الذي ، على العكس من ذلك ... تابع .
بل لويس الحادي هو الذي ...

فصرخ الولد مذعورا :

— لا اعرف !

وأخذ ينتحب وهو ينظر صوب أمه من فوق مسند الكرسي .
فاعترت مدام غروج رجفة . وبدرت عن غيريه حركة مترددة باتجاه
الولد . ثم وقف . وتدخلت ساعة الحائط فأضافت الى البلبلة السائدة
دوي دقائقها الاحدى عشرة .

فقالت مدام غروج :

— يا أندريه ، أندرك بأن ما تحدثه من صخب يستحق صفعة .
ومصلحتك تقتضي أن تكف على الفور . والا فسوف ترى مدى جدبتي
فيما أقول .

رفع الولد قبضتيه نحو فمه محاولا أن يخنق صراخا عجز عن
ضبطه . وتوسل بنظره مستنجدا باستاذة ، لكن غيريه ظل صامتا ،
لا يدري ماذا يقول ، للتخفيف من الموقف الحرج الذي تحول المشهد
اليه . وقف وظهره نحو النافذة . منذ بضع ثوان وراحة كفه مستقرة
فوق صدره مثل رجل عازم على تبرير موقفه ، وما لبث أن بدا له على
نحو مفاجيء المفزى المضحك لتلك الحركة فأنزل يده وقد احمر وجهه .

وتمتم قائلا :

— مدام ، اني شديد الاسف .

فقلت مدام غرو جورج من غير أن يبدو عليها أنها سمعت كلامه:

— يا مسيو غريه ، إني عازمة على إرسال ابني الى المدرسة الثانوية في العام القادم ، فهل تعتقد أنه مؤهل لامتحان القبول في الصف السادس؟ فكر . ولا ترد عليّ بالإيجاب لتدخل السرور على قلبي . فكر مليا .

كان في صوتها عدوية غريبة ، تستشم منها رائحة تهديد . واضطر غريه الى أن يصيح السمع كي يتلقف تلك الكلمات . لان شفتي مدام غرو جورج كانتا تتحركان حركات ضئيلة جداً وهما تنطقان بها . وكان مستحيلاً استشفاف شيء من قسماتها التي بدت عاجزة عن التعبير عن أي انفعال انساني . ومع ذلك فإن عينيها تتشبثان بالأشخاص والأشياء على نحو من القوة وشدة التركيز مما يسبغ على نظريهما شكلاً متوقداً . حدثت في الاستاذ دون أن تحول نظرها عن وجهه الذي احتقن ارتباكاً وخجلاً . وكأنما هي تسعى لتكشف الطريقة المشوشة التي تصاغ بها الإجابة على سؤالها داخل رأس هذا الرجل الممتن ، ووراء تلك الجبهة التي رأتها تلتهم من العرق . تلذذت بعض الوقت بمتعة ذلك المشهد ، حابسة أنفاسها في أنفها ، مثل وحش شهواني ، ثم انتصبت بجذعها قليلاً وفركت كفاً بكف من غير صوت .

عندئذ قال غريه وقد اعتقد أن تلك الحركة تعبر عن نفاد الصبر :

— سيدتي ، يتراءى لي أن بضعة أشهر من الجهود المتواصلة كفيلة بجعل ابنك قادراً على أن يتقدم في نهايتها الى امتحانات السادس .

فأجابت وهي تداير رأسها بخفة فيها ظل من الدلال :

— نحن من رأي واحد يامسيو غريه . وتدور في خلدك دون أدنى شك فترة أربعة أشهر أو خمسة من العمل والمثابرة . .

— بدون شك ، يا سيدتي ، أربعة أشهر أو خمسة . ذلك
ما أرمي اليه .

فأستأنفت تقول بالنبرة المهذبة الخاصة بسيدات المجتمع :

— أربعة أشهر أو خمسة من العمل الجاد المتواصل تحت إشراف
أستاذ نشيط وماهر ... نحن لا نزال من رأي واحد ،
يأمنسيو غيريه ..

— بكل تأكيد ... ياسيدتي .

— أستاذ يهتم بتلميذه فيعرف كيف يجعله يستوعب مايقرا ...
الا نزال ضمن نفس الرأي ؟

— بلى ، ياسيدتي .

— إذن ، أستاذ لا يشوش أفكار تلميذه وهو يلقي عليه أسئلة حمقاء ،
بل يقوم وهو في بيته بتحضير الدرس الذي سيلقيه في الغد
تحضيراً كاملاً . أي باختصار ، يا مسيو غيريه ، رجل يمكن أن
يوصف بأنه نزيه ، يعرف واجبه ويحترمه . فهل لديك من
شيء تقوله لي ؟

فهز رأسه نفيًا . ولو انه رغب في الكلام لحال ارتبأكه دون ذلك .

قالت : طيب . ينبغي أن تتوقع زيارات متكررة من حائبي ،
يا مسيو غيريه .

ثم نادى : يا أندريه !

فالتفت الولد صوب أمه ، فواصلت مدام غرو جورج بنبرتها الشائنة:

— تعال الى هنا حين ادعوك . ان تتعلم الاطاعة الفورية أبدا ؟

بذل اندريه جهداً شاقاً وغالب نفسه فترجل عن كرسيه وتوجه نحو ركن الصالة حيث تنتظره أمه ساكنة مثل تمثال . إنه قصير القامة . وثيابه من قماش الجرسى الأزرق الفامق ، تحيط بجذعه الضيل وذراعيه من غير أن تضيق عليه الخناق . وتنفذ ساقاه العاريتان مسن بنطال من الصرج ، قصير وعريض جداً . أما وهو يمشي فيجر قدميه جراً كمن أخذ على عاتقه تقويم صوف السجادة بلونها الأحمر والبنفسجي .

حين صار قبالة مدام غرو جورج قالت له :

— كم حذرتك أن لا تجرّ قدميك وأنت تمشي ؟ اقترب أكثر .

كانت تسند يديها الى ذراعي الكرسي وتحقق في الولد ، وهو يتهرب من نظرتها ويضع على شفتيه . قالت بهدوء :

— من العدل أن أبين لك ، قبل أن أعاقبك ، لِمَ أنا مرغمة على عقابك . قبل كل شيء كانت قراءتك لصفحة التاريخ سيئة جداً . فطريقة لفظك مغلوطة . وأنت لا تسعى لاستيعاب ما تقرأ ، وحفظه . والنتيجة أنك لاتزال جاهلاً كما كنت من قبل . فتضيع وقتك وتبدد مال أبيك ثم إنك لا تريد إصلاح اعوجاجك بالتخلي عن عادة قلب صوف السجادة وأنت تمشي . إياك أن تبكي ، فلا طائل وراء ذلك . إرفع رأسك وانظر إلي .

قالت ذلك وهي تركز قليلاً على أسنانها وتحقق في عيني ابنها بالحاح . ثم رفعت ذراعها الأيمن وارتدت به نحو الوراء الى الأبعد ما تستطيعه . ومكثت هنيهة على تلك الحال من غير أن تهتز عضلة واحدة في جسمها . وبفتة وبعد استدارة ضئيلة نحو اليمين لأخذ شيء من الزخم على ما يبدو ضربت الولد على وجهه بالقوة الصادرة عن آلة ويعنفها . فارتعد وشهق هلعاً وانفجر بالعويل . إلا أن الأم لم تحول عينيها عنه . وبدت كأنها لم تسمع صرخاته بل أخذت تتأمل الوجنة حيث بدات بصمة الكف الوردية تشحب شيئاً فشيئاً . وتسرب شيء

غريب إلى حدقتي تلك المرأة السوداءين . وغمر وجهها المسن المليح
تعبير من اللهفة والشهوة فأسبغ عليه مظهرا من الفتوة . وكان فكرها
في تلك اللحظة منصبا على ما تشاهده وماخوذا به ، حتى لم يعد لشيء
بالنسبة لها من وجود خارج حدود الكدمة التي أحدثتها أصابعها .
والو أن أحدا خلفها أطلق صرخة : « حريق » لما استدارت إليه برأسها .

كان غريبه يتأمل ذلك المشهد بهول منعه من الاتيان بحركة . فقد
انتابته الرغبة في أن يهرع الى الصبي ليضمه بين ذراعيه ، لكن فكرة
الاقدام على عمل يمثل تلك الجراءة بدت له ضخمة جدا . فشخصية
مدام غروجورج بكل أبعادها فيها من القوة والعزيمة ، بالإضافة الى
السيطرة الجبارة التي أسبغت عليها نزعة الشر في تلك اللحظة ، ما جعل
غريبه عاجزا عن مجابته علنا ، كعجزه أمام فكرة انتزاع الفريسة من
بين برائن وحش مفترس . فبقي ملتزما الصمت ، وهو يحرق رغما
عنه في الولد الذي طأ رأسه وطفق يتراجع بخطى مترددة أمام النظرة
المرعبة التي لاحقته بها أمه .

ومرت لحظات من السكوت لم يسمع فيها غير أنين الصبي الصغير
وتأوهات . وبفتنة ارتعدت مدام غروجورج كان سحرا قد أبطل مفعوله
أعاد اليها حريتها ، فرفمت نظرها الى الاستاذ وقالت بجفاء :

— طيب ، تجاوزت الساعة الحادية عشرة ، يا مسيو غريبه ،
ولا أرى ما يمكن أن يستبمك .

وقامت وهي تقول تلك الكلمات فتوجهت نحو الباب . وكان هو
لا يزال في مكانه ذاته ، وحين مرت من أمامه ، أمكنه أن يلاحظ رقعة
صورتها الجانبية الحازمة وفتنتها . فالجنة تتأجج حيوية تحت
تأثير الانفعال على نحو لا مثيل له على الإطلاق ، ولمح وراء الأذن ، وتحت
خصلة شعر رمادية ، أحد الأسلاك المستخدمة التدعيم قبة الصدر

العالية وقد انفرز قليلا في البشرة البيضاء عند القفال فأحدث فيها شبه غمازة . وانتابه على حين غرة شعور مشوش اختلط فيه الاعجاب بالتقزز . فحمل كتابه وأوراقه على عجل وتبع مدام غروجورج إلى غرفة الانتظار .

وحينما أصبح بعد برهة في الحديقة ، تذكر أنه نسي ، في غمرة اضطرابه ، أن يقول لها وهو خارج : إلى اللقاء .



غرفته ذات السقف الوطيء والنافذة الضيقة ، ومطعم مدام لوند ، والمقهى الصغير المقفر ، ودارة آل غروجورج ، تشكل مجتمعة الأركان الأربعة الرئيسة التي تتركز عليها حياته الجديدة . هناك الشوارع أيضا والدروب . الشوارع التي يلاحق فيها تلك المرأة بوجل . والدروب الليلية التي يسلكها حين يكلمها أو يرفع توسلاته إليها . وتتيح له تلك الأركان الانتقال من إحدى زوايا سجنه الى أخرى .

وهناك النهران اللذان يحيطان احاطة واحدة بمدينة لورج وشانتيليا الصغيرتين المتجاورتين . وهما يحملان اثنين من تلك الاسماء التي تجيد العبقرية الشعبية العثور عليها أحيانا . فالاول ينساب بوهن عبر اعواد القصب ممتلكنا تحت اسوار حصون لورج القديمة . وعلى المرء ان ينظر إلى مياه « السوميانت » (١) بتمعن لتبين له حركتها . اما الثاني المنحدر من عل فتندفع مياهه جذلى وفوارة عبر شانتيليا ، فيدعى « البريست » (٢) ويطلق اسمه على جادة قصيرة تعلوه بمقدار خمسة أمتار أو ستة . والنزهة بعد ظهر يوم الاحد في جادة البريست في شانتيليا ذات أهمية كبرى . ولابد ان يكون الطقس سيئا جدا ليرضى السكان بالتخلي عنها . بل ويأتي سكان لورج انفسهم للاختلاط أحيانا بتلك المجموعات في سيرها الوئيد ، الملائم لتبادل الاحاديث . فتفلسي قلوبهم بالفيرة وهم ينحنون من فوق الحاجز متصنعين عدم الاكتراث . لكن تظل هذه الناحية من المدينة غير مطروقة كثيراً في باقي أيام الاسبوع .

ذلك ان كل نشاط شائتيلما يتمركز حول ساحة السوق . وهذا ما يجعل الجلسة ممتعة ، بعد ظهر يوم جميل من أيام تشرين الاول مثلا ، على الا تكون الريح شديدة جدا ، تحت زيزفونات طريق النزهة ، فينساقي المرء مع أحلامه على ايقاع سقسقة مياه ذلك النهر في سيره الحثيث مقبلا وهاربا .

تهاوى في ذلك النهار على مقعد غير بعيد عن الحاجز . وهبت نسمة خفيفة توشوش بين الاغصان فوق رأسه وأحس بأشعة شمس الخريف الخافتة تلامس يديه . وانطلقت في السماء الشاحبة صيحات طيور شبيهة بندايات الوداع . وأتاح صفاء الجو للنظر بأن يمتد بعيداً من غير جهد فيقع على طريق وراء منازل الضفة الثانية ، تحدها حقول سوداء وبساتين عارية . وتظهر من بعد سطوح لورج الرمادية والزرقاء مجمعة حسب امتداد شوارع الاحياء ، المحيطة بالبرج السهمي المهدم جزئيا لكنيسة سان جود . ولا يشاهد السوميات من هناك فهو يتخفى وراء الاسوار ، لكن صفا من اشجار الصفصاف يدل على خط جريانه المتواني . ثم تظهر في البعيد ، خلف حقول اخرى ومروج طويلة رطبة ، بعض التلال الوطنية وهي تبسم وسط الضياء للشمس تلامس جنباهها البيضاء كأنها الصخور .

تأمل قليلا ذلك المنظر السعيد الهاديء فوجده غير متناغم مع ما يعتمل في صدره من كآبة وقلق . لقد أمسى أكبر سنا من ان يمني نفسه بآمال كاذبة ليخفف من كربه . واحس في داخله ايضا بأنه متعب جدا . فعقب سنين وسنين من المغامرات والخيبات وما يليها من قرف يأتي على النفس حين من الارهاق تعجز فيه عن مطاوعة الجسد وما كبتة في هوانة . فتلك الفتاة كتبت اليه وضربت له موعدا في ذلك المكان ، دون شك . وهاهو ذا يجيء ، وما ذلك الا جبن منه وتخاذه وليوفر على نفسه الاسف على فرصة سنحت وتركها تفوت . ذلك انه يعرف حق المعرفة أنها غير راغبة فيه . فكان يزدرى نفسه وهو جالس هناك

فوق المقعد الذي عينته . الا انه كان عاجزا تماما عن الانصراف في الوقت الحاضر . وهذا ايضا ما يعرفه حق المعرفة .

وبسط من جديد الورقة الصغيرة التي كانت في كفه وقراها .

وفيها تسأله . ألم تبد لديك رغبة في أن تراني ؟ بم أسأت اليك ؟ سأحاول طريقي غدا ، حين أحمل الفسيل الى دارة « خلوتي » ، لأمز من الجادة . كن على المقعد الاول في الساعة الثانية . انجيل .

يا لها من وقحة او يا لها من طريقة في إصدار الاوامر . احضر !... وها هو ذا قد حضر . ورفع الورقة الصغيرة الى فمه وأهوى بشفتيه عليها . وفكر بغضب : « سأمسك بذراعيها على أقل تقدير . » سيمسك بذراعيها المستديرتين الصلبتين ، ذراعيها الفالقيتي البياض اللتين ستتيحان له ، بل اللتين ستلزمانه بتخييل جسدها . وصعدت الى وجهه دفقة من الحرارة . وانتابه ما يشبه الدوار فأغمض عينيه . واختلطت جلبة الماء المتدفق بالدوي الذي ملأ رأسه . فبدأ النهر كأنه يدندن دائما ، هكذا مدى الحياة ، مدى الحياة .

لم يرها منذ ثلاثة ايام ، أي مذ أن تحدث اليها مساء على الطريق . ولكن كيف تصرف ؟ إنه لا يدري . وأنى للمرء أن يعرف كيف يمضي الوقت إذا كان يعاني هذه المعاناة ؟

ظهرت بعد ربع ساعة من ذلك ، وذراعيها مثقلة بسلة كبيرة تحملها دون عناء . من الطبيعي أن يكون للجمال مظهر انتصار . وتجلت رزانة ملكية في كل حركة من حركاتها . لدى اقترابها ، لأد شيء ما داخل قلب الرجل بالصنمت . وحينما رأى تلك المرأة تتوجه صوبه ، لم يعد يعثر على الكلمات التي كان يريد أن يقولها لها . فهذا الوجه الكامل ، والجسد المتنقل بكل نبل : جعل العالم يتلاشى من حولهما . أخذ ينظر إليها بنهم . فهي ترتدي صدارا أبيض يبرز منه عنقها وذراعاها . وتفطى تنورتها

مريلة بيضاء . وقد اسهم الاتقان الرائع للثنيات مع الظل في جعل القماش يرسم خطوط الصدر والأطراف . وعلى حين غرة دخل الفرح الى قلب غريه بصخب وحماسة يفوقان مثيليهما لدى النهر في اندفاعه ليرتمي بين أحضان المحيط . ونسي كل شيء ، نسي آلامه وأحقاد ، ورآها هي المرة الأولى ببيضاء موشحة بالنور ، فارتعد حين فكر بأنه أوشك أن يتخلف عن الموعد .

كانت تبتسم ، قالت مقبلة عليه :

— لا تبق ساكنا هكذا . ستجذب الأنظار إلينا . هيا نمشي بمحاذاة النهر .

وسارا معا صوب الدرج الحجري الضيق المنحدر نحو البريست ، وحين صارا فوق الرصيف نظرت الى ما حولهما لتتيقن من أنهما وحدهما . ونظر اليها بصمت .

قالت وهي تغالب ضحكتها: يا غرابة أطوارك ! حسبت أنك ستسر لرؤيتي .

طفى صخب المياه تقريبا على ما قالته بصوت خافت . فسألته بصوت أعلى : أليس لديك ما تقوله لي ؟

بدت وهي تقف قبالة غريه ، أكثر فتوة ونضارة ، مما واثته الجراة على تخيلها ، في تأملات عزلته الدتسة . رفعت ردها مرة أو مرتين إلى جبينها لتزيح خصلة من شعرها الكستنائي ، أنزلتها الريح باصرار . فاستولت عليه الرغبة في أن يضحك ويمسك بيدها ، لكن طبيعته المرتابة استبعدت تلك الحركة على الفور . هلا تذكر قلة اكرات تلك الفتاة وقسوتها ؟ العله لم تحضر الى هناك الا لتهاز بهيئته المكفهرة وعباراته الغرامية .

— لم أتيت ؟

ولم تجب ، بل تأملت هنيهة ذلك الوجه الذي جعلته الريبة وشدة التفكير يكتسي قسوة . وأرغم انعكاس النور غيابه على أن يطرق رأسه لكن نظره لم يتحول عن الفتاة . وصدمت لما طرأ على قسماته من تبدل وللمرارة التي اكتشفتها فيها . أخيرا قالت بصوت يحمل رنة عتاب :

— يا له من سؤال ! هل تريدني أن أنصرف ؟

وأوشك أن يرد عليها قائلا « نعم » . إذ تبدى له على نحو مفاجيء عدم جدوى ذلك اللقاء ، وعدم جدوى حياته كلها . ثم اجتاحه قنوط فانتزع منه تنهيدة عميقة . فرفع ذراعيه قليلا ثم أسبلهما باسترخاء . قال :

— حين أفارقك بعد قليل ، سأجد نفسي تغيسا جدا . لكن علام أتحسر ؟ لا شيء ، أنت لا تمنحيني شيئا .

فرددت بفرور ساذج :

— أنت قلت يوما إنه يكفيك أن تراني .

فأشاح بوجهه ، وقال من غير أن ينظر إليها :

— لا شك أنني صرت أكثر تطلبا .

وحينما فاه بتلك الكلمات . بدت له مثيرة للسخرية ومتهورة . وخشي أن تكون فهمت . لكنها أمسكت بيده وقالت متصنعة طيب المزاج :

— هيا ، فما أنت بعامل .

ضايقته تلك الملامسة بل كادت تثير فيه النفور . وبدأ له الأمر ،
والفتاة تمسك بيده على ذلك النحو ، فائق الاختلاف عما حسبه فائق
البساطة . ثم إن هذا الجسد لم يكن فيه نفس الحرارة التي كان يتوقعها ،
وشعر بالخيبة والنشوة في آن معا . وفكر في أن ذلك منتهى ما يمكن أن
يحصل عليه أبدا .

قال رغما عنه وبصوت أجش :

— الأفضل ألا تناوليني يدك إن كان ذلك بلا معنى .

فصاحت وهي تترك يده :

— ماذا ، أنا أضرب لك موعدا عن طيب خاطر وأنت تكلمني على
هذا النحو !

واستبد به بفتنة غضب لا يقاوم . فقال :

— مواعيد ، تسمين هذا مواعيد ، ربع ساعة من الكلام على الطريق
أو عند حافة الماء ؟ ماذا عن الآخرين ، ماذا تعطين الآخرين ؟ هل
يكتفون بمثل هذا ؟

وامتقع لونها .

وهمست : قلت الآخرين ؟ من تقصد بالآخرين ؟

لم يسمع لكنه رأى شفتيها تتحركان . فاحمر خجلا لما الحقه بتلك
المرأة من إهانة ، وحاول الظهور بمظهر ينم على ثقة بالنفس وهو يضع
يديه في جيبي سترته . وشعر بأنه قبيح جداً وسط النور الساطع على
وجهه فرغب في أن يهرب ويصعد الدرج الحجري ، إلا أن شيئا ما أمسك
به وأبقاه .

وغمغم ... « الآخرون » ... ولم يعد يدري ماذا يقول ...
« أغنياء أكثر مني » ...

كانت أصابعه تدعك داخل إحدى جيوبه ورقة نقدية وضعها قبل قليل ، استجابة لفكرة ثابته بأن تقديم شيء من المال إلى أنجيل خير من إرهاقها بتوسلاته . أما الآن فقد بدأ يشعر بدافع يدفعه إلى تنفيذ ذلك ، لا رغبة في شراء رضا الفتاة ، بل تلبية لميل دنيء إلى إهانة ذلك الكائن بعد أن آيس من نيل أية حظوة لديه . وازداد جمالها تألقاً وهي واقفة عند الضفة ، كأنما ذلك رغبة في ازدرائه ، بينما تلاطم المياه يطغى على الصمت . ونظر نظرة حقد إلى الوجه الذي جهدت ذاكرته طويلاً في استرجاع صورته . حتى إن انعكاس الجمال الكامن في الذكرى ، حتى الانعكاس ذلك ، تمنع عليه وهرب منه .

وردت من قبل ان يتمكن من سحب يده من جيبيه . فقالت وعناها
تبرقان غضباً :

— مادمت تحمل افكاراً من هذا النوع فلم يبق أمامي إلا أن أمضي
في سبيلي .

فسألها وقد بدرت عنه حركة تجاهها : إلى أين تذهبين ؟

لكنها لم تجب . بل أعادت تثبيت السلة على ذراعها وأدارت ظهرها
لغيريه وابتعدت .

ولم يقم بشيء لاستبقائها ، فرآها تسير رصيف النهر تحت جدار
الجادة إلى أن بلغت درجاً يؤدي إلى الجسر الواقع على بعد مئتي متر
من هناك . وبدأ له أن كل خطوة تزيد المسافة بينهما يواكبها إحساس
متزايد بالراحة في قلبه . وغمره هدوء يكاد يشبه الفرح . فتوجه ليجلس
فوق إحدى الدرجات التي نزلها بصحبته .

قال بصوت عالٍ هكذا الحال أفضل .

تلفظ بتلك الكلمات ومد يديه الاثنتين الى صدره وكأنه يريد انتزاع صدريته وقيصه . فهو يعرف دلائل اقتراب الألم مثلما يميز البحار نذير العاصفة في كبد السماء . فهناك ضغط مباغت يجعله ينثني نصفين وضيق في الصدر يحول دون التقاط أنفاسه بحرية . فيدرك من جانبه مامعنى تلك الظواهر . كيف أمكنه الاعتقاد برهة بأنه سيخلص نفسه من آلامه ؟ وقام فجأة فركض الى المكان الذي وقف فيه حين غادرته أنجيل . وتابع بنظره النهر حتى الجسر . لم يبق لها من اثر لقد توفر لها الوقت لعبور البريست والتواري عن الانظار بينما كان جالساً فوق الدرجات مستمتعا بغيابها عن ناظره . أهو مجنون ؟ أية فائدة ترتجى الآن إذا ما مزق صدره أو مضى ليمشي على آثار فعلى تلك المرأة وهو يشن ويردد اسمها ؟ قد لا يوجد في العالم كله رجل واحد قادر في مثل هذه الظروف على التصرف برباطة جأش وعقل سليم . وها هو ذا يضيف الى عشرات سنه مهازل الشباب . فيتصدى بدماع ولدووجه تعلوه التجاميد لغزو قلب فتاة تتفجر نضارة وجمالاً . ورغم دموع الحزن والحب الجنوني التي سالت على خديه ، جعلته خيلاء تلك المغامرة يفرق في الضحك .

* * *

- ٧ -

— مريض . أجل . لكن على رسلك ، يا عزيزي ، هيا ، لن نقول لي إن ذلك يضايقك . لا داعي للكلفة معي . ادري أن زوجتي حادة الطباع ومدققة . من المؤكد أن حضورها يفيظك . إنها سيئة النية ، أليس كذلك ، هيا ، أنت لا تزال متجهماً ! هل تحسبني سأنقل إليها حديثنا؟

ابتسم غريه بتكلف . فتصرفات ذلك الرجل السمين الساخرة ضايقته قليلاً ، لكنه شعر بارتياح كبير حين علم أن والدته الصغير أندريه لن تحضر الدرس في ذلك النهار ! كان ينتصب واقفاً ، وكتابه بيده ، أمام السيد غروج الذي جلس لتوه على الكنبه . وإذا كان صاحب دائرة « خلوتي » قد بلغ من عمره الستين ، ففي ملامحه ذلك المظهر من البساطة الذي يواكب ذلك العمر حينما تكون الحالة الصحية لم تتنكب عن طريقها المألوف . فالشعر الأبيض يغطي رأسه فوق أذنيه وقذاله بعد أن تراجع تماماً عن جبين متورد يكاد يخلو من التجاعيد ، حتى قمة الرأس . أما قسماته فتثقيلة ، له فم سميك واسع وفك عريض . أما أنفه الكبير الأتني فيسبغ على شكله الجانبي شيئاً من الحزم والعنف يتعارض والنظرة المرححة التي تشع من عينيه العسليتين . وهو يرتدي بزة رمادية اللون مثل الصيادين . لكن ربطة عنق حمضية^(١) تأتي لتسبغ على مظهره عناية أكبر ، وترسم خطأ أسود عرضانيا تحت ذقن سمينة مزدوجة .

(١) حمضي : قماش مزدان بدوائر صغيرة مختلفة اللون عن الارضية .

قال : هيا اجلس إذا ، لا بد أن يتوفر لديك متسع قليل من الوقت يا عزيزي ! وإن يكون أندريه مستاء إذا ما منحته فرصة خمس دقائق .

التفت أندريه الجالس الى الطاولة نحو أبيه بوجه طفولي مكر وضحك وهو يخفي فمه بيده . وبعد أن ألقى على أستاذه نظرة واضحة المفزى انزلق عن كرسيه وتوجه ليقف عند النافذة . كان كل شيء في ذلك الصغير بجسمه الضعيف الواهن ، يشي بنشأته كائن لزوجين متقدمين جداً في السن : كتفان متداخلتان ، معصمان هشان ، اتران شخص كبير ، حرص شديد على عدم احداث أية ضجة .

أوما المسيو غروجورج بدقته ناحية ابنه وقال بصوت خفيض :

— يا له من صبي مسكين ! لا يلزمه إلا الهواء الطلق والتمارين الرياضية العنيفة ، لكن أمه غير مستعدة لتفهم ذلك . إيه ! يا لها من أم !... هيا ، تعال اجلس ، يا صاحبي .

وضع غريه كتابه من يده وجلس على كرسي قبالة المسيو غروجورج .

فأضاف هذا وهو يميل صوبه بجانب رأسه :

— ستلقاني شديد الفضول ، لكن قل لي كم مضى على وجودك هنا ؟ قيل لي إنك كنت مقيماً في باريس قبل قدومك الى شانتيليا . يا الهي ، يغادرون باريس الى الأرياف ! إنها متاعب مالية تلك التي أرغمتك على الانتقال ؟

كان يلقي ذلك السؤال وعليه هيئة الثقة التي يسبقها المال على الفني ويمنحه الحق في استجواب الفقير .

— متاعب مالية . أجل ، يا سيدي .

وأنت عازم على أن تؤمن لنفسك مركزاً لأبأس به كمعلم في المنطقة . ولم لا ، على كل حال ؟ إكن قل لي ، هل أنت متزوج ؟

— متزوج ، أجل يا سيدي .

— وزوجتك تمد لك يد العون ، على ما أرى . هذا حسن جداً ،
ومشرف . فماذا تعمل ؟

— إنها متعاقدة مع مخزن للألبسة الداخلية في باريس . فتشتغل
هنا وتتوجه مرة في الأسبوع الى باريس لتسليم الطلبية .

— وترافقها أنت ؟

— أنا يا سيدي ؟ على الإطلاق .

— أنت لست غيوراً ، يا عزيزي غريه . لا تنشده ، فما أقوله لك
نوع من المزاح . أولاً أعرف أنا ما هو الزواج ؟

وهزته ضحكة . ثم انتظر هنيهة ، كأنه يريد أن يفسح المجال أمام
غريه ليعلق بكلمة . وحينما رأى أن الاستاذ ليس لديه ما يقول ،
استأنف كلامه بلهجة سريعة قليلاً :

— طيب ، لا بأس . لكن قل لي ، لابد أنك تشعر بالنسأ هنا بعد أن
عشت في باريس ؟ فأجاب غريه بعد شيء من التردد : أجل ، ينتابني
الملل أحياناً .

مدّ المسيو غروجورج ساقيه ولفّ واحدة على أخرى .

— هل ينقصك شيء ؟

— أنا ، يا سيدي ؟ لكن ... كلا ، لا أستطيع أن أقول ...

فقال العجوز من بين أسنانه : قسماً ، يا عزيزي ، لو كنت في
مثل سنك ...

وحرّك قدميه ، وعيناه لا تتحولان عن عيني الأستاذ . وسادت
عدة ثوان من الصمت لم يجرؤ غيره على تعكيرها . وأخيراً قال المسيو
غروج كأنه يلخص فكرته :

— غريب ، حقاً . لا أقصد تقديم النصائح لك ، لكن ما يبحث على
التفكير مع ذلك : أنك تشعر بالملل هنا . أما أنا ، والحمد لله ، فقد
اجدت الإفادة من أعوام شبابي . وأؤكد لك أنني لم أكن أعرف السأم
وأنا في مثل سنك . لكن دعنا من ذلك على كل حال .

ونفض فتوجه إلى آخر الصالة .

— هل تفضل بالحضور إلى هنا ؟ ما رأيك بهذه اللوحة الصغيرة ؟
وحين أصبح غيره بجانبه ، أمسك به من ذراعه .

— قف هنا ، متجنباً قليلاً . والآن ، هل تعطيني رأيك بصراحة ؟
إعلم أنني دفعت قرابة سبعمائة ثمناً لها قبل أسبوع ، في باريس . إنها
شيء صغير . . . أرسلوها إلي صباح هذا اليوم .

— سبعمائة فرنك !

— يا صاحبي ، إياك أن تنبهر بذلك الزخم . أعطني رأيك بهذا
التلوين . فليست الأهمية في الكلفة على كل حال . لأن الأشياء الجميلة
لا تقدر بقيمة . ولا تنس أخيراً أنها بريشة شاكورناك ! . . .

تمثل اللوحة ثلاثة أساقفة تجمعوا حول أسكلمة^(١) عليها غطاء مخرم
ثمين ، وهم في حلل من الأطلس القرمزي ، يوشكون أن ينتهوا من عشاء
تبدو فضلته في أطباق من ذهب . وبينما تتبرد زجاجة من الشمبانيا
داخل سطل فضي موضوع فوق السجادة ، نرى واحداً من أولئك

(١) أسكلمة : منضدة صغيرة بقائمة واحدة .

السادة ، وهو أكثرهم سمعة ، يرفع كأسه نحو زميله . فينتهي أحدهما الرد على كلام التكريم الموجه اليه من غير شك ، لأنه يتسم لحامل الكأس وهو يسكب الشراب في كأسه . وتبدو حركته تفاعلاً بنظر الاسقف الثالث ، الذي يخشى أن يسهو زميله عن نفسه فيلمس ذراعه . ليلفت انتباهه ، وقد بدت على وجهه أمارات الخوف ، كي يحذر قبل أن يفيض الكأس . أما التفصيل الأخير الذي يتم ذلك المشهد الملىء بالبساطة والحدقة فيتمثل في قطة بيضاء ، تندرج بفتنة عند اقدام الاساقفة وهي تعبت بصدفة محارة . ذلك هو موضوع اللوحة التي اقترح المسيو غروج على الاستاذ أن يتأملها . فقطب هذا ما بين حاجبيه وأجال نظره في العمل الفني من أعلى الى أسفل ثم قال : إنها جميلة جداً .

وردد المسيو غروج :

— جميلة ! هذا كل ما لديك لتقوله ؟ استحلفك ، يا عزيزي ، أن تنظر الى الأشياء نظرة فنية بعض الشيء . الا توحى إليك شيء هذه الألوان الحارة المتأججة والمتناغمة أيضاً ؟ الا ترى مدى الانسجام بين قرمزي الحل وبياض الفطاء ، المتناغم بدوره ولون السجادة الاحمر الفامق ؟ الا ترى الى القطة ، ذلك الحيوان الفائن ، كيف ترتمي عند اسفل اللوحة كأنها التوقيع ؟ وهلا تفحصت ، بحق الله ، ذلك التخريم ، حتى لتتحراه باللمس . انظر ، اليك هذا وهذا ...

وكانت إصبعه القصيرة المدببة تتابع بشغف نجميات الخيوط التي رسمها الفنان بأمانة لا تضاهى . وانحنى غريبه باهتمام مفاجيء . أفي العالم حقاً أناس يمكن أن يستمتعوا برسم أغلبية موائد مخرمة ورسم كرادلة على مائدة شراب ، بينما لا يعني له ذلك شيئاً كثيراً ؟ كان يبدو له أن الرغبة الجامحة التي لا تفارقه ، لابد أن تكون عامة وشاملة تشغل كافة الناس ليلاً ونهاراً . وكل ما لا يتعلق بأنجيل يصيبه بالدهشة . ولو قيل له إن المدينة بأسرها واقعة في هوى تلك المرأة لما وجد الأمر عسيراً على الفهم . لكن العسير على الفهم أن لا يهتم بها ثلاثة أشخاص

فقط . ولم يلحظ وهو يتفكر في هذه الأشياء ، ان غروجورج ينظر اليه منذ فترة بعين مدققة ، وهو يهم بالكلام .

أخيراً قال المعجوز بصوت عذب ، نفز منه الاستاذ رغم ذلك :

— يا عزيزي ، لن تنكر عليّ أن شيئاً ما يشغل بالك في هذه اللحظة . فانت امرؤ مكتئب ، وهذا بادر للعيان ...

ثم وضع يده فوق ذراع الاستاذ وأضاف :

— أنت لا تهتم بلوحة شاكورناك أكثر من اهتمام شاكورناك بك . لكن لا عليك ، فهذا لا يثير نقمتي . فحين قلت لي قبل قليل إنك تشعر بالسأم في شانتيليا راودتني افكار ناقشتها مع نفسي . قلت : تبأ له ! حين ينتاب السأم واحداً في مثل سنه ، فما ذلك إلا لسبب واحد فقط ...

قال تلك الكلمات بلهجة جعلت غريه يدرك مغزاها . واستأنف المعجوز يقول باصرار :

— لسبب واحد فقط . بلى ، يا عزيزي ، لا تستنكر ذلك . فالحياة بأكملها قائمة عليه .

وهذا هو الشغل الشاغل للناس اجمعين .

وهنا أكتسى صوته لهجة مسرحية :

— ساير الطبيعة يا عزيزي ، الطبيعة الخيرة بمتطلباتها . اتحسب اني لا أعرفك قليلا من قبل ؟ سأقول لك ، يا صاحبي ، قولا قد يتسبب لك بصدمة . لكن لا يهم ، ما دام ذلك لصالحك . كنت قبل أيام أتجول قريبا من المحطة ، حين وقعت عيني على امرأة طويلة ، ترتدي السواد ...

لكن لن اصفها لك : الشخص الذي كان بصحبتى اخبرني ان تلك هي زوجتك . طيب ، يا عزيزي ، يا صديقي الغالي ، اصغ الي جيدا ، لغت الثانية والسنتين ولدي خبرة ما في الحياة . واقول لك دونما مواربة ، انك لست مع المرأة التي تصلح لك !

ورد غريه مذهولا :

- سيدي !

فقال غروجورج بلهجة أمرة :

- صه ! دعني اتمم كلامي . حين اقول انها ليست المرأة التي تصلح لك ، انما اقصد المرأة التي خصتك الطبيعة بها فقط . لا يساورني شك في أن مدام غريه امرأة صالحة ، وشغيلة ، وحريصة على راحتك وذلك ما يتبينه المرء . لكن ، هل هذا ما تبغيه منها ؟ وحين تعود الى بيتك مساء بعد نهار من العمل والضنى ، هل تجد مدام غريه جميلة ؟ هل تجدها مغرية ؟ ذلك هام جدا يا عزيزي . فكر في السنين المتوالية . ولا تعد لنفسك شيوخة ملأى بالحسرات .

فقال غريه بجهد واضح : ولكن لماذا تتحدث الي على هذا النحو

يا سيدي ؟

- لماذا ؟ تسألني لماذا يشور سخطي وأنا اراك تبدد شبانك ، يا عزيزي ! أنت تعيش ، بل في منتهى التعاسة ، وهذه حقيقة تفقا الاعين بجلائها . وتظن اني لا أفهمك ، وتحسبني اكبر سنا من ان اقوى على فهمك ؟ يا صديقي ، أتريدني ان ابوح لك بسر ؟ أنت رأيت زوجتي . انقص من عمرها عشرين عاما ، وتخيل المجيا الاكثر رقة والاكثر جمالا . . . بعد مرور شهر واحد ، بدأت تشير نفوري حتى الرعب . لقد كانت مع ذلك ، جميلة . لكن الوضع هكذا ، وما في اليد من حيلة . فالطبيعة لم تخصصها لي ولقد فهمت ذلك بعد فوات الاوان . ايه ! لكن ثق من اني

استدركت الامر من بعد ، حتى اني لم أعد اشعر بالاسف . وكن على ثقة من ذلك . وأخيراً ، تباً لذلك ! ينبغي للمرء ان يكون صادقاً مع نفسه ، وان يعرف كيف يتثبت من حقيقة الاشياء ، اي بكلمة واحدة ، ان يعرف نفسه ، فكل السر هناك ، ان يعرف نفسه . فهل أنا على شيء من الحق ؟ قل لي : ترى هل وضعت أصبعي على مكان الداء . استحلفك ، يا عزيزي ان تقول شيئاً . هيا اجب . . .

وهمس غريه مطرقاً : طيب ، نعم . أنت لم تخطيء .

وانتابه شعور بالراحة العميقة والغضب في آن معاً ، لكنه لم يجرؤ على ان يرفع نظره نحو المسيو غروجورج . فانتظر العجوز بضع ثوان ، ثم استأنف بصوت دافئ ، جعلته نشوة النصر يرتعش قليلاً :

— يا صديقي الشقي ! ساورتني الشكوك منذ وقت طويل . فقد قلت في نفسي يوم رأيتك أول مرة : « ذاك رجل جسور يعاني من الضيق » رأيت فيك رجلاً يطلب النجدة ، الا أنك لم تطلب شيئاً على وجه الدقة . هل فهمت ؟ يا عزيزي ، يا عزيزي !

وغمرته حالة من الحبور جعلته يرفع يديه بحركة مفاجئة نحو السماء فالمتعة التي أحس بها لانتزاعه سرّاً واعترافاً ، ملأت نفسه اضطراباً لحظة حتى لم يعثر من فوره على الكلمات للتعبير عن فكرته .

وقال وهو يخفض صوته بلهجة من يبلغ الآخر سرّاً :

— الحياة مفتوحة أمامك . ايه ! لو كنت في سنك ! تباً لك ! أنت لن تقول لي أنك لم تجد في مدينة شانتيليا كلها امرأة تثير اهتمامك . وقد تحسب أن الناس في الارياف لا يعرفون المغامرات .

وتغضن وجهه . وحدث في عيني الاستاذ .

- وحينما يتعلق الامر بي ، يا عزيزي ، انا الذي اكلمك . فهل يدمر في خلدك ، انني بسبب كبر سني ، اعيش بلا حياة عاطفية ؟ سأضحك ساخرا من افكارك فالقصة بدأت هنا بالذات ، في دارة « خلوتي » واكاد اقول تحت سمع زوجتي وبصرها . أما الفتاة صاحبة العلاقة فتبلغ الثامنة عشرة . ثمانية عشر عاما ! لو رايت لون بشرتها او شعرها ! ويا لدمائة تلك الفتاة ! ولا تنس ان قطعة نقود بين وقت وآخر تسهل حسن سير العلاقات ، لكننا قلنا قبل قليل ان الاشياء الجميلة لا تقدر بثمن ، اليس كذلك ؟ ومنذ اكثر من شهر وانا اراها مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع ... ولا يذهب بك الظن ، يا عزيزي ، الى انها من بنات الهوى . كلا . وانا اقدم لها الهدايا والهبات كاني مع انسان يعاني من ضائقة وهي تقابل ذلك بالعرفان . وقد اصطحبها احيانا للعشاء . وهي لا تطلب مني الا التكرم . واما هذا الموضوع ...

- التكرم ...

- اجل يا عزيزي . ولكن ماذا دهالك ! الا تشعر انك على ما يرام ؟

- بلى .

- هيا ، اصغ الى هذه الرسالة الصغيرة التي بعثت بها الي هذا الصباح .

واخرج الرسالة من جيبه فبسطها بعناية وقربها الى وجهه كانه يهتم بتقبيلها .

ثم بدا يقرأ : « ان كانت لديك رغبة في رؤيتي غدا مساء » . وقطع القراءة ليوضح قائلا : غدا ، اي اليوم ... « في الساعة التاسعة والنصف ... في الساعة التاسعة والنصف بالقرب من ... » . كفى ، فلن انجح في متابعتها بدون نظارتي .

ووضع الورقة على طاولة وبدأ يفتش في جيوب سترته . وتأمل
غيره هنيهة ذلك الوجه العجوز المتمش بالرغبة . وبدأ له أن وهنا
أخذ يسري في حواسه واحدة بعد أخرى . فالدوي الذي أخذ يملأ أذنيه
منذ بضع ثوان منه من سماع كل ما قاله الميسو غروج . ولم يصغ
إلا إلى مطلع الرسالة ، لكن تلك الكلمات القليلة أصابته بصدمة ، وبدأ
الآن ما يشبه الصدى الغامض يكررها دونما كلل ، فيتردد رجوعها في
مكان ما داخل دماغه . « إن كانت لديك رغبة في رؤيتي غدا مساء في
الساعة التاسعة والنصف » . . وأحسن على حين غرة أن الحجر قد
أظلمت على نحو ما يحدث حين تمر غيمة فتحجب الشمس . ولما ينته
الميسو غروج من البحث عن نظارته . وتفضت من نفاذ الصبر
زاويتا فمه ، أما شفتاه النهمتان فقد رقتا وهما تلتصقان . ذلك كل
ما استطاع غيريه أن يراه في تلك الظلمة التي خيمت من حوله . إنه يرى
فما تزم شفتاه وتنتفخان تارة فأخرى ، فمأ نهماً شرساً يهيج جوع
لن تشبعه الحياة أبداً . وبغثة وقع نظره على الرسالة . فارتد إليه
صفاء ذهنه على نحو مفاجئ ، وتعرف في تلك الأسطر المكتوبة بالقلم ،
على نحو متسرع ومتعثر ، على خط أنجيل .

* * *

- ٨ -

جلست على عاداتها قرب النافذة لتلقي بين الفينة والأخرى نظرة على الساحة الصغيرة المثلثية ، والريح تكنسها . فدارها آخر دار في المدينة . وينحدر العشب المقصوص من وراء صف الأشجار حتى السوميانت . وتقع عينها على ذلك المنظر يومياً . فالحجارة الدائرية التي رصفت بها أرض الساحة ، وأشجار الزيزفون الاثنتا عشرة التي غرست لتشكّل زاوية . ومن ثم مياه النهر الساكنة تقريبا . وأخيراً ذلك الصمت العميق الذي يهيمن طوال فترة العصر وامتدادها ، تضفي مجتمعة على ذلك المشهد نفس الطابع الحالم الذي يظهر على الأمكنة التي لا يتوقف المسافر فيها أبداً . وتتميز الطبيعة هناك بشيء يصعب تحديده . فالأشجار ليست مثل باقي الأشجار ، والسماء تبدو كأنها تخبئ وراء الفيوم فكرة خفية يجري تناقل سرها ما بين حجارة المنازل ومياه النهر . فيسبغ عليها طابعا من الترابط المشؤوم .

قالت بنية جالسة قبالة مدام لوند ، فوق مقعد خشبي صغير وضعته قرب النافذة :

- قلتما يرى المرء متنزّهين في مثل هذا الوقت .

إنها تبدو في حدود الثانية عشرة . كانت بمريلتها الجلدية ، تلصق جبينها على زجاج النافذة بعناد ، وتزيح بيدها الصغيرة ستارة التول المصفرة بتأثير الغبار والقدم . تأملت المعلمة برهة الصورة الجانبية لذلك الوجه المتيقظ ، وتلك العين الساخرة لتلميذة لا تدع شيئا يفلت منها .

فرددت بتمهل :

— قلت المتزهين ، وهل يروق لك منظر المتزهين ، يا ابنتي ؟

أجابت البنية دون أن ترفع رأسها : أجل ، يروق لي .

فسألته مدام لوند قائلة : يروق لك ، دون شك ، أن تري أناساً
جديداً ؟

— واتسلى أيضاً وأنا أميز الذين أعرفهم من قبل .

فقالت مدام لوند : يا لك من داهية ، واجابتك جاهزة على الدوام .

وتنهدت ، ونظرت بنفسها من النافذة ، كأنها قد أرادت أن تظمن
على بقاء الاشجار في مواقعها ، ثم أخذت من حجرها جوربا عتقا ودست
يدها الى أسفله . ثم همست بيقين :

— ثقب . ما الذي أفعله ، بحق الشيطان ، حتى تهترىء جواربي
بسرعة مع انني قليلة الحركة ؟

ثم أخذت إبرة وبيضة خشبية بنفسجية اللون ، وشرعت ترفو مكان
الثقب الذي اكتشفته . ومرت دقائق طويلة سادها صمت تام . والبنت
توجه نظرها من جهة إلى أخرى وهي مستغرقة تماماً في دورها كراصدة .
كانت تشاهد ضفيراها القصيرتان وهما تهتران كأنهما تستجيبان لحركة
يد خفية تشدهما وتجعل الرأس يستدير يمنا ويسرة . أما مدام لوند
العاكفة على عملها ، فبدت غارقة في تأملات تزداد عمقا ، رغم أن حركة
أصابعها لم تتأثر بذلك فظلت مواظبة على غرس الإبرة وسحبها بكل
أناة وانتظام .

كانت الحجرة التي يجري فيها ذلك المشهد طويلة وسقفها وطيء .
ويحتل سرير مزدوج من الاكاجو ركننا كاملا منها . فيقع بين باب أصفر
اللون وخزانة ضخمة من خشب الجوز .

الجدران مغطاة بورق فقد رونقه ، إلا في أمكنة قليلة الرطوبة ،
 فبدت مساحات منه بلون غير مستقر ما بين الأحمر والبنفسجي ، مقلّمة
 بلون أكدر . وبسطت عدة سجاجيد صغيرة دائرية أو مستطيلة لتغطي
 بشكل جزئي البلاط الذي يصدر عنه برد جليدي . وتشتعل في الموقد
 نار فحم هزيلة ، فتلطف بمشقة شيئا من حرارة الغرفة فيما حولها ،
 قريبا من مكان جلوس مدام لوند . لذا كانت المرأة تضع رجليها فوق
 مدفأة قديمين وتدس يديها داخل قفازات سوداء بلا أصابع . وتتكدس
 عدة وسائد في مشواتها^(١) فتحيط بخصرها وتعينها على الجلوس منتصبة .
 وكانت تلبس ثوبا من الصرج الأسود ، لأنها تحتفظ بفستان التفتة
 لترتيديه وقت العشاء ، كما نشرت فوق كتفيها المرتعدين وشاحا من
 الصوف الرمادي .

وتنبهت فجأة من أحلامها لتسال، وقد لمحت ساقى الفتاة العاريتين:

— الا تحسّين بالبرد ؟

فردّت هذه بحيوية مرحة :

— كلا ، يا مدام لوند .

— ليس لك ، كما سبق أن نبّهتك ، أن تنادينى بـ مدام لوند ،
 يا صغيرتي .

ألم يمر أحد منذ برهة ؟

— لا أحد . ولكن الا تنظرين من النافذة ، أنت أيضا ؟

فتمتت المعلمة :

(١) مشواة : كرسي واسع منجد المساند والظهر .

— لم أكن هنا ، يا فتاة . ثلاث ثوان من الشرود ، ليس إلا ، ويعبر
الساحة شخص ما ، من غير أن الحظه .

— قولي لي ، من فضلك ، كيف يجب أن أناديك ؟

— ولكن ... قلت ذلك لك . ناديني : يا خالتي ، مثلاً .

— ولماذا تقولين : مثلاً ؟

وساد الصمت . وبدأت مدام لوند كأنها لم تسمع . وبغثة أمرتها
قائلة :

— ناديني : يا خالتي فحسب . هذا كل شيء .

شبكت الفتاة أصابع يديها فوق ركبتها اليسرى وشرعت تتأرجح
إلى أمام وخلف ، وهي غير راضية . إنها جميلة رغم شحوب زائد يبرز
بريق عينيها السوداوين . وضايقتها اللهجة الخشنة التي خاطبتها بها
مدام لوند قبل قليل ، أكن زعلها تبدد بسرعة ... وحينما لمحت كرة
صوف تندرج تحت المثواة ، هبت لالتقاطها وقبعتها للمعلمة ، واضعة
بمبادرتها اللطيفة حدا لخلافهما الصغير .

فقال مدام لوند ببشاشة : « آه ، شكراً » . ثم أضافت وهي
تداعب خد الفتاة بأناملها :

— يا صغيرتي ، أخبريني بماذا تجيبين أمك حين تسألك عما فعلينه
عندي ؟

— بشكل عام ، لا تسألني عن شيء .

— بشكل عام ؟ لقد سألتك إذاً في بعض الأحيان ؟ وماذا قلت لها ؟

- قلت لها إنك ترسليني لشراء بعض الحوائج ...
- صحيح . ذهبت فاشتريت لي شيئاً من البن ، أول أمس .
- ... وإني أساعدك على اصلاح بعض ملابسك الداخلية .
- حسن . أمك امرأة مدبرة ، يا صغيرتي . قولي لها إني مهمة بك . وإني عازمة على استخدامك في المطعم ، حين تصبحين أكبر قليلاً . هل هي راضية عن الأجور التي أعطيك إياها ؟
- قالت ذات يوم إني قد لا أتقاضى أكثر في مكان آخر .
- ثم إنك قد تعانين من التعب في مكان آخر . هل أنت متأكدة من أنك لا تشعرين بالبرد ، يا صغيرتي ؟ لا أريد أن يصيبك أي سوء هنا . ويتراعى لي إني لو مضيت عارية الساقين مثلك ... أنت على كل حال فتية وقوية . لكن هل أنت لابسة بشكل كاف ؟ هل تضعين شيئاً ما على صدرك ، أقصد شيئاً دافئاً ؟
- كنتي .
- كنتك . هناك فارق ما بين كنزة وكنزة ، يا فتاة ، تعالي أريني .
- ومالت بجسدها الى أمام ودست إصبعين في فتحة المريلة السوداء . وندت عن الفتاة صيحة خفيفة تشبه ضحكة . وحاولت أن تنحرف قليلاً . لكن وجه مدام لوند الجاد أقنمها بالبقاء ساكنة . وبغثة تجهم وجه المعلمة وزمت شفتيها . ثم قالت إثر ثوان من البحث الحثيث :
- ذلك ما خمنت . قميص صغير من خيط رفيع ، بسماكة الورق . إن وجوده وعدمه سيان . ولكن ما بك تتحركين هكذا ؟
- اجابت الفتاة وهي تقهقه :

— إنك تدغدغيني .

فسحبت مدام لوند يدها بحركة مباغتة ، وارتدت بجسمها الى الوراء وقد اصططفت وجنتاها بحمرة مفاجئة . وكررت بسخط :

— انا أدغدغك ، أيتها الصغيرة الوقحة . قد تزعمين أنني حالساً أدغدغك ؟

— كلا .

— شيء مفرح . اتدريين لم أدخلت يدي تحت مريلتك ؟ لأرى هل تحتاجين قطعة ملابس دافئة حقاً ، قطعة من الصوف ، أو شيئاً ذا قيمة من هذا القبيل لأقدمه لك يا ابنتي . والآن ، إن كنت غير راضية في خدمتي فبوسعك الانصراف كما تعلمين ؟ أما أنا فبمقدوري حتى هنا في لورج العثور على أفواج من البنات الصغيرات مثلك . وبكاؤك بلا طائل ، يا آنسة !

فقالت البنت عبر دموعها :

— أنا لم أقل أنني غير مسرورة في خدمتك .

— كان يبدو عليك التفكير في ذلك ثم إنني أمنعك من مناقضتي . هيا ، انصربي . رأيتك اليوم بما فيه الكفاية .

نطقت تلك الكلمات الأخيرة بقسوة ، لكن بصوت متصنع ومرتمش قليلاً .

كانت الفتاة واقفة جامدة تنظر إليها وعلى وجهها سيماء الكآبة فانتهرتها قائلة :

— ماذا تنتظرين ؟ قلت لك انصربي .

وسألتها الصغيرة : بم أسأت اليك يا خالتي ؟

فصاحت مدام لوند وعيناها يتطاير منهما الشرر : ألن تطيعي أمري،
أيتها الشيطانة العنيدة ؟

واستولى عليها غضب عنيف على نحو مفاجيء . واحمرت وجنتاها
خجلاً لما انتابها من خوف بسبب طفلة ، وكأنها تلقت صفعه . فارتفعت
بجسمها عن كنيها وركلت مدفاة الأقدام قليلاً فانزلقت فوق البلاط
محدثة صريراً حاداً . كانت مقلتها السوداءوان تتوقدان تحت حاجبيها
السميكن في وجهها المتورد . وما كادت تطا الأرض بخفها حتى خرجت
البنث من الغرفة تركض مدعورة . وعادت مدام لوند لتجلس منتصرة .

وتمتمت تقول مضطربة : تلكم هي ، بنت الأفعى ! قد تميتني
ميتة رخيصة .

مدت قدمها فسحبت المدفاة إليها وأعادتها إلى مكانها المجهود ،
كما استعادت جوربها .

وبدت أصابعها مترددة قليلاً وهي تتلمس الإبرة . وأخيراً تنهدت
مرة أو مرتين بعمق فشعرت أنها أكثر هدوءاً . وألقت نظرة على الساحة
ثم ألكتبت على عملها .

سسمع طرق على الباب .

قالت مدام لوند : هذه أنت مجدداً ، يا فرناند ؟

أجابت أنجيل وهي داخلة : هذه ليست فرناند .

ووضعت سلتها فوق الطاولة ثم استأنفت تقول :

ـ ماكنت تتوقعين رؤيتي في هذه الساعة ، يا خالتي .

فردت المعلمة وهي تضع جوربها جانبا :

— اهلا بك في اي وقت ، يا ابنتي . هل فكرت بالمسيو بلوندو ؟

فقالت انيجل وهي ترفع خصل شعرها المنسدلة على جبينها :

— غداً أوفيك بالجواب .

غداً ! لكن هاهو يلح علي منذ ثلاثة ايام يا ابنتي ! وقد صرنا في يوم الخميس . ثقي من انه سيسألني أيضا هذا المساء حول ما قررت بشأنه ، فكيف سيكون موقعي حياله ؟ تذكرني أنه ينتظر منذ زمن طويل . وأن المهلة الاخيرة حددت بهذا اليوم .

— اعرف .

قعدت تجاه مدام لوند واطرقت رأسها الكستنائي اللون . فرسمت رموش اجفانها ، وقد غضت الطرف ، قوسين طويلين فوق خدين توردا بسبب الريح ، وسبب انفعال لم تجدر احتواءه ، فاضفيا على محياها الفتى فتنة تعبير رزين وحزين . وهي لم تبد قط أكثر جمالا مما هي عليه في الضياء الخافت لعصر ذلك اليوم الخريفي . فتمايل عنقها فيه ليونة الطفولة ، وكل حركاتها تمتاز بنوع من الارتباك يولد في النفس انطبعا غريبا عن كائن انضجته الحياة باكراً جداً فظلّ يحتفظ في اعماق كيانه بما يشبه كنزاً غامضاً يجهل هو وجوده ، من غموض السنين الاولى وترددتها . لكن فمها حازم ورصين ، وتبدي في عينيها حين ترفعهما فطنة قادرة على الفهم السريع لا تعرف التردد .

وضعت يديها مضمومتين فوق ركبتيها . فاستأنفت مدام لوند تقول :

— لا يكفي المرء ان يعرف ، كما تعلمين ، بل عليه ان يرد الجواب .
لا ادري لم تضعين كل تلك المصاعب . فالمسيو بلوندو زبون ممتاز .

وحين خرج بصحبتك آخر مرة كان غاية في الكياسة حسبما قلت
لي . لكن يلزمني هنا أن أحدثك عن زبونني الجديد .

— زبونك الجديد ؟

— أجل . ماذا دهالك ؟

— لا شيء البتة ، يا خالتي .

— حضر هذا السيد إذن يوم الخميس الماضي ، كما تعرفين ، ولا بد
من أن يأتي هذا المساء . ومن الطبيعي أنني فكرت بك .

— بي أنا ؟

— بك طبعاً . يبدو في الحقيقة أنني اتفوه اليوم بأشياء خارقة .
فماذا هناك يا ترى ؟

— لا شيء البتة ، البتة ، أوكد لك .

— ذلك أنه رجل كما ينبغي تماماً وفي منتهى الاستقامة ، وعلى شيء
من التحفظ . وقد خطر ببالي أن بوسعي بدءاً من هذا المساء إمداد
ترتيب ما ليوم الأحد في الثامن من الشهر . وتحضرين أنت متعلقة
بقول كلمة عند بداية العشاء ، من أجل أن يراك ليس غير . وحين
تخرجين بصحبته ، عليك استدراجه للكلام . فهناك أشياء كثيرة
أرغب في معرفتها . منها أولاً سبب مجيئه الى هنا ؟ لقد طرحت
أسئلة عديدة ذات اليمين وذات الشمال ، لكن دون جدوى . فذلك
الشیطان اللعين لا يبوح بسرّه لأحد . ولم أكتشف أنه متزوج
إلا بجهد جهيد .

ولم تر الى الفتاة وقد شحبت لونها ، فواصلت الكلام مثل ثرثرة
أهاجها رنين الكلمات :

— لا بد أن تسلمي بأنه لأمر غريب أن يأتي امرؤ ليستقر في شانتيليا
بعد أن كان مقيماً في باريس . لكن ، لنعد في حديثنا الى المسيو
بلوندو . فلدي سؤال ألقه عليك بصدده . ما حقيقة ما قيل عن
ابنة عم له ، وهي عجوز تقيم في لوت — غارون؟ هل القصة صحيحة؟

— لا أعرف عن المسألة أكثر مما تعرفين . الواقع أنه حدثني ذات يوم
عن الأنسة بورجيرون تلك . « بورجيرون » . ذكرت مدام لوند ذلك
الاسم وكأنها رغبت في أن تتلفظ به والفتاة في آن معاً . وأضافت :
أعرف اسمها . أهي غنية ، تلك المرأة ؟

— أوكد لك أنني لا أعرف عن الأمر شيئاً .

— ينبغي أن تستعلمي ، يا حبيبتي أنجيل . أقول لك هذا لأن المسيو
بلوندو اشترى لك للتو معطفاً جديداً . أنت لم تريه بعد . فاللون
بشع لكن القماش جيد . ومن المؤكد أنه لم يتمكن بمرتبته من دفع
ثمن ذلك المعطف . فانت تعلمين أن ما يقبضه المسيو بلوندو من
وكالة فالتر لا يكاد يكفي إلا لمصروفه . ولقد قدم لك من جهة أخرى ،
عشرة فرنكات في شهر أيلول . فمن أين جاء بذلك المال ؟ لقد خطرت
قريبته في لوت — غارون ببالي . لكن السؤال هو : لم ترسل ذلك
المال إليه ؟ أهو قرض ؟ أهو هبة ؟ ومهما يكن من أمر فلا تتخليلي
أنني كنت سأعد المسيو بلوندو بأنك ستخرجين بصحبته يوم الأحد ،
لو لم يات ذلك المعطف ليقدم لنا ضماناً جديدة .

— وعدته دون استشارتي ؟

— أجل . فالمشكلة تبقى إن كان ينبغي أن استشيرك كلما سنحت
فرصة مؤاتية . قلت لي إنني متأكدة من أنه قد تسلم المال .

- لا يهمني ذلك . لن أخرج بصحبته يوم الأحد .
- ماذا ؟ أخرجين بصحبة واحد آخر ؟
- كلا ، لن أخرج مع أحد .
- لن تخرجي مع أحد ؟ هل جنت ؟ قولي ؟
- كلا ، لست مجنونة . قلت إنني لست راغبة في الخروج يوم الأحد .
- ما الذي يجعلك ترفضين السيد بلوندو ؟ إنه لطيف جداً .
- قد يكون لطيفاً جداً ، لكنه ينفرنني .
- هيا ، لا بأس ! طيب ، اذا كان السيد بلوندو ينفرك ، فضدي السيد غيره .
- السيد غير ... كلا . أكرر لك القول إنني لن أخرج مع أحد . لا مع بلوندو ولا مع سواه .
- نهضت لتتفوه بهذه الكلمات الأخيرة وخطت بضع خطى فوق أرض الغرفة وعليها مظهر تصميم منع المعلمة من الرد عليها فوراً .
- أخيراً قالت المعلمة :
- هذا فن جديد ، ما الذي دهاك ؟ لقد جئت إذن من أجل أن تقولي هذا لي ؟
- أجابت أنجيل وهي تستدير نحوها : إلى حد ما .
- فاستأنفت مدام لوند تقول وهي تضبط نفسها : ولكني اهتئكت . وإذا كان الخير المقبل على هذا المستوى ، فسوف نعيش فرحة غامرة

حقاً . لكن هل لي أن أعرف ، دونما تطفل ، ما هو مصدر الرزق الذي
تعولين عليه لتعيشي ؟ وهل الأرملة برود هي التي سوف تتولى دفع
الإيجار عنك ؟

ورددت أنجيل وهي تستند الى الطاولة : دفع الإيجار . ولكن لدي
الغرفة ...

ثم توقفت ونظرت الى مدام لوند . التي مضت تقول :

— طيب ، لا بأس ، واصلني كلامك . قولي لي الغرفة التي مدام
لوند ت ... ت ... ماذا ؟ تعيرني إياها . وماذا لو أن مدام لوند
أوعزت إلي باخلاؤها ، في هذه الليلة بالذات ...

— يا خالتي ، انت لا تنوين ...

— وما أدراك ؟

— لكنك لن تعمدي الى طردي لأنني لست راغبة في الخروج
يوم الأحد ؟

— وما الذي يحول بيني وبين ذلك ؟ هل فكرت بما تلحقين بي من ضرر
برفضك الخروج بصحبة زبائني ؟

— خالتي ، لدي شيء أقوله لك . ربما كان علي أن أبوح لك بمشاريعي
قبل الآن . أجل ، إنني أبحث عن مهنة أخرى . فماذا تقولين ؟
فمهنتي الحالية تتعبني ولا تدر علي شيئاً . فالجو في المصبغة
خائق ، بالإضافة الى ذلك الضغط الدائم على المكوى ... إنني
باختصار أبحث عن شيء آخر .

— شيء آخر ؟ ماذا ؟

— مهنة أقل قسوة وتدر عليّ أكثر . إليك مثلاً ، خطر ببالي أن أصير
وصيفة .

— وصيفة عند آل غروجورج على سبيل المثال ؟ — فقالت الفتاة
وهي توشك أن تجهش بالبكاء :

— لم تسخرين مني يا خالتي ؟ اني اتكلم جادة . وأنت تعلمين حق
العلم أن ذلك مستحيل مع المسيو غروجورج .

— لكن ذلك لا يفسر لي رغبتك في عدم الخروج يوم الاحد .

— أريد بالضبط أن أبحث عن مكان يتيح لي الاستغناء عن هؤلاء
الناس ، عن المسيو غروجورج وعن ذلك الاحمق بلوندو ...

فصاحت مدام لوند وهي تهب واقفة على حين غرة :

— ماذا تريدین ؟ ... هل جننت ؟ وتدعيني أواجه أعباء الزبائن
وحدي ...

امتقع لونها تماما واقتربت من أنجيل التي انتظرتها دون أن تتحرك
قالت :

— وتنسين أنني أنا التي ربيتك ؟

فردت الفتاة بلهجة فيها حزم أكبر :

— ربيتني على نمط الصغيرة فرناند .

— أنا أربي الصغيرة فرناند حالياً ؟

— أجل تعلمينها أن تناديك « يا خالتي » مثلما علمتني وأنا في
سنها .

— وعلام يدل ذلك ؟

— يدل على انها ستصبح مثلي ، وانك ستعدينها وتقدمينها ذات يوم لزبائنك .

— أنا أقدمك لزبائني ؟ أنا ؟ هل اصابك مس لتقولي هذا الكلام ؟
لم أعد أفهم شيئاً مما تتفوهين به ، يا ابنتي .

— هكذا اذن ! أما حين أرجع مساء وتدخلين الى غرفتي لتسأليني كم تقاضيت مالا من المسيو بلويدو وكم تقاضيت من المسيو غونسولان فقد لا تفهمين لماذا أعطيتاني مالا ؟

— ليس علي أن اراقبك . ولا يعنيني ما يجري بينك وبين هؤلاء الرجال .

— حقاً ! فكل ما يعنيك هو أن تختلسي مني معلومات عنهم كي تتباهي بها وانت تحت ، في المطعم ...

— لكن أيتخيل احد ... ان كنت أطرح عليك بعض الاسئلة احيانا فلكي اعرف من استقبل في مطعمي ليس غير . أتفهمين ؟ فانا لا أستقبل مندي أيا كان . وينبغي ان اكون على اطلاع ...

— وتستخفين تماماً بما يمكن ان يكلفني ذلك ؟ ويحتمل انك لا تعرفين ماذا يفعلونه بي ؟ ولا الى أين يصطحبونني ؟ الى أين يأخذونني ؟

امتقع لون مدام لوند . ثم قالت :

— قلت لك إنه ليس من مهمتي أن اراقبك . فأنت بالغة راشدة ...
وهذه الامور لا تعنيني .

فقالت الفتاة :

— طيب ، افضل على اي حال ان انصرف فلن ابقى في دار السوء
هذه ، من بعد .

— اخرسي . اخرسي . اُتسمعين ؟

— لا تقتربي مني والا صرخت ! اجل ، ففي هذه الليلة سوف
أصر حوائجي . أتمرفين أنك ما عدت تخفينني ؟ وسوف تطعنين في
السن يوم لا تمترين على من يتولى التجسس على زبائنك ، ايتها
العجوز البائسة .

وقامت بحركة نحو الباب ، لكن مدام لوند انتصبت امامها تحديق
فيها ويداها على وركيها ، وقالت بصوت قاس وهادى :

— لا تفلطي ، يا ابنتي ، فلدي من يحل محلك تماما ، فتاة مرغوبة
جدا وهي قبلة الانظار .

فسالت انجيل على غير ارادة منها : من هي ؟

لم تجب مدام لوند على الفور ، وظلت عينها تحديقان في عيني
الفتاة . واخيرا قالت :

— فرناند .

— فرناند . وتجريين على تقديم طفلة في الثالثة عشرة الى هؤلاء
الرجال ؟

— يا لهذا الكلام . اقدم لهم ! فهؤلاء السادة يتلطفون باصطحاب
فرناند معهم حين يخرجون الى النزهة . اني اعهد بها اليهم . هذا
كل شيء . والاهل يعرفون . فليس لدي ما أخفيه عنهم ، والبنت
مسرورة جدا .

— وانت ، كم تأخذين لقاء ذلك ؟ كم تدر عليك فرناند ؟

— كم تدر علي ؟ ومن تحسبيني يا وقحة ؟ اعلمي ان أم فرناند في منتهى السعادة لما اقوم به حيال ابنتها . ولو كانت هنا لصفعتك منذ وقت طويل من أجل ان تتعلمي احتراممي .

أحمرت الفتاة بشكل مباغت كأنها تلقت فعلا الصفعة التي اشارت اليها مدام لوند ، وأوشكت أن ترد عليها ، لكنها استدركت مكتفية بالقول :

— أنا ذاهبة ، دعيني امر .

فهتفت مدام لوند بكل ما أوتيت من عزيمة : « اذن ، كلا » . قالت ذلك وهي تشد بأصابعها على معصم أنجيل :

— لن ادعك تجلين الدمار لنفسك ! قولي ، الى أين ستذهبين ؟

حاولت أنجيل التملص .

— دعيني . اريد الانصراف .

— الانصراف الى أين ؟ اليك ، هاقد تركتك . تريدان اعداد حقيبتك ؟ حقيبتك ملك لي . اتظنين أنهم يستقبلونك في الفندق بصرة ثياب ؟ ذلك أني أمنعك من مدّ يدك الى الحقيبة ! يا بنيّتي ، أنت تخفين عني شيئا . لا تنكري .

— هذا غير صحيح !

— انك تخفين عني شيئا . كان علي ان اتبين ذلك من قبل . فحين رايتك تدخلين بنظرتك الزائفة وضحكتك العصبية ، ساورتني الظنون فورا . في حياتك شيء ما . قولي ماهو ؟

كادت الفتاة تحت تأثير من اليأس والارهاق ان تستسلم وأن تحيب لولا ان راودها بغتة شعور غامض بأنها في خطر ، فأمسكت سلتها وتراجعت نحو الباب . فالفزع رد اليها طاقتها كلها . فقالت بحدة :

— دعيني وشأني . واذا تدخلت فيما ليس من شأنك ، فسوف أرحل حالا . وعبثا تكابرين ، لاني يوم أرحل لن تقوي على الاحتفاظ بزيون واحد من زبائنك .

فهتفت مدام لوند وهي تمشي نحوها :

— ماذا ، وتجريين على تهديدي أيتها الوقحة السفيفية !

الا ان الفتاة فتحت الباب وولت الادبار .

اول ما كان سيصدر عن المعلمة ان تجري وراء اتجيل وان توسعها ضربا ، لكن بطء حركة ساقها ما كان سيتيح لها ملاحقتها فوق الدرج وفي الشارع من بعد ، كما ارتأت ان من الافضل الا يعرف الناس بذلك النزاع العائلي . لذا اكتفت بفتح النافذة ، ومتابعة الفتاة وهي تعبر الساحة باستعجال ، بنظرات أثقلها الغضب .

« يا ندلة » قالتها في فكرها وهي تفلق النافذة . « يا ندلة » .

ودفعت الكنبه بعنف وأزاحت المقعد الخشبي ، اللذين اعترضا طريقها ، ومشت بضع خطى نحو سريرها . كانت هذه الفتاة على حق بلا ادنى شك . فالزبائن الان وقد أخذوا يستسيفون ذلك اللون الاضافي الذي تقدمه اليهم مدام لوند ، لن يقبلوا ابدا بفكرة الاستغناء عنه . وليس قولها على طلبهم فرناند بصحيح . فأنجيل هي التي تلزمهم ، أنجيل بوجهها المليح ومظهرها كفتاة صالحة . الندلة . منذ ثلاثة اشهر بدأ الغرور طريقه الى رأسها بتأثير كلمات المديح والاطراء .

جلست المعلمة على حافة السرير وتأوهت متفكرة في المرحلة الزمنية المنصرمة حديثا . يوم كانت الفتاة شديدة الطاعة ، تامة الخضوع . كانت تأتي في أماسي الاحاد ، وأحيانا في بحر الاسبوع ، لتسرد على مسامعها ما استخبرته من هؤلاء واولئك بأمانة ساذجة . حتى انها لم تكن تميز دوما بين المجدي وغير المجدي . وهكذا تروى مدام لوند الظما الرهيب لفضولها الذي ينهشها على نحو دائم . فالعيش بين اناس مجهولين كان مستحيلا عليها . فكل قادم جديد هو في نظرها عدو لابد من محاصرته والسيطرة عليه ، وكان الانفعال الذي يستولي عليها بتأثير ذلك ، شاقا وعذبا ، لا يماثله سوى شغف الحب ولهفته . فسيطرتها على فريق زبائنها تتأتى لها عن طريق معرفتها الدقيقة بأصغر تفاصيل حياتهم اليومية . وكان شغفها ذاك يضخم الاشياء . فالتفصيل الذي يعتبر لدى فضول أصغر من فضولها طبقا هزيلا ، يعتبر لديها وليمة ملكية . فما من شيء لديها ضئيل القيمة . وقد جعلها هوسها الجنوني بتسقط الاخبار تتلقف كل شيء بنهم دون تمييز فمصدر ربطة عنق يثير اهتمامها وتشوقها بنفس الدرجة التي يثيرها مصدر ثروة طائلة . فالشراهة لا تعرف التمييز .

لكن ، من المفارقات الغريبة أن الطبيعة حرمت تلك المرأة من مواهب التنجيم التي كان ينبغي أن تمنحها اياها ، واكتفت بالقائها بين براثن أشد الفرائز الحاحا على وجه الارض من غير أن تزودها بوسائل تهدئتها . أما الموهبة الوحيدة التي كانت من نصيب مدام لوند فتمثلت في قدرتها ، لا على الكنف عن سر ما ، بل على اكتشاف وجوده فهي على علم دائم بوجود غموض لا يسهها أبداً أن تتوصل إلى جلالة بمفردها . وبشبه ذلك احدى سخریات القدر ، إذ لولا ذلك ، لتمتعنا في حالة التعظيم التام ، ان لم يكن بالسعادة ، فبطمأنينة الجهل على أدنى تقدير . وما كان لشغفها ان يعرف الراحة قط . هناك صوت يدوي على المدوام ويطلق اسماع تلك المرأة الشقبة . ويصيح ذلك الصوت : « هناك شيء ما . ما هو ؟ ليم يبدو هذا الرجل الفني حزينا ؟ لم لا

يرتدي ذلك ملابس الا من اون واحد ؟ لماذا يصل فلان الى المطعم متخلفا
عن الجميع مدة ثلاث دقائق بصورة دائمة ؟ لماذا ؟ »

وتتولد تلك الاسئلة داخل ذهنها في كل وقت وتعذبها . وقد بلغ
بها الامر حد الظن بأن الناس يتخفون منها ، فاستولى حينئذ على
روحها حقد عام تجاه الناس كلهم ، بحيث ينبغي ، اذا شاءت أن تجد
برهة من الراحة ، أن توافيها أنجيل باجابة شافية على الالغاز العديدة
المشورة على دربها اليومي من مطلع النهار حتى نهايته . وتأتي الاجابات
دائما مخيبة لامالها . فليس من تناسب يذكر بين لهفتها المسعورة
لمسرتها وبين المتعة التي تمنحها اياها . فتقول في نفسها : « ألم يكن
غير ذلك ؟ » ويمتلئ قلبها حقدا دفينا على أنجيل التي لم توافها بالقيمة
الرائعة من الاسرار التي تتوق دوما اليها . وهي لم تستوعب بعد ،
رغم أنها تجاوزت الخمسين ورغم تجربتها الفضولية الطويلة ، أن
هوسها ذاك لا يرمي الى تحويل المجهول الى معلوم بل الى البحث من
المجهول لذاته والعيش ضمن نطاقه . وقد يكون ذلك ما سعت الطبيعة
الى افهامها اياه بحرمانها من الحدس الممنوح للنساء بصورة عادية .

ومع ذلك ، فتلك المرأة الخلد كانت تريد أن تبصر ، وكانت معونة
أنجيل شيئا أساسيا بالنسبة لها ، لان الفتاة ، وهي أقل عمقا من
المرأة التي تناديها « خالتي » ، تتمتع بكل الصفات التي تجعل مزاج
الرجال صالحا للبوح بالاسرار . لقد تولت مدام لوند تربيته على نحو
ما تقوم حاليا بتربية فرناند الصغيرة ، لكن أنجيل أخطأت حين نسبت
اليها النية في تحقيق أرباح ، لان المعلمة لم تكن قط بخيلة . حسب
المرء من النقائص واحدة . وما من شك في أنها طالبت أنجيل بدفع
نسبة مما تكسبه ، لكن ذلك الامر كان نادرا ولا يقع الا في اواخر الشهر
حين تصبح الموارد شحيحة . لكنها تقدم للفتاة مقابل ذلك غرفة بائسة
الى حد ما ، وهي حقيقة لا تنكر ، بالاضافة الى كل الوجبات تقريبا .
لذا كانت تجد نفسها دوما في موقع قوة اذا ما فكرت أنجيل بالانصراف
فأين ستجد من يقدم لها الطعام بلا مقابل ؟ وغرفة بلا مقابل ؟

حصلت فيما مضى ، ولمرات عديدة ، مشاحنات بين مدام لوند وأنجيل ، فالفتاة فقد صبرها . وبدأت أكثر تبرّما مع مرور الوقت . لكن لم يسبق البتة أن كلمت معلمتها بمثل تلك الصراحة القاسية ، أو عيّرتها بعيها الفظيع . وعلى ذلك فهي بكلامها مع مدام لوند عن فضولها لم تسبب لها صدمة فقط ، بل باغتتها . وقالت المعلمة في نفسها بمزيج من الدهشة والفيظ : « فضولية ! هذه الصغيرة البائسة تقول عني فضولية ! ولكن لا بد لي من أن أستعلم عن الناس الذين استقبلهم على مائدتي . » ثم مضت تقول في داخلها بمهارة المخادع الذي يتواضع كثيرا حين يكذب على نفسه : « لو كنت فضولية حقا ، لاهتممت بمعرفة ما تفعله مع زبائني . » ثم أضافت بنبرة عالية ، وبنوع من الرخامة في الصوت كأنها ترفع في محكمة :

— ولكنّ ذلك لا يعني .

إنها تعرف في الواقع ذلك النوع من الامكنة التي يقصدها الزبائن مصطحبين أنجيل ، لترددها عليها أيام شبابها . ويظل خيالها مطمئنا من هذه الجهة ، فغريزتها تنبهها إلى أن من الحكمة عدم الخوض في تفاصيل هذه العلاقات التي تعرف جوهرها الأساسي . وبدأ لها أنه ما دامت تتظاهر بتجاهلها فهي في مأمن من اعتبارها مسؤولة . إلا أنها يوم الأحد ، وهو موعد ما تدعوه بكل عفة (طلعات) أنجيل ، تظل عصبية ومضطربة إلى حين رجوع الفتاة متفكرة بانزعاج لا تسعى إلى تفسيره ، في كل أشكال الهز التي لا بد لريببتها من تحملها . وعبثا تكرر بينها وبين نفسها « وماذا يعني من كل ذلك في نهاية الأمر ؟ » فالطمأنينة لا تعود إليها إلا وهي تسمع أنجيل صاعدة إلى غرفتها .

وها هي أنجيل الآن بدورها تخفي شيئا عنها . ها هو الشخص الوحيد الذي تحسب أنها تعرفه حق المعرفة يفعل كالأخرين فيتهرب منها . وبدأ لها الأمر على درجة من الظلم حتى أوشتك ألا تصدقه .

قالت في نفسها : « فعلت ذلك لتأكيد عيشي . تأكيد عيشي أنا !
 بم أسأت إليها ؟ لقد ربيتها . اكلت خبزي وتامت تحت سقفي طوال
 أربعة أعوام بحالها . »

وهزتها لحظة ضحكة صامتة فقررت بينها وبين نفسها إعطاء خفيين
 جميلين لأنجيل . لكنها عادت فتذكرت على حين غرة نظرتها ونبرة صوتها
 فتملكها اليأس . وابتت بصوت عال :

— لماذا لم أراقبها على نحو أفضل ؟ في حياتها شيء ما بكل تأكيد .
 وما هي الآن تفلت من يدي إنها غلطتي ، غلطتي أنا .

وتشنجت قسماتها لعنف الألم الذي اعتصرها وأرغمها على القيام
 والمشي في غرفتها كأنها لم تعد تدري ماذا تفعل بجسمها . وارتعشت
 الدموع في عينيها السوداويين فأسبغت عليهما بريق طلاء الخزف .
 وبدت لها بفتة ، وسط رؤيا مرعبة ، حياة العزلة ، وأماسي القلق
 الطويلة . فكيف أمكن لها أن تتحدث على رحيل أنجيل بذلك الاستخفاف ؟
 إنها لم تكن تدرك حقيقة ما قالته . فالمرت أهنون بكثير . أجل ، يبدو
 لها أن التواري والفناء أسهل عليها من أن ترى زبائنهن ينسحبون من
 حياتهن واحداً إثر واحد ، حاملين معهم الأسرار التي كانت ترى دلائلها
 على وجوههم أو في حركاتهم بل في ملابسهم . فمن الذي سيقمهم بعد
 اليوم ؟ وخطرت بباليها فرناند ، لكن لا ! يستحيل عليهم البوح بأسرارهم
 إلا لفتاة كبيرة ، وما تزال فرناند في جميع الأحوال صغيرة جداً . وعلى هذا
 الأساس إذن ستحل نهاية المطعم . وهي ستكون الشاهدة على خيبة أمل
 الزبائن ثم على نقيمتهم العامة . وجاءت رغبة غريبة لتهوي بها الى أسفل
 دركات الإذلال وتمزق قلبها ، فأرغمتها على أن تتخيل وجه المسيو بلوندو
 وهي تعلن على مسامعه أن أنجيل لن تأتي من بعد ، ووجه المسيو غونسولان
 ومن بعده باريزيه وترييت . وتخيلت أصواتهم ، سمعت أصواتهم بنبراتهن
 الناحبة ، الغاضبة ، المتوسلة . وانتابها دوار . كانت وراء مكتبها ،

متشنجة الاصابع حول إناء الزهر الصغير ، شاحبة ، واقفة تقدم
التفسير والتبرير .

التصق كفاهما بوجهها الملتهب تأثراً وخجلاً . لابد من منع الفتاة
من الرحيل . ليتها تستطيع فقط أن تتوصل الى اكتشاف السبب
الذي يدعوها إلى مقارقتها .

ثم قالت بصوت قوي وهي تشير بحركة آمرة :

— على كل حال ، سوف تبقى هنا . ولكن ماذا تخفي عني ؟

وقعدت ثم قامت على الفور .

تأوهت وهي تستأنف مسيرة لا تعرف الكلل داخل غرفتها :

— لكن يجب أن أعرف ، ليس من العدالة في شيء ألا تخبرني .

ماهذا ؟ ما الامر ؟

كان شكل معدني للمسيح ، معلقاً فوق سريرها ، باسطاً ذراعيه
فوق صليب من القטיפه . فتوقفت فجأة أمامه وشرعت تتأمله بنظرة
مشغولة بفكرة بعيدة . وبغته رأته . بدا برأسه المائل وعينيهِ المغمضتين
في الهيئة المرهقة لتلك المرأة ومشهد قلقها .

وكررت تقول كأنما تتوجه بكلماتها الى الكائن السماوي :

— ما الحكاية ؟

مرت بضع دقائق من غير أن تقوم بحركة وغرقت في تأمل ورع
لمصبتها ، فعادت إليها طمأنينة ظاهرية على الأقل . وكان يتبين من

الاحاديذ العميقة التي ظهرت على وجهها ، أن أفكارها قد ساقتها الى
مهاور من الحزن فتاهت فيها . واكتست السماء وراءها لونا أكثر
شحوبا ، يزينها زنار متورد فوق السطوح يعلن أن طقس الغد جميل .
وهاهي أشعة الشمس الغاربة قد توزعت عبر معينات النافذة ، لتؤدي
الى التمايع البلاط ، وتمر ببطء فوق الجدران . وأخرج وهج النور
ذاك مدام لوند من تأملاتها . فتنهدت وضمت يديها مغمومة . وانحدرت
الدموع التي عجزت عن حبسها حتى الساعة فسالت على جانبي انفها
الكبير المهييب .

وتمتت :

— اذا ما ارتحلت ...

لكن صوتها تهدج فلم يسمح لها باتمام كلامها . فاطرقت
راسها ومشت بضع خطى من سريرها الى كنيبتها الى وسط غرفتها ،
وعليها هيئة مسافر ضل طريقه داخل غابة .

وبعد برهة قالت متعجبة وهي تسمع النادل يدلف الدرج ليتوجه
نحو المطبخ :

— يالهي ، تأخر بنا الوقت . فالطعام يقدم بعد ثلاثة ارباع الساعة.

حلت يداها ، من وراء ظهرها ، عقدة تنورتها التي مالبت أن
انزلت فوق وركيها الضخمين . إذ ينبغي في الواقع أن تبدأ العناية
بهندام المساء . وأن تلبس حلة التفتة المخصصة للعشاء . لكن قلبها كان
يتفطر مرارة فأخذت تذرف الآن دموعاً حارة وهي واقفة وسط سناء
الأصيل ، لا تلبس إلا صدار الصرج الباهت وتنورة داخلية من قماش
النشاف رمادية اللون تكشف عن كاحلين هائلين لامرأة عجوز .

* * *

- ٩ -

بعد أن عبرت انجيل الساحة ، سلكت درباً يدور حول لورج
 مسائراً مجرى النهر واتجهت بعدئذ نحو شانتيليا . ذلك أنها اعتادت ،
 حين يتوفر لديها شيء من وقت الفراغ عند نهاية النهار ، أن تستغلها
 فرصة للقيام بجولة قصيرة في المدينة ، والتوجه بتحية المساء الى هؤلاء
 والى أولئك ، لأنها لا تحب العزلة . أما كلمات المجاملة العادية التي
 تتبادلها مع جيرانها فلها وقع عذب على قلبها . إن حاجتها لأن تكون
 محاطة بالناس وأن تلمح البسمات على الوجوه لدى اقترابها وترى
 الأيدي تمتد لمصافحتها ، قد نشأت لديها منذ وقت طويل . شأنها شأن
 الذين عودهم حسن وجوهرهم على سماع كلام المجاملة وتلقي الترحاب من
 الجميع . وهي لم تكن تجهل البتة أنهم يذمونها بقسوة ، وأن العديد من
 الناس الذين يسمعونها عندما يلقونها أعذب الكلام ، لا يتوانون عن النيل
 من سمعتها في الأحاديث المتبادلة فيما بينهم . لكن الأمر لديها لا يعني
 شيئاً . فظاهر من المودة يكفيها . وهدوء بالها منوط بما تلمسه لدى
 الناس الذين تلقاهم كل يوم من مزاج رائع أضف الى ذلك أن الألم
 يجتاحها لتفرق في حزن عميق لقاء كلمة قيلت بترم هنا أو سحنة بدا
 عليها التجهم هناك . ومن شأن ذلك أن يفسر سهولة خضوعها للذين
 لاحقوها وغالزوها بدءاً من عامها السادس عشر . وجاءت موافقة مدام
 لوند الضمنية لتدعم ميلها الخاص الى أن تكون محبوبة ، وأن تكون
 « بنتاً طيبة » . فانساقبت بكل سر لمعاشرة هذا وذاك ، سعيدة بما
 يفدقه عليها الجميع من مجاملات وملاطفات . ولم تضايقها السمعة التي
 اكتسبتها على هذا الأساس في شيء ، لأنها لم تكن لتتخيل أن الوضع يمكن
 أن يكون على غير ما هو عليه، مثلها في ذلك مثل كل الذين لا يعرفون المقاومة

بطبعهم . وكانت الحياة تبدو لها شبيهة على نحو غامض بنوع من « الحظ » ، فيها الممتع وفيها المزعج تبعا للحظ الذي قد يحالف المرء وقد يعاكسه ، لكن كل ما فيها محتوم . حتى لتبدو لها فكرة وقوعها في الخطأ غريبة كل الغرابة .

وهكذا كانت مبادرتها الأولى في ذلك المساء أن تبتعد عن لورج متحاشية بذلك حضور خالتها . لكنها وهي تمر أمام كنيسة سان جود ، لم تصمد أمام الاغراء في دخولها . كان بناء الكنيسة من الطرازين القوطي والرومي . وجرى تجديدها في القرن السابع عشر . وهي واحدة من تلك الكنائس التي تذوي حزينه في عالم النسيان ، لأنها شبه فارغة على الدوام . لكن أجيالا من المؤمنين خلفت فيها نوما من ذكرى ورعها . وعندما دخلت الفتاة الى تحت جناحها ، كان الظل قد غمر موضع الجوقة . ولم تعد الأعمدة الكورنثية المتعاقبة مع الأقواس القوطية تشاهد إلا بمشقة . فجلست غير بعيد عن البوابة تلتقط أنفاسها قليلا وهي تنظر الى ما حولها .

كان يستهويها أخذ قسط من الراحة في كنيسة سان جود من غير أن تكون تقية . ولا تتعدى حدود إيمانها تلاوة صلاة قصيرة بين وقت وآخر ، مع وجود إحساس مشوش بأن الأمر لا يشكل التزاما كبيرا من جانبها وأنه لا يمكن أن يعود عليها بضرر . ثم إنها لم تكن راضية عما يبدر عن زبائن خالتها من استهزاء بالكاهن . وهذا كل شيء . فالطقوس الدينية تبعث فيها السأم .

أحست على أثر انفجار الغضب الذي وقع قبل قليل بالضرورة في أن تمكث ساكنة بعض الوقت ، وأن تتفكر في كل ما قالته وكل ما وجه إليها من قول . فدوي صوت مدام لوند الفاضب ما زال يتردد في رأسها . وليس لما حصل اليوم أيّ مثل سابق في حياتها الرتيبة . فما من أحد أغلظ لها في القول على نحو ما فعلت خالتها ، ولم يسبق أن رأت في عيني انسان بريق غضب على تلك الدرجة من الشدة . أثار ذلك

المشهد اضطرابها . وكان يشبه يداً قوية جبارة تهزها على نحو مباغت لتخرجها من سبات طويل . فهي قد صدقت طوال أعوام ، إطرأت الرجال وكلمات مدام لوند المفنجة ، حتى أنها استبعدت كل الظنون في أن أقوالهم العذبة وابتساماتهم ليست صادقة . وها قد عرض أمامها علي حين غرة مشهد حقيقي لامرأة ذهب الخوف بعقلها فنهضت تلهث وتضطرب وتتشبث بيديها لتحول دون رحيلها . فانتابها هي نفسها نوع من الفزع حتى إن قلبها ما يزال يخفق بعنف بعد انقضاء ربع ساعة ، دون أن يقوى على استعادة إيقاعه المألوف .

حاولت أن تعود الى حالتها الطبيعية فبدأت تتلو « السلام عليك يا مريم » لكن الأفكار المتولدة في ذهنها كانت أقوى من كلمات الصلاة ، فواصلت شفتائها الحركة من غير أن تعرف نفسها الطمأنينة . لقد رأت غريه لأول مرة في أحد شوارع سانتيليا وكان الوقت أصيلاً . فمشى على إثرها بعض الوقت ثم سار بمحاذاتها ثم بادرها بالكلام لكن بطريقة مباغتة حتى حسبت بادئ ذي بدء أنه في حالة غضب . وانتابها الشعور بأنه في عجلة من أمره ليقول لها شيئاً ثم يمضي في سبيله . ولم يتطرق في كلامه معها لذكر المال بل سألها فقط أين يستطيع أن يراها ثانية . فضربت له موعداً . لكن على مضض . لأن له طريقة غريبة في نطق الكلام وكان أحداً يشد على خناق ، ولأنه كان يشيح بعينيه حين تنظر إليه . إلا أن شعوراً من حب الاستطلاع دفع بها نحوه . ليس من شك في أنها أحست بالخيبة لأنه لم يقدم لها شيئاً ، لكن أحست معها بالدهشة ، وكانت الدهشة في نهاية المطاف أقوى من الخيبة . فهل قدمت الى الموعد لأنه أثار فضولها ؟ ذلك أنها لم تر شيئاً من الوسامة لا في وجهه القلق ولا في قسماته المهزولة الذابلة . أما منكباه العريضان المقنطران فولدا في نفسها خوفاً لم تدر له سبباً . لقد بدا كمن ينوء تحت عبء ثقل أو يرغب في التخفي كواحد من الجناة . وهو لم يخرج يديه مرة واحدة من جيبي ذلك المعطف الرمادي المنسدل حتى منتصف ساقيه ، لكن بدا لأنجيل رغم ذلك أنه كان ممسكاً بذراعيهما ومغمضهما طوال فترة الحديث . وقد

يعود السبب للالاحاح الذي نظر به الى ذراعيها ومعصمها لأنه لم يرفع عينيه إليها البتة .

جاءت الى الموعد على كل حال . أما وقد وقد أخافها ، فكيف حددت له مكانا منعزلا في آخر النهار ؟ ومن الذي يفامر بالحضور ناحية العبارة بعد غروب الشمس ؟ وتذكرت أنه هو الذي اختار طريق العبارة وأنها وافقت دونما تفكير لتتخلص منه دون شك . وعندما وصلت رآته في انتظارها ، وبدأ من فوره في التحدث إليها ، فشرعت هي ، وقد تولاهما الذعر ، في السير أسرع منه قائلة إن المكان غير مناسب وإنها لا تريد أن يراها أحد بصحبة رجل . قالت ذلك طمعا في كسب الوقت رغم أن كل خطوة تخطوها كانت تبعدها أكثر فأكثر عن المدينة وعن المنازل المأهولة . وراودتها فكرة الهروب والاحتماء داخل دغل . لكن ماذا لو عثر عليها ؟ لقد قرأت قصصاً عديدة عن نساء قتلن وسط الأحرار . وهو الآن يجري وراءها . فتوقفت وقلبها يخفق وكلمته بنبرة حازمة على نحو ما يفعل المرء مع حيوان هائج بقصد إرهابه .

لحق بها قرب العبارة وكلمها بنيف على نحو ما كانت تتوقع ، لكنها صمدت أمامه متكئة على فرعها ومتصنعة الغضب ، ولشد ما كانت دهشتها حين بدأ يعتذر إليها . بعدئذ اجتازا العبارة وحين صارا على الطريق في الجهة الثانية من الخط الحديدي ، قدم لها خاتما ، واكتشفت في تلك اللحظة أنها كانت غبية لشعورها بالخوف من إنسان وجل على شاكلته ، وقبلت الهدية ، وقد امتلأ قلبها ازدياء نحو ذلك الرجل ذي العينين الكسيتين . قبلت تلك الحلقة التي سمى لأن يدخلها في إصبعها . لأنه بات الآن ممسكا بذراعها ، فلم يبق الأمر وهما ، ورأت فوق ذراعها الأبيض البض الجميل يدا ضخمة كثيرة العقد ، وهي ترجف . لكنها لم تعد تخشى تلك اليد مهما بدت جبارة وقبيحة ، بل لم تعد تشعر بغير الشفقة على حركاتها الخرقاء . وعيل صبرها ، فأمسكت بالخاتم ، وهو غير ذي قيمة ، فذلك يرى لأول ودلة ، ووضعته بنفسها في إصبعها .

قالت في نفسها : « يا للفارق الكبير بينه وبين زبائن الخالة ! » فأولئك لا يضيعون الوقت في تصرفات حائرة مضحكة ، ولا يتوانون قط عن دفع المال الذي من شأنه التمهيد لهم كي ينالوا حظوة لدى أنجيل . صحيح أنها تتعامل اليوم مع رجل غريب ، لكن هل يوجد حقاً رجال على تلك الدرجة من البساطة والغباء ؟ وبدأ الخجل الذي يعاني منه ذلك الرجل ينتقل إليها ويضيقها . لأنها لم تكن معتادة على مثل ذلك الصمت ، وذلك الموقف المتسم بكثير من المراعاة والخضوع . ولم يكن يساورها من شك حول ما يبتغيه منها ، لكنها شعرت بأنها عازمة تحت تأثير نزوة رهيبة من نزوات طبيعتها ، على أن ترفض منح أي شيء لهذا الرجل لأنه لم يكن يدرئها .

ثم قابلته مرة أخرى . فقد كتبت إليه من تلقاء ذاتها حين بدا لها أنه يتلصق عمداً في طلب موعد ثانٍ منها . وربما كان يسعى إلى تناسيها والتخلص منها . وبدأت رغبة الآن ، حين لم يعد يفرعها ، في معابشته ، والاصفاء إلى ما يَسْعُ الرجال الذين على شاكلته أن يقولوا لأمراة ، والنظر إلى سحنته . واستعذبت نفاذ صبره والمه وغضبه . واستمتعت بالحفاظ على هدوئها أمام إنسان مضطرب ذلك الاضطراب العميق . ولا يسمح في واقع الأمر أن تشك في أن ذلك الرجل يتعذب . ولم يكن لعذابه ذاك أن يدعها غير مكترثة به ، بل كان على العكس من ذلك يثير مشاعرها . حتى لتحس أحيانا بدافع مفاجيء من الشفقة ، فترى نفسها وهي توشك أن تمسك بيديه وأن تسمح على جبينه ، من أجل أن ترى فقط جرحه يندمل وترى الفرحة يتجلى في عينيه . إلا أن الغرابة القصوى في هذا الأمر تتمثل في أنها كانت تكبت ذلك الدافع على الدوام . فربما كانت تخشى مدى السأم المترتب على ذلك التصرف السخي : فمثل ذلك العربون لا بد أن يستلعي عربونا آخر وهكذا دواليك إلى أن تستجيب في نهاية الأمر لرغبة غيره ، لكن هذه الاستجابة لم تكن تروق لها ، أضف إلى ذلك الخطر المتمثل في أن يراها أحد . فيوم رآها مثلاً للمرة الثالثة في أسفل جادة البريست ، كان يكفي أن يمر أحد وهي تمد إليه يديها لتكون

المدينة كلها على علم بالامر بعد ساعة واحدة فقط ، وكانت تخشى أن
يكتشف أحد مكيدتها الصغيرة تلك ، لأنها كانت تشعر بالخزي لوجودها
مع ذلك الرجل .

كانت بسببه تشعر بالخزي وهذا ما جعلها تضرب له موعدا بعد
الغروب أو في مكان مقفر ، كالمارة الأخيرة قرب النهر . كان يبدو طويلا
جدا وذا شكل غريب في معطفه الفضفاض ، أما وجهه الطويل الحزين
فمن شأنه أن يثير ضحك الناس الساخرين . والمدهش حقا أن تبدو فتاة
مثل انجيل متمنعة الى ذلك الحد . حسب المرء أن يلقي نظرة على مطعم
لوند اثناء العشاء ، والزبائن بكامل عددهم ، ليرى أن السادة الذين تجود
عليهم بعطفها ، ليست وجوههم أكثر ملاحظة ، ولا أشكالهم أكثر لياقة
من الرجل الذي أبدت حياله كل قسوة . الا أن هذه الاجسام القبيحة
وتلك الوجوه التي وسمها الغباء بميسمه ، كانت غير مبالية بها . وبدا
لها ان زبائن خالتها هم على هذه الحال منذ أن كانوا . ومن غير المعقول
أن يكونوا على غير ذلك النحو . وكان هذا الواقع يشكل جزءا من
حياتها مثله في ذلك مثل حجارة المنازل التي يقع عليها نظرها يوميا ، ومثل
حوافي السوميات ، وأشجار الدلب الصغيرة التي تزين طريق النزهة .
لكن الوضع كان مختلفا جدا مع غيره الذي يمثل في نظرها عنصر المصادفة
هذا اذا كانت قد وضعت ذلك في حساباتها . لذا شعرت نحوه بالفتور لأنه
لم يكن وسيما ، كما أحست بالهانة لأنه لم يكن أكثر شبابا وأكثر غنى
ولأن له يدين غليظتين وأكماما متسخة وبسبب هيئته المدعورة . أما
كانت جديرة بغير ذلك ؟ بأي فرح كانت ستنتطلق في مفامرة خيالية
وبصحبة فتى في مثل سنها ، مليح الوجه يتفجر نشاطا ! لكن بدلا من
ذلك . . . ان القدر ليستهزئ بها حقا .

أحست رغم كل شيء بأنها ملزمة بالعودة لمقابلة ذلك الرجل ، رغم
ضالة ما شعرت به من رضى فأضحت مثل لاعب يرفض الانسحاب من
جولة بدات ، فيستمر في لعب لايجني منه غير السأم ، حريصا على أن
يرى كيف ستنتهي . ألم تقطع شوطا بعيدا ، حتى أضحي التراجع

حاليا متعذرا عليها ؟ اذ لا يسمها أن تقول لذلك الرجل أن ليس لها فيه من رغبة بعد أن قامت من تلقاء نفسها فضربت له موعداً .

وبدأت على هذا الأساس بمزيج من منطق مغلوطة ونزوة هوى عابرة ، تختلق المبررات القائه . ولقد توافق ظهور غريه مع فترة بدأت فيها أشياء كثيرة من حولها لا تثير فيها الا الاغتراب . ذلك أن العادة لم تقوَ على جعلها تقبل عن طيب نفس ذلك النظام المفروض على حياتها : عملها في المصنفة ، طلعاتها مع زبائن خالتها ، وترددتها سرا على عدد من سادة المدينة . ففي ساعات معينة من العزلة ليلا ، حين تجعل شدة الحرارة النوم متعذرا ، أو في النهار حين تكون مرهقة بشكل لا تقوى معه على القيام بنزهة ، كان يتراءى لها مستقبلها كسلسلة طويلة من الاسابيع المتوالية والمتشابهة فيما بينها ، أو المختلفة فقط بسبب الامراض وصروف الدهر . وبدأت تطرح على نفسها مئات الاسئلة ، بتأثير نزعة في نفسها للنظر الى الاحداث من أشد وجوها ظلمة ، فتبقى بلا جواب . ماذا سيحل بها اذا توفيت خالتها يوما ، واذا ما تبعثرت مجموعة الزبائن ، مورد رزقها المهيمن ؟ ماذا ستفعل لو حل بها ما حل بمدام بيلاتان ، بائعة اللحوم ، التي وفد عليها طفح جلدي تركها مشوهة ؟ لم تكن الاهمية بالنسبة لبائعة اللحوم الا نسبية اما بالنسبة لها ، فيا ملائكة السمء ! ان مورد رزقها الوحيد هو المهدد فعلا .

وها قد جاءها رجل مجهول . ليس رجلا كباقي الرجال ، فهو لا يشبه في شيء زبائن مطعم اوند الافظاظ الذين يشتهونها فيؤدون اليها الثمن ولا يفكرون فيها من بعد ، بل هو عاشق ، اجل ، رجل يجلبها ، فيا له من أحقق ، بل يقدم لها خاتما صغيرا وكأنها خطيبته . وهو لا يتعرض في حديثه معها للذكر المال أبداً . ثم بدا يتسرب شعور غريب الى قلبها لشدة ما تفكرت في تلك الاشياء . انها لا تحب ذلك المسكين غريه لانه ليس وسيما ولا فتيا ولا غنياً . الا انها راغبة في رؤيته . وعلى هذا فقد أحست بشوق اليه في تلك الساعة في تلك الكنيسة . وتمنت

لو سارت بصحبته على طريق ما ، فسمعته يتكلم بصوته الخفيض ، الخافت قليلا ، ذلك الصوت الذي يتبدى فيه احيانا شيء وحشي . وشعرت وهي امامه بأنها جميلة وجبارة وسعيدة ، هي الصغيرة جدا في مواجهة ذلك الرجل الطويل والقوي . الا أنه يطرق الرأس ويغض الطرف أمام نظرتها .

لكن ما دام يعاملها على هذا النحو، فما من شك في أنه يجهل وضعها الحقيقي جهلا تاما . فبدأ التعامل معها على أنها فتاة أصعب من الاما هي عليه في واقع الامر . ومرد ذلك الى أنها لا تتخذ مظهر أولئك النساء اللواتي يصبغن شعورهن بلون أصفر فاقع جدا ويتجولن في جادة البريست ما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل . ثم انها لا تضع على وجهها المساحيق والاصابع ولا تلاحق في لباسها الموضة ، ولكن هل من علاقة تذكر بين تلك المخلوقات المفزعة وبينها ؟ ان اكثر الالسنه سلاطة في شانتيليا تحترس دون الخطأ بينها وبين تينك الشقيقات . فهي متحفظة في مظهرها وخجولة . وهذا ما خدع غيره دون أدنى شك لكن ماذا عساه يقول ، او نمى الى علمه يوما ، انها تهب نفسها لقاء المال مثل نساء شانتيليا ؟ سوف يلجأ بالتأكيد الى طرق أخرى حيالها فهل يرضى المرء نفسه مع فتاة يستطيع اول عابر سبيل شراءها ؟

تنهدت بعمق وضمت كفيها . ليست فتاة يستطيع اول عابر سبيل شراءها . وليس ادل على ذلك من رفضها الخروج مع المسيو بلونندو . الا أنها لم تصمد في مرات عديدة ، واستسلمت لاشخاص كثيرين ، لانها دفعت نحوهم دفعا من قبل خالتها ، ولأنهم يظهرون لطفاء حيالها لقاء ذلك الثمن فقط . ولكن هل عرفت شيئا من الفرح يوماً اثناء تلك الملاحظات الكثيرة كلها ؟ لم يحصل ذلك . فطاعاتها بصحبة زبائن المطعم تملأ نفسها بالسأم والتقزز غالبا . ذلك ان زبائن مداًم لوند ليسوا على شيء من الوسامة أو الشباب . لا بد أن يكون في العالم العديد من الفتيان الواسمين ، لكن نوعاً من القدر قام بتجميع كل ما هو بائس وبشع عند خالتها . شهدت ذات يوم ، قبل ذلك بعام مرور فيلق

من المشاة في طريق العودة من المناورات نحو معسكرهم . وممر على ذلك النحو من أمامها مئات الجنود . كانت واقفة عند زاوية شارع ، فزعة بعض الشيء لرؤيتهم كذلك عن قرب ، ومتضايقه مما كان الكثيرون يقولونه لها ، لكنها لم تجرؤ على الهرب ولا كانت راغبة فيه . ويا للدقائق الغريبة التي عاشتها ! كانوا يسرون بستراتهم المغبرة ، وعمرانهم على رؤوسهم بشكل عرضاني ، وفيهم من بدوا لها فائقي الحسنة وفي غاية الانشراح . حتى أن ذكرى ذلك المشهد وحدها تجعل وجهها يتقد اتقادا ، فلقد بدا لها ذلك المشهد صورة لحياتها وملخصا عنها: كانت واقفة جامدة على حافة طريق بينما تمر من أمامها تلك الكائنات مفعمة بالقوة والبهجة ، من غير أن تقوى ، بحكم نظام خفي للأشياء ، على القيام بحركة واحدة لاستبقائها . كان عليها أن ترى ذلك الحشد من الشباب يتوارى . ربما كان بوسع واحد منهم ليس إلا أن يجعلها سعيدة طوال حياتها . ثم بدت وكأن صوتا صاح بها : « لاحقهم بعينيك فالدرب يسير بهم نحو مدن أخرى حيث النساء اللواتي يعشقنهم ينتظرنهم ، وكوني على ثقة من أنهم ليسوا محرومين من الحب وليس هناك من يقابلهم بالصد ، لكن انظري ، ها هم ماضون وليس فيهم واحد لك » .

ومنذ ذلك الحين وذكري تلك اللحظات الاليمة تعود الى ذهنها ، كلما عرض عليها أحد زبائن المطعم أن تخرج بصحبته ، كأنها تستهزئ برغباتها . كان في شانيتليا رغم ذلك عدد من الشبان ، تنظر اليهم الفتاة المسكينة بلهفة حين تلتقيهم في الشارع ، لكن الجراة تنقصها دون شك ، فغريزتها تدفع بها نحو التخفي حين يديرون أنظارهم نحوها ، فتولد لديهم انطباعا بأنها مزهوة وأنها تأبى التحدث اليهم . ولم يبد عليهم أنهم يولونها اهتماما كبيرا لأنهم ما كانوا يلاحقونها البتة . وآل بها ذلك الى الاعتقاد بأنها ليست جميلة بقدر ما كانت تحسب ، أو على الأقل بأن الجمال وحده لا يكفي مالم يأت مدعماً بنظرة ومشية فيهما شيء من الجراة والثقة يكملان سحره . صحيح أن الجراة لم تكن تنقصها تجاه المسيو بلوندد حين تكون بصحبته ، و تراها يقتّر مثلاً حول ما يتناولانه

من طعام أو شراب ، ولا تجاه المسيو غرو جورج عندما كان يحسب أن من حقه التحدث إليها وكأنها كانت وصيفته لأنه غني . لكن الأول منهما واهن والثاني في الستين . ألا يمثلان والحال هذه منتهى ما تستطيع تخيله كوضع حقير وكئيب ؟ فالذين كانوا يلتقونها للتغزل بجمال وجهها ورقة خصرها رجال على تلك الشاكلة . إلا أن امرأة قبيحة الشكل لكنها ليونة الجانب مثلها بوسعها والحق يقال أن تحظى بنفس المديح والاطراء . فكيف لها أن تثق بمداهنات أولئك الناس التمساء ؟ أما إذا جاءها يوماً شاب جميل الشكل بهي الطلعة وفي مثل سنها ليتحدث إليها راجياً القرب منها ، فربما تصدق يومها أنها جميلة . كانت تشعر إذن ، بانتظار ذلك ، أنها دميعة ووضيعة في نظر أولئك الذين كانت تود أن تحبهم . وتذكرت بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، بعد ظهر يوم رهيب امضته عند نافذة غرفتها خلف المغلاق ، لأن بعض صمال رصف الطرق كانوا يعملون في الساحة الصغيرة المثلثية المنبسطة أمام المنزل ، ولأن واحداً منهم وكان مكشوف العنق والذراعين ، قد أفعم قلبها إعجاباً كأنه شيء خارق . كان يبدو أن رفاقه يعترفون له بسيادة بسيادته عليهم ، لأنه كان مختصاً بالمهمة الأكثر رفعة إلى حد ما ، فقد كان وهو جاثٍ يتولى رصف المكبات الحجرية التي يأتونه بها . وينتقل من مكانه بين وقت وآخر بتحركات خفيفة ، ليعود إلى جلسة القرفصاء وهو مستقيم الصدر ، شبيه بأمير يتقدم منه التابعون حاملين إليه الهدايا .

وتوالت السنون من غير أن تشفيها من تلك الذكريات أو تبرئ الجرح العميق الذي خلفته في نفسها . فهي الفتاة التي لأرغبة لأحد فيها . أما عيناها الجميلتان الصافيتان ووجنتاها المثلثتان فطعم لا يجتذب إلا المسنين الحقيرين أو الرجال الواهنين أو الوجلين الذين لا يجروؤن على التوجه نحو أحد سواها . إيه ! يا للشكوى التي كانت ستوجه بها نحو السماء لو كان قلبها عامراً بالآيمان ! وهل يسعها أن تتصنع التمتع ؟ قدم اليوم إليها رجل ليس منقراً بقدر الآخرين ، لأنه يحبها ويتحدث إليها بذلك الاحترام الوجل الذي تحمله هي نفسها في

أعماق قلبها ، تجاه أولئك الذين تلقاهم على حافة الطريق ، أو تنظر إليهم عبر شق النافذة . إنها تدرك الآن كل الإدراك ، سر الرعدة التي كانت تهتز بها يد ذلك الرجل حين لمس ذراعها ! فهل يسعها أن تصد إنسانا يربطها العذاب معه بروابط لا حصر لها ؟

نهضت وسط الاضطراب الذي أوقعها فيه تلك الفكرة . أليست تلك هي السعادة في نهاية المطاف ، والحب من أينما أقبل ؟ بل لو لم يكن ذلك هو الحب الذي داعب أحلامها في عزلتها القلقة ، فهل عليها أن تزدري الهبة الغامضة المقدمة إليها ؟ ألن يكون شؤماً عليها هي التي لم تحلم إلا بالحب ، أن تأتي اليوم لتقابل الحب بالرفض ؟ اعتمدت على عارضة المركم^(١) بيدها ونظرت فيما حولها وقد تملكها الرهبة لما قد تخبئه الحياة لها . أما من وسيلة تمكن من تجنب كآبة المستقبل ؟ أليس هذا ما يرمي اليه المرء حين يصلي ؟ ورسمت إشارة الصليب عند أعلى صدارها دون كبير اقتناع . وبدأت كأنها أدركت على حين غرة أن الحياة لا تجود مرتين . فينبغي أخذ عطائها والتشبث به . ومثل لها خيالها المكفهر الحياة على صورة كائن مزاجي رهيب ، وطاغية ، ليسر من الحكمة التباحث معه . أخذ الليل يهبط الآن بتسارع أكبر . وأمدت جلبة كرسي يزاح من مكانه ، أو وقع خطى متجول في الشارع ، وحتى رجع الأصوات البسيطة جداً ، تكتسي في هذه الكنيسة الملائى بالعممة ، صدى خارجاً عن المألوف . وازداد الصمت عمقاً . فهيمن على القبة الداخلية وموضع الجوقة ومواقع الصلاة ، التي غصت بنساء شقيات، قدمن فجلسن يلتقطن أنفاسهن قليلاً ، ويسعين للتألف مع أتراحنهن . وهن يسردنها على مسامع السماء .

مشيت بضع خطى في جناح الكنيسة وظهرها الى الهيكل . كانت تخفق في الهواء بقية رائحة البخور فعبت منها مرة أو اثنتين بمتعة حزينة . فهذا العطر المحمل بذكريات الطفولة جعلها تأسف فجأة على

(١) المركم : كرسي خفيض ذو مسند للذراعين يستعمل للصلاة .

الأشياء التي لم تنلها . ذلك أنها فيما مضى كانت وهي صغيرة تتخيل الفردوس على صورة سهل ممرج ، مترامي الأطراف ، تحت سماء ربيعية . تتوزع فيه مجموعات من الأشجار المزهرة ، فتقطع رتابة ذلك الامتداد الشاسع المتوج قليلا . وتناثرت هنا وهناك حلقات عقدها الأطفال وهم يرقصون، ويفنون . كانت تتخيل على ذلك النحو السعادة الأبدية للنفس المتحدة بالله . ولا تزال ذكرى المفهوم الساذج تعتادها حتى الآن ، فتحلم بذلك من غير أن تبتسم ، رغم بعد الشقة بين تطلعاتها كبنت صغيرة. والرغبات التي تدغدغ خيال شبابها حاليا . فتتساءل على نحو مشوش هل كانت السعادة كامنة في تلك الأوهام الخاصة بالسنين الأولى، حين كانت الروح تنساق بكل يسر مع عذوبة الأحلام ، من غير أن تتدخل قوة الفعل لتقويم مسار تلك الدروب العذبة التي يتيه فيها الخيال .

وحينما بلغت عتبة الكنيسة ، راحت تفكر بغتة بغيره ، وبصوته الأجنس والمهذب في آن معا . أما إذا اكتشف يوماً أنها قد باعت نفسها لكثيرين ، فبأية لهجة سوف يكلمها آنذاك ؟ أيمن هو في شانتيليا ، حيث اعتاد الناس الثثرة ، ألا يكون أحد قد أطلعه على واقع الحال ؟ وماذا لو امتلأت نفسه نفورا فتركها ورفض لقاءها من جديد ؟ واحمر وجهها من تلك الفكرة المدلة ففتحت الباب . أهنالك حقا ما يستدعي عناء قضاء ربع ساعة في كنيسة للخروج من بعد والقلب ممتلئاً يأساً وغيظاً ؟

* * *

- ١٠ -

لم يكن عليه في هذه المرة أن يختار مكان جلوسه : فبينما كان يعلق قبعته فوق المشجب ، تقدم نادل ليقول له إن صحنه قد وضع على المائدة الكبرى ، فتوجه الى هناك ليجلس بين السيد موريستيل وبين بلوندو الابن ، وهكذا قطع عليهما نقاشا حاميا في السياسة وإن يكن بصوت خفيض . كانت المائدة مكتملة العدد ، فتعمد بدافع من الخجل ، نوعا من المباغتة ، وسعل مرة أو اثنتين وهو يبسط فوطته . لكن لو أتيح لهؤلاء السادة أن يروه قبل ذلك بخمس دقائق في عتمة الساحة الصغيرة ، حائراً وجلاماً مثل من اقترف ذنباً ، متردداً مرات ومرات قبل أن يدخل ، فهل من يدري مقدار ابتسامهم لرؤية تصرفاته المألئ بالثقة ، ونظرة التحدي تلك ، التي صوبها شطر جيرانه ؟ كان يبدو قائلاً : وصلت متأخراً ، بلا أدنى شك . فهل هذا يضايقكم ؟ إن ذلك ليؤسفني . كان يجهل في الواقع مقدار المهابة التي أضفتها عليه تلك الدقيقتان من التأخر . وبدأت عليه الهالة الخطرة لأنه تحدى مدام لوند ، التي لم تكن تتساهل على الإطلاق في موضوع التقيد بالمواعيت . لكن لم يبد على مدام لوند أنها مفتاة . بل على العكس ، كانت تبسم له وتحني رأسها وهي تنظر باتجاهه بسماحة ملكية .

أبدى بلوندو دهشته قائلاً بصوت خافت : عجباً ، إن للسيد حظوة كبيرة لدى الملمة .

أجاب موريستيل بلهجة ملؤها الإعجاب : كنت أوشك أن أقول ذلك . فلم يسبق البتة أن وصل أحد متأخراً من غير أن تقول له شيئاً .

وعلق زبون لم يكن بوسع غيره أن يراه بسبب نبتة شتوية كبيرة
حجبته عنه : اذا لم يكن السيد من هنا فمن غير المدهش بالتالي أن يجهل
واقس عاداتنا ،

فمال موريسيتيل صوب غيره كمن يروح بسر قائلاً : الفداء في
الثانية عشرة والعشاء في السابعة .

ـ شكراً ، يا سيدي .

ـ حباً وكرامة .

وساد صمت قصير استهلكت أثناءه فضلة الحساء المتبقية في
الصحنون بجلبة كبيرة ، عاد بعدها الطاعمون يتبادلون الأحاديث بأصوات
عالية أو خفيفة ، ضمن حدود الطابع الخاص الذي يحافظون عليه في
مطعم لوند .

قال موريسيتيل ، وهو يمسح فمه ويلتفت ناحية غيره :

ـ أرى أنك لست زبوناً يومياً على نحو ما نقول هنا .

فأجاب غيره : ذلك اني في الواقع لا أتمكن من الحضور إلا مرة في
الاسبوع كما ترى .

كان يكره نفسه على الحديث الى ذلك الرجل الذي لم يرق له
شكله ، لكن بدا ضرورياً من ناحية أخرى أن يستوضح عن بعض الأمور ،
وها هي ذي الفرصة مواتية . تفحص جاره بنظرة سريعة . إنه شاب
ذو كتفين ضيقين ، يرتدي بزة من الصرج الأزرق بدت لماعة لطول
الاستعمال . كان وجهه المنزوف وجه رجل أشقر سيء التغذية ، عليه
تجاعيد مبكرة بدت مستمتعة بحفر أخاديد متعددة الاتجاهات في بشرة
بائسة . أما فمه الصغير جداً والمحاط بكثافة من الشعر الاشقر فقد

بدا بلا شفتين تقريبا . وهكذا فهو كلما فتحه ليتكلم ظهرت سلسلة من التعابير المفزعة . وكان فضل زجاجتي نظارتيه السميكتين عليه ، إخفاء النظرة الوقحة والوجهة لعينيه الزرقاوين . لكن دمامة الرجل الأخلاقية آثرت أن تظهر موجزة في الأنف الذي صاغته الطبيعة دقيقا حادا كمنقار طائر . إنه لأنف غريب الشكل خال من الأنفة ، وعلى أهبة الاستعداد للاستكانة مرغما تحت وطأة الضربات . أضف الى ذلك أنه الجزء الوحيد الذي رضي الدم أن يتجمع فيه دون سائر أجزاء ذلك الوجه التemis .

ثم استأنف غريه يقول :

— أيسعني باوري أن أسألك إن كنت تأتي الى هنا كل يوم ؟

— كل يوم منذ عامين ونصف . أي أنني واحد من أفضل زبائن مدام لوند وأقدمهم .

فبادره أحد الطامعين ولم يكن باديا عليه أنه مصغ إليهما :

— تقول أحد أقدمهم ؟ نحن هنا اثنان نتغلب عليك بستة أشهر وثمانية يا سيد موريسستيل .

حينئذ قال الجار الأيمن لبلوندو الابن :

— أنا لا أخشى أحدا في ميدان القدم . واسألوا مدام لوند : ألم تقدم لي بنفسها وجبة عشائي الأول . وحين أقول لكم إن مدام لوند كانت تقدم الطعام بنفسها ، فإنما أقصد فترة ، قل نيف وثلاثة أعوام .

قيل هذا الكلام بصوت كئيب وبطيء ، وبلكنة ريفية قوية ، من قبل رجل توارى رأسه الضخم ومنكباه العريضان ، على نحو شبه كلي ، تحت القوطة المقودة وراء قذاله . وانحدر شعره الأسود المجمع حتى

جبيته كما انسدل عند سالفه ليفطي خدين مصابين بعدة وردية (١) ،
وكان وهو يتكلم ، يدير نظرة عدائية على الطاعمين الجالسين قبالة .

فأجاب الرجل الجالس وراء النبتة بنبرة لا تخلو من المرارة :

— معك حق ، يا مسيو بوج ، فأنا كنت أقصدك أنت ذاتك ، حين
أوضحت للمسيو موريسيتيل أنه لا يُعتبر إذا صح القول من أقدم زبائن
مدام لوند . لكن ، على كل حال ، لنكن أكثر دقة في حساباتنا . ولنحذف
أربعة أشهر غياب من الأعوام الثلاثة التي ذكرتها .

وباعد ما بين يديه . على نحو ما يفعل خطيب ، وألقى على من
حواله نظرة ملأى بالثقة كأنه يريد تشجيع جيرانه على الوقوف الى جانبه .

عندها تمكن غريه من رؤية الوجه جانبياً فبدت الصورة طويلة
ولثيمة ، أضفت عليها بهجة الانتصار مسحة من ذكاء .

« أربعة أشهر ؟ » ردد ذلك القول ، السيد تريبت ، وهو شاب
سمين أصفر اللون يجلس عند الطرف الضيق من المائدة .

كان ذا صوت حاد فالتفت كل واحد صوبه بهيئة تعجب وسخط ،
لأنه تكلم بصوت عال جداً . لكن جوابه كان متوقفاً فخلف ارتياحاً كبيراً .
فجيران المسيو بوج ، بائع الدواجن ، ما كانوا ليخاطرون بازعاج رجل
في مثل حدة طباعه ، أما هذا الفر فحديث العهد هنا . أما السيد
باليسون الذي خاطب بوج من وراء النبتة ، فقد أطلق الجميع عليه
لقب الوقاحة ، حتى أصبح مسلماً لديهم ، ومعهم المسيو بوج ، أنه
يستطيع أن يقول كل ما يخطر منه على بال . و يروى عنه أنه تصنع المكر
مرة في مجتمع . وهو يمثل العنصر المتطرف في مجلس الاغبياء ذاك .

(١) عدة وردية : احمرار ناجم عن تمدد في الاوردة الشعرية .

واستأنف قائلاً :

— قلت أربعة أشهر ، يا مسيو موريستيل . لكنكم زبائن جدد لدى مدام لوند . لا يسعكم أن تعرفوا ، إن لم يخبركم أحد ، أن المسيو بورج قد تغيّب أربعة أشهر كاملة ، غير منقوصة ، في العام الماضي ، وهذا ما ينقص أشهر حضوره الى اثنين وثلاثين ، اي الى عامين وثمانية أشهر .

فهتف المسيو بورج وقد علا صوته من حدة الغضب :

— إنك لتفيظني بحساباتك . فهل الذنب ذنبي إن كنت قد أصبت بنوبة احتقان رئوي ألزمتني الفراش ستة أسابيع ، تلتها ستة أسابيع نقاهة ، وكل ذلك على حساب توقف تجارتي أيها السيد المذكي ؟

— نوبة احتقانك الرئوي ؟ كان بوسعك أن تقول نوبتك فقط ، بل إصابة مخك . فذلك أقرب الى الحقيقة .

أطلق المسيو باليسون تلك الكلمات بنبرة باردة . فرد عليه المسيو بورج مزمجرأ وهو ينض عن مقعده قليلاً ، وقد احمر وجهه فصار قرمزيّاً :

— اصابة مخي ! أنا لم أصب في مخي البتة يا سيد ، وكل الذين يقولون ذلك كاذبون .

ارتفع هنا صوت مدام لوند البعيد قادماً من صدر القاعة :

— اخفضوا أصواتكم ، أيها السادة ، اخفضوا أصواتكم . إنكم تتناسون أين أنتم .

تطلعت الانظار كلها الى المعلمة . لم يكن يظهر منها ، لارتفاع المكتب ،
إلا رأسها الساكن وكثفاها الجباران ، لكن باقعة الأذريون الصفيرة
انتقلت فجأة وبحركة من يديها غير مرئية من اليمين الى اليسار .

فتمتم موريسيتيل قريبا من أذن غريه : إنه لنذير سوء حين
تمديدها الى أزهارها .

وساد الصمت بضع ثوان أيضا . كان النادل يدور حول المائدة بلا
ضجة ليوزع اللحم بينما عاد المسيو بوج الى الجلوس . وبدأت قطرات
من العرق تسير ببطء داخل تجاعيد جبينه لتتلاقى وتسيل من فوق
أنفه الصغير فتجعله يلتهم . أما الفيظ المكظوم فجعل حدقته تسودان
وأضاف إليهما تعبيراً وحشياً وبائساً ، كان من شأنه أن يثير شفقة
قلوب أكثر حساسية من قلوب جيرانه . وحين قدم إليه طبق اللحم ،
غرر شوكتة في ضلعية بوحشية أثارت ابتسام الجميع وأدت الى تبديد
جو الترقب الذي اشاعته كلمات مدام لوند .

وهمس موريسيتيل يقول :

— كنت حاضراً يوم أصيب تلك الإصابة المخيفة . شيء عجيب .
لقد أصر دوماً على أن الإصابة في صدره ، إذ سبب له تيار من الهواء
احتقاناً رئوياً . لكن المسيو باليسون موجود في الصيدلية ومثل هذه
الأمور كما تعلم لا تنطلي عليه . وهو يتحدث الى المسيو بوج من وقت
لآخر في موضوع أصابته بدافع من التشفي ، لأنهم لم يشتروا الأدوية
من عنده . ولن يطول الأمر بذلك الرجل السمين قبل أن تلم به إصابة
أخرى .

فقال غريه وقد ضاق ذرعاً بتلك الروح العدائية : يا له من رجل
مسكين !

فاتسعت عينا موريسيتيل من فرط الدهشة .

— أهذا ما تراه ؟ ذلك أنك لا تعرف بورج حق المعرفة . ولولا خوفه من الدرك لكان لوى عنق باليسون منذ وقت طويل .

التقط السيد بلوندر هذه الكلمات الأخيرة مع أنها قيلت بصوت خفيض ، فلوى فمه على الفور ناحية غريه بحيث لا يكون مسموعاً من قبل بورج الجالس الى يمينه :

— إن شئت أن تجعله سوداوي المزاج ، اسأله كم باع من الدواجن ، العام الماضي في معرض بون — اميليار الكبير . فالامر مضحك الى درجة لا يسعك أن تتخيلها !

قال ذلك ورفع الكأس الى فمه ، كأنما ليخدع المسيو بورج الذي يثق الشك لديه على نحو مفاجيء ، وشرب أربع أو خمس جرعات من الماء بمظهر من البراءة .

وبغطة صاحت مدام لوند بالنادل :

— هيا استعجل : فما أنت ترى أنهم ينتظرون السلطة . ضع وعاء شرائح العجل جانبا ، وهب لإحضار السلطة . استعجل ، يا ولد ، بسرعة أكبر .

فقال موريستيل : إيه ، قلت لك حقا إن الأمور سوف تسوء .

كان واقع الاحساس بالتنجني يولد في نفس المعلمة كل ذلك السخط . فقد تبينت أن دراما كاملة تدور أحداثها على المائدة الكبرى ، من غير أن تتوصل لالتقاط كلمة واحدة . أما تلك الهوة من البغضاء التي تشرف عليها من علياء مكتبها ، فكانت تتمنى أن ترمي بنفسها فيها ، أن تسبر أغوارها ، وتستكشف خباياها ، أن تعرف ، آه لو تعرف ! وفكرت : « لكن ما الذي يقولونه فيما بينهم ؟ ليم سحنة المسيو بورج مقلوبة على ذلك النحو ؟ والمسيو غريه ، ماذا يقول لجيرانه ؟ » كتفت يديها

وأغمضت عينيها بآلم . وقالت في نفسها بنوع من الواساة : « كل ذلك ستعرفه أنجيل يوم الأحد » . « أجل . ولكن هل ستحكيه لي ؟ » وعادت تتألم مجدداً .

وأضاف موريسيتيل وهو يقطع شريحة اللحم في صحنه :

— لقد تنازعت حسبما أرى مع الصغيرة .

سمع غرييه هذه العبارة ، لكنه تردد هنيهة قبل طرح السؤال الذي يفكر فيه من بداية العشاء . انقبض حلقه . فقبل قليل ، وبينما هو يتجول حول كنيسة سان جود أبصر أنجيل . كانت تجري فتتبعها . دخلت المطعم ، فرآها تجتاز القاعة لتتوارى خلف الحاجز الداخلي . لماذا لم تخبره بأنها تعرف مدام لوند ؟

وسأل بعد قليل : ومن تكون الصغيرة تلك ؟

فقال موريسيتيل واللقمة في فمه : ولكنها أنجيل .

وتلا الصمت مجدداً تلك الإجابة .

وبفتة سأله موريسيتيل قائلاً : ان تأتي على شريحتك كلها ؟ فأوماً غرييه أن لا .

— هل ترضى إذن بأن تتخلى لي عنها ؟ شكراً ، شكراً جزيلاً .

ثم اضاف يقول بمزيد من المودة ، وكان تلك الهبة لقطعة من اللحم تستحق جزاء مقابلاً :

— اذا كنت لا تعرف الصغيرة فليس في ذلك ما يثير الدهشة . انها ابنة أخت مدام لوند ونحن ندعوها كذلك .

— كذا ؟

— أجل . ويبدو لي مضحكاً أن لا تكون مطلعاً على ذلك ، ألا ترى ؟
لقد انقضى زمن طويل ونحن على معرفة بها . ونتخاطب بكل يسر أنا وإياها بكلمة : أنت (١) .

فقط بلوندو الكلام قائلاً :

— يبدو لي أن جارك يسرد عليك ترهات . ومن يسمعه يحسبه
أحد ... كبار العشاق . فقال باليسون بسرعة : يحسبه دون جوان .

فاطرق موريستيل . وابتسم بلوندو . أما بورج الذي لم يلتقط
شيئاً من الحديث ، لكنه رأى شيئاً من الخللان في سحنة موريستيل ،
فقد كتم ضحكة وراء فوطته .

فاوضح بلوندو قائلاً وهو يؤدي حركة ، كمن يمسك بزهرة بين
أبهامه والسبابة :

— الجانب الصحيح في كل ذلك أن أنجيل ليست برّية .

كان وجهه مستديراً ومبتهجاً ، تنبسط بشرته لما تحتها من شحم
فتلتمع . أما فمه الذي لا يطبقه بشكل تام أبداً فممتلىء وصغير .
وإذا ما رأى المرء طريقة تلاعبه بناظريه ، أيقن أنه مزهو بحدقتيهما
العسليتين الواسعتين وهدهبهما السميكة . أما دهن الشعر الذي
يستخدمه فتفوح منه رائحة بنفسج ونضج صوف مقززة . وتنتفخ
ملابسه ، وهي من الصرج الأسود ، لأنها تحيط بقامته القصيرة وجسمه
البدين فلا يبدو من شخصه إلا الدوائر .

(١) tu = أنت . حين يتخاطب بها اثنان بدلا من vous = انتم ، فدليل على
المودة ورفع الكلفة — م — .

ثم أضاف بشيء من الصلف : حسب المرء أن يعرف كيف يتحدث إليها .

فقاطعه الميسو باليسون بنبرة ازدراء :

— لكن اسكت . فالمرء يعرف دوماً كيف يتحدث الى فتاة على شاكلتها اذا كان في جيبه مئة فلس .

فرد بلوندو ساخطاً من ذلك الايضاح :

— ما خلا الايام التي تصرف فيها الصيادلة عن وجهها .

فرد عليه باليسون قائلاً :

— اذا كنت تقصدني بكلامك ذاك ، فلي الشرف ان أقول لك إنك تكذب ، يا صغيري بلوندو . وقد عرضت علي بنفسها أن نخرج يوم "الأحد الماضي" ، لكنني ، وأنت تسمعي جيداً ، أنا الذي رفضت .

وهنا اسمع بوج صوته . فقال بانفجار فرح وفضافة :

— هذا غير صحيح . إنها هي . واقسم إنها على حق . فحسب المرء أن ينظر اليك لكي يفهم .

دارت تمتمات حول المائدة . واصفر وجه باليسون وهو ينهض قليلاً ليمد يده من فوق النبتة ويشير باصبعه مضيئاً :

— ولقد رفضت ، لأن النساء اللواتي مسستهنّ يا ميسو بوج ، لا يثرن بي أية رغبة من بعد ، أية رغبة ! واذا كانت لدي من نصيحة أسديها إليك ، وهي نصيحة مجانية يا ميسو بوج ، فهي أن تكون متنبهاً مع النساء . فالذي لونه بلونك ورقبته مثل رقبتك ...

فصاحت مدام لوند بعد ان اصاحت السمع بلا جدوى :

— ايها السادة لا يسمعي ان اسمح بأن تتحدثوا بهذا الصوت العالي .
لقد استبدت بها الغيظ لأنها لم تتمكن حتى من إدراك معنى ذلك
النزاع ، بل أوشكت في لحظة ما أن تسأل عن سبب تلك الجلبة التي
لم يصل إليها منها إلا نوع من الصدى المضطرب . وإذا كان صوتها قد
أوقف الدمدمات ، فقد عجز عن السيطرة على باليسون الذي لم يدر
حتى رأسه ، بل تابع وهو يشير باصبعه الى بروج :

— برقة مثل رقبتك ، يا مسيو بروج ، لو كنت مكانك لتملكني
الخوف .

ومن ثم قعد . وران صمت رهيب فكان ضرباً من التعليق على تلك
الكلمات . وفجأة بدا كأن الموت حل على نحو مباغت فاتخذ مكاناً له
على المائدة الكبرى . وأرخى بروج فكاهة ونظر فيمن حوله ، من غير أن
يقوى على التلطف بحرف واحد ، باحثاً في عيون جيرانه عن فكرة تطمئنه ،
إلا أنهم كانوا يشيخون بوجوههم وبدوا كأن صدورهم ضاقت بمنظر تلك
الاستغاثة .

— وأخيراً !

هتفت مدام لوند بذلك متعجبة وعليها هيئة من أحرز النصر بمشقة .

كانت على استعداد لأن تضحي باصبع من يدها مقابل أن تعرف
ما كان يقوله باليسون . لكنها كبتت بحزن ذلك الاندفاع المفاجيء الذي
كان يدفع بها الى استجواب زبائنهما ، فتحولت بسخطها على رأس
النادل :

— أسرع بالفاكهة يا ولد ! أنت تتباطأ منذ بضعة أيام . وأنا أحذرك :
فانت تعرف أن هذا لا يروق لي .

واستمر الصمت بضع ثوانٍ أخرى لم يسمع خلالها إلا صرير السكاكين وهي تعالج عظام الصلح لتنتزع عنها آخر بقايا الغذاء . ثم أطلق أحد الطاعمين تهيدة فخطر جاره بإبداء ملاحظة جرى التعليق عليها فوراً . ثم استؤنف الكلام .

وتتمم موريس تيل قائلاً لفريه :

— بوسع تلك الفتاة على كل حال أن تتباهى بتأجيل العديد من نيران العداوات على المائدة الكبرى . فالنساء غادرات جداً .

كان الارتباك ما يزال بادياً عليه بسبب الإهانة التي تعرض لها قبل قليل ، فأخذ يواسي نفسه بكلام يطال العموميات ، لكن غريه لم يجب من فوره . كان مكتوف اليدين كأنه يسعى للسيطرة على الانفعال العنيف الذي تسبب في ارتماشهما . وحلّ أخيراً عقدة لسانه فمال ناحية موريس تيل وسأله من غير أن ينظر إليه :

— ألا قل لي ، لقد ذهبت إذن بصحبة الجميع ؟

فاجاب هامساً :

— تقصد بصحبة جميع الذين هنا ؟ أجل ، بالتأكيد . بدءاً من باليسون الذي لم تمد رغبة فيه ، وانتهاء ببلوندو الذي ينبغي أن يخرج معها يوم الأحد . لكن علينا ألا نتكلم بصوت عالٍ جداً . لأتأكد إذا ما أثرت بينهم موضوع الأولويات مجدداً فسوف يمزق بعضهم بعضاً . ثم إن مدام لوند تنظر إلينا شزراً .

— وماذا على المرء أن يفعل من أجل أن يخرج بصحبته ، على نحو ما تقول ، يا ميسيو موريس تيل ؟

— إليك . تتوجه أولاً إلى مدام لوند وتطلب تسجيل اسمك على القائمة ليوم الأحد في التاريخ الذي تحدده . وعليك طبعاً أن تدفع

سلفة ، لكنك لن تأسف عليها أبداً ، فهيّا . حين تراها بادىء الأمر
تحسبها صغيرة بعض الشيء . فهي ذات سيماء يمكن أن تخدمك ، لكنّها
في حقيقة الأمر أشدّ مكرّاً من أيّ فتاة في شانتيليا . وعيناها عينا
ملائكة ، كما قلت لك ، لكن مع العينين ... يبدو أنّ ما أقوله لا يروق
لك . أنا الذي أودّ إسداء خدمة لك .

— شكرّاً ، يا مسيو موريستيل . قلت إنّها ستخرج بصحبة المسيو
بلوندو . فمن هو المسيو بلوندو هذا ؟

— لا ترفع صوتك هكذا . إنه جارك من اليمين .

— وإذا لم أرغب في انتظار مرور المسيو بلوندو ؟ هل تستطيع مدام
لوند تسوية هذه المسألة أيضاً ؟

— لا أدري . فمثل هذه الحال لم تحصل البتّة . إذ ذهب بنفسك
واسأل المعلمة . لكن دعني ! لقد آلمتني وأنت تشدّتي على هذا النحو .

— معذرة ، يا مسيو موريستيل ، فأنا لا أدري أين شرد ذهني .
هل ترغب في نصيبي من الفاكهة ؟ تفضّل خذها . وتعال ننتهي ممّا
من زجاجة نبيدي ، بعد أن أفرغت زجاجتك . ذلك أنّي لا أحسن
بشهية نحو الطعام هذا المساء ، لكن لدي رغبة كبرى في شرب كأس
بصحبتك ، يا مسيو موريستيل !

* * *

- ١١ -

الانتظار . ما من سبيل أمامه غير الخضوع له رغم شعوره بنوع من تأجيج الלהفة في قلبه . فمئذ أسابيع وهو لا يعرف من راحة للبال . فلا يتوقف ولا يتحول عن الدروب القاحلة التي تسير به الرغبة عليها . هناك جوع دائم يفترسه . ومهما تكن معاناته منه كبيرة ، فكل ما لا يمت الى ذلك الجوع بصلة يثير نفوره . ما قيمة الحياة وهمومها الصغيرة إذا ما قورنت بالواقعية الرهيبة لهذا القلق ؟

لم يرقد من أجل أن ينام . لكن من المستحسن ، وقد حلّ الليل ، أن ينتفع بنداوته وسكونه . فبوسعه على الأقل أن يستسلم لعنائه . فالحاجة تعتمل في داخله من أجل أن ينكأ جرحه ، وأن يمزق نفسه ويسمّم ذاته ، ما دام عاجزاً عن الشفاء . ماذا يجني لو سلنى النفس عن داء أنشعب مخالبه في جسده وروحه ؟ من الأجدى ألا يقاومه وليترك البلوى تفعل فعلها حتى أقصى المدى .

ظلّ راقداً مدة تربو على ساعة ، وأجفانه حركى ، وفي رأسه ثقل وعناء ، حتى ظنّ مراراً أنه مفرق في النوم ، لكنّ فكرة ظلت ساهرة في مكان ما من أعماق دماغه ، كلسان لهب عجزت أية نفخة عن أطفائه . كان يميز وسط الظلمة مساحة بيضاء طويلة تبدو أمامه مرتعشة قليلاً ، تليها بقعة سوداء : الجدار والباب . سوف يجتاز يوماً عتبة هذا الباب كي لا يرجع من بعد إلى هذه الغرفة التي سبق أن عانى فيها مرّ العذاب . سيكون ميتاً أم على قيد الحياة ؟ . وإلى أين سيتوجّه إذا كان على قيد الحياة ؟ ترى ماذا سيلقى ؟ خيراً أم شراً مما عرفه حتى الآن ؟ اليس

- ١٢٢ -

مفزعاً أن تبقى على هذا النحو محصوراً داخل معرفة الحاضر لا تدري :
هل سيخفف المستقبل من آلامك أم سيزيد في عذابك ؟ إنّه لشحّ يلتزمه
الزمن حيالنا فيوزّع آلامنا متفرقة على ساعات وأيام . ولا وجود علينا
بها إلاّ بمقدار ، كيلا يقتلنا بسرعة فائقة .

أخذ الغطاء يلهب جسده رغم إحساسه بالهواء البارد على وجهه
وكتفيه . فنهض باحثاً عن قاروة الماء التي تعودت زوجته أن تضعها
كل مساء فوق المنضدة المستديرة في وسط الغرفة ، لكنّ يديه
الملحاحتين لم تقم عليها فوراً . فاضطر الى فتح النافذة قليلاً كي يراها .
كان الجو في الخارج رائقاً . اكتست الغرفة حلة غير مأوفة وسدل
الضيء البارد والقاسي التسرب من فتحة النافذة . وبدا كأنّ الكراسي
الثلاثة حول المنضدة ، والطبقة ، وأرض الغرفة ، كانت غارقة في
سبات يفوق الوصف ، لعمق السكينة المخيمة . في تلك الساعة يطال
الخدر الآلام العظمى ، ويخلد الهمّ للرقاد ، ويفوص المريض في نوع من
الاغماء المستطاب فيستمد قوى يتصدى بها للأوجاع . ويلوذ الهواء
بالصمت . قد لا توجد في قريتي لورج وشانتيليا نفس واحدة لم تدق
لحظة السلام تلك ، بينما هو واقف ، وجسده دبق من الحمى ، مثل
معدّب حرّمت الراحة عليه . طاف خياله على مئات الراقيدين ، شيوخ
تجمّعوا على أنفسهم وسط أسرّتهم ، رجال على ظهورهم وأذرعهم
منبسطة على طول أجسامهم مثل القتلى ، فتيات بأجساد بيضاء ممثلة ،
وأنفاس تشير البهجة ، وعالم كامل بلا حياة منجذب نحو النهار .

ورآها هي أيضاً : كانت مستلقية على سريرها بشكل عرضاني
قليلاً ، ورأسها مرتد الى الخلف ، مشرّعة نحرها للجريمة أو الحب .
أما ذراعها المرفوعتان كجناحين فتتواريان داخل الموجة السوداء
لشعرها الكثيف . كانت نائمة وكانت ميتة . فالدّم أبطأ جريانه في عروقها
وكفّ عن تلوين وجنتيها . لو أنّ أحداً قتلها ذات ليلة لعشروا عليها بكل
تأكيد وهي على هذا النحو ، إلا أنها ستكون عارية وسوف يتدلّى شعرها
وذراعها على الأرض . ولو أنّ أحداً ضمها حتى الاختناق التام ،

لأضحت بذلك الوجه الشاحب والفم المفتر الذي لن يقوى من بعد على الصراخ أبداً .

أما أشد ما يزدريها ! ففي الأول من امس فقط ملأ الحنان شغاف قلبه وهو يفكر في يديها وفي أذنيها الشبيهتين بأذني بنت صغيرة . فتلک الذكريات وهي تعتاده في العزلة كانت تحمل له شيئاً ودياً مواسياً . حتى كانتا هي نفسها كانت تهمس قائلة له : « لا أريد أن تمناني كثيراً » أما الآن وقد بدت الحقيقة جلية . الآن وهو يعرف أنها استسلمت للجميع ولم تتمكن إلا عليه ، فقد بدا له أن قلبه لم يعد يقوى على احتواء كل الحقد الذي أودعته فيه تلك المرأة . كان يبغضها بخاصة ، لأنه كان يشعر أن تولته بها لن يعرف الوهن أبداً . فالكاين الذي يتعلق آخر ، إنما يتخلى في الوقت ذاته عن حريته وإلى الأبد . قد يخبو الشوق ، والعشق قد يذبل تماماً ، لكن يظل في أعماق القلب شيء لا يسع المرء التصرف به على هواه . فهو يعطى لكن لا يؤخذ أبداً . وحين يقع الرجل في الهوى يبيع روحه . وعيشاً يأتي الحقد لينازع الحب مكانه ؛ فهو حتى الممات مملوك لمن أحبه . كان مدركا ذلك . وأنذرته غريزته بالمظهر الغريب الذي ستتخلده أنجيل في نظره بعد عشرة أعوام ، بعد عشرين عاماً ، وبالتبعية التي سيحيها أبداً وعبودية الذكرى . وسوف يظل خاضعاً حتى آخر حياته ، بفكره وقلبه بل وبجواسسه ، لامرأة جعل نفسه هزأة لها ، فسخرت بكل تأكيد منه ومن مظهره .

أما وقد ثارت في نفسه الآن تلك الشائرة على الحب فإن رغبته فيه قد ازدادت . وتمور أحياناً بداخله فورات من الغضب المبالغت وهو يتذكر ما الحق به من عذاب ، فتمزق صدره الرغبة في إلحاق الأذى بدوره وتحقيق النصر . أما أروع العنف ! وأي تشفى سيفعم قلبه حين يطأطئ حتى الأرض رأس تلك التي اذلته !

بدا له أن نسغ قوة جديدة بدأ يسري منساباً في ذراعيه حتى بنائه .
أما يداه فكانتا مثل كائنين حيين لهما حياتهما الخاصة ، فتنقبضان
وتنتفحان وتتقابلان باستمرار ، سعيدتين متحفزتين للعمل .

ولفرط ما فكر فيها حصلت لديه واقعة غريبة . لقد نسي صورة
وجهها طوال ساعات كاملة . تذكر بكل يقين شكل أنفها وشفثيها
اللماعتين المنقسمتين كفلقتي ثمرة ، لكنه لم يتوصل لأن يتمثل ذلك
الوجه كوجه نابض بالحياة ، وجه يستطيع التعرف عليه . وبغته
تتجلى لناظريه بوضوح يصيبه بالدهول . ها هي أمامه وشعرها يداعب
غرتها ، وذلك التمبر الغامض الكامن في أعماق العينين السوداوين حيث
يعتقد أنه يرى شيئاً من التحدي والتوسل في آن معاً . كانت تنهد
وتهز رأسها . وبدأ أن كل حركة تصدر عنها تزيدها فتنة أخاذة ،
حتى كأن جمالها السائر نحو الكمال يسمو ارتقاء أكثر فأكثر حتى
لينتشي من مرآه . فيغمض أجفانه ليحتفظ لنفسه على نحو أفضل
بتلك الصورة العذبة والرهيبة . وأبدت شيئاً من الحيرة حياله ما بين
المكر والقسوة ثم تلاشت بغته . لقد كف عن رؤيتها وحاول عبثاً وهو
يردد اسمها ويعتصر رأسه بيديه أن يعيد صورة السراب . لكن كل
شيء قد انتهى . ولم يعد لها من وجود هناك .

وفي غمرة الغم الذي اجتاحه ، دار عدة دورات حول المنضدة ثم
هوى راکعاً على ركبتيه . لأنها قد تتحنن فتشفق عليه لو رآته على
تلك الحال . هل من داع لهذا العذاب الطويل ؟ وهل ينحو به ذلك منحى
أفضل ؟ منحى أفضل ! لم يكن كل ما فيه إلا عنفاً ونهماً . وهوى تحت
عبء أساه فانطرح بطوله أرضاً ما بين السرير والمنضدة . لم لا يلفظ
أنفاسه ؟ كم يلزم من الأسى لقتل إنسان ، لكي يتصدع القلب وينفطر ؟
تحدث قبل ذلك بساعات الى مدام لوند على نحو ما أشاروا عليه .
فاخذت قطعتي الخمسة فرنكات اللتين ناولها إياهما ووعدت بتسوية
الأمر مع انجيل . عندئذ غمرته بهجة عارمة ، بهجة مشينة قادته من

شارع الى شارع حتى حافة الماء ، وتذكر أنه في معرض هديانه ، رقد هناك على الضفة مصفياً لرفيره اللاهث في سكينه الليل .

مكث هناك زهاء نصف ساعة ، بل ربما أكثر . فعلى أي نحو انقلبت بهجته الى قنوط ؟ فيها هو يعود الى بيته أكثر كآبة وأكثر غمماً مما مضى . وكيف يمسي مصيره مرتبطاً على هذا النحو المفاجيء بمصير امرأة التقى بها في الشارع ؟ واذا كان يزدري تلك المرأة فلم لا يهرب منها ؟ واذا كانت الرغبة وحدها هي التي تربطه بها فلم لا يفتبط لما قامت به الحياة من تنسيق للأشياء بيسر وسهولة ؟

نهض فشرب كأساً من الماء . غرفة زوجته مفتوحة . فالباب مسند بكرسي يحول دون خبطه ، فيتحرك تيار هواء خفيف يشعر المرء بوجوده مثل مرور شخص غير منظور . انتابته فضولية مباغتة . توجه نحو الباب ونظر الى زوجته النائمة . تلك المخلوقة الشقية ترزح تحت عبء إعياء يسحقها سحقاً ويقيد جسدها في سكون مطلق . فهي مستلقية على جانبها وذراع تحت جسمها والاخرى تتدلى خارج السرير ، فتبدو مثل ساقط في قلب هوة . ويضيء نور خافت ذلك الوجه الذي ولتى منه الشباب هارباً . لقد استقرت ملامح الكبر الى الأبد في هذا الجبين وهذين الخدين الاجوفين .

وزادت التجاعيد القاهرة بروز القسماط الدميعة حدة : فمرارة في الشفتين ، وفي الأجفان إرهاق . نظر اليها وفكر : « لم أهوها البتة » ، وكأنما شعرت بتلك النظرة القاسية الظالمة تقع عليها ، فباشرت في نومها حركة من يدها وتنفست بعشق أكبر .

لم يتزحزح . فمتعة فريدة أبقت في مكانه ، متعة في أن يتأمل تلك المرأة ، ويقيس المسافة التي تفصله عنها . مسافة ما فتئت تتسع من عام الى عام . ليس فيها ما يبعث في نفسه البهجة ، لا وجهها ولا جسدها ولا حبها . كانت خاضعة له ، لكنه كان يفضل على هذا الخضوع

استخفاف أنجيل وقسوتها . كانت تحبه من غير أن تساورها الظنون بشأن خياناته ، فلا يشير ذلك الجهل في نفسه ، وتلك البساطة ، غير الازدراء . ويتساءل كل مرة ، وقد تملكه نفس العجب ، كيف أمكن له أن يتزوجها . فالحياة هنا أيضا قد تلاعبت به . كانت هذه المرأة جميلة بلا شك . ولا يزال يتذكر ذلك الوجه النقي من قبل أن تجتاحه الهموم ، والجسد الندي الأبيض وقد حطمه العمل .

كان ينبغي أن ينذره شيء ما بأنها ستفقد بسرعة ملامحها الجذابة . وأن ستة أعوام ليس غير ستجعلها دمية ومملة . لقد غزا الشيب جانبا بأكمله من شعرها . إنه ليراه يلتصق حتى في ضوء القمر الباهت التماح النصال . وقارن في ذهنه ذلك الشعر الكثيب بالجذائل المبشرة فوق مخدة أنجيل في كل اتجاه ، مثل السنة لهيب طويلة سوداء . عندئذ استولى عليه إحساس بالهول من الحياة التي يحياها ، وتقفز من نفسه ومن الدنيا حتى انسحب إلى غرفته وخبا وجهه بيديه . وتراءى له في تلك اللحظة أنه يلمس بيده إلى حد ما حد حزنه الأقصى : بوسعه أن يتألم عن بعد ، لكن بدا مستحيلا أن يتألم أكثر .

وبعد أن فكر لحظة ارتدى ملابسه وخرج . دقت الساعة لتوها معلنة الثانية . أي مسلك يسلكه الآن ؟ أكان بوسعه أن يخمن بالأمس أنه مع فجر اليوم الطالع سيركض في الشوارع على هذا النحو ؟ وما سر هذه السكينة الكبرى التي حلت بفتة على قلبه ؟ فالحركة ، والهواء الندي الذي يلامس خديه ، جعلاه سعيدا بعض السعادة . وعاد إليه تعلقه بالحياة مع القرار الذي اتخذته . أليست هذه المرأة هي السبب في كل ما يعاينيه من ألم ؟ هاهو ماض لرؤيتها . وهي لا تريد أن يموت ، أليس كذلك ؟ سوف يوضح لها والحال هذه أنها إذا كانت لا تحبه فسوف يلقي بنفسه في الماء ، سيرتمي في السوميانت الذي يمر قريبا جداً من المطعم . ذلك أنه متوجه ليراها هناك في غرفتها . سيرن الجرس فيفتحون له . لا يمكن للأمور أن تسير على غير ذلك النحو . لكن لا بد له من أن يعيش أياماً من الغم كيما يتوصل إلى ادراك ذلك . ليست مخاطبة أنجيل على

الطريق وتقديم مال إليها وضرب موعد معها بالأمر اليسير . فما رصدت هذا ولا أعدته له الحياة ، تلك القوة الالهية المستترة . ثم إنه يعرف الآن ماذا سيحصل . سيدخل الى غرفة أنجيل في هذه الليلة ذاتها ، بل بعد خمس دقائق ، وسوف يتحدث إليها فيمسك بذراعيها ويرغمها على الاستماع إليه .

ركض بسرعة من غير جلبة . وقاده بالتدريج شارع فأخر نحو الأدنى باتجاه الساحة الصغيرة والنهر . وتولد لديه الاحساس بأن الشوارع تجري معه وتحمله وتتناقله فيما بينها مثلما يتناقل اللاعبون الكرة . أما الشارع الذي يسلكه الآن فينزل بانحدار أشد من الشوارع الأخرى . كان قبل خمس ساعات قد سلكه صاعداً ، محني الظهر ينوء بحمل رهيب . أما الآن فكل خطوة من خطاه تبدو كأنها تقذف به الى أمام على الرغم منه تقريبا لترمي به في الساحة التي بلغها أخيراً .

في البداية لم يتعرف شيئاً ، لا أشجار الدلب ولا المقعد الحجري الذي جلس فوقه ولا المنزل الذي كان في انتظاره . فكل شيء يفقد بلا لون وسط الضوء الغريب الذي ينشره القمر . ورقة الشجرة ذات لون شاحب كلون ملاط الجدار . ويبدو أردواز السطح مثل حجارة الساحة بلون أبيض . أما الظل فهو في الأماكن التي يحجبها ، على درجة من العمق والسواد حتى ليمحو معالم ما يغطيه محواً تاماً . ومن يرى ذلك يظن أن تلك الساحة لم تر البتة من حياة مرت فيها . وأن صمت الأشياء ذاك وسكينتها لم يفكر صفوهما من شيء ولو مرة واحدة .

نظر الى المنزل . يعلو فيه طابقان وتبدو واجهته عادية جداً : نوافذ المطعم الطويلة في الطابق الأرضي يحجبها ستار حديدي ومن ثم ست نوافذ موزعة بين الطابقين الأول والثاني . المصاريح كلها مغلقة . كانت أنجيل وراء إحدى هذه النوافذ . قيل لغيره إنها تنام في الطابق الأول وفي زاوية المنزل الشمالية . إنها راقدة على سريرها ، والنفس بصدرها يعلو ويهبط ، من غير أن يخطر ببالها أن نفسها إياه تسبب في عذاب كائن

بشري . وهي تتقلب في نومها دون شك لتزيح ذراعها من تحت جنبها ، ورأسها مثقل بالأحلام ، لكن هذه الحركات التي يمكن أن تسلب لب الشقي ، يبقيا الليل الشحيح لنفسه . لا جدوى في أن يكون جسدها جميلا وعنقها أبيض مستديراً وأن يشع كتفها التماعا . بل يمكن في ذات الوقت أن تكون دميعة أو أن لا يكون لها من وجود قط طوال تلك السمات التي لايقع فيها النور على وجهها .

عبر الساحة راكضاً . فهذه الأفكار أخرجته عن طوره . وفجأة استشاط غضبا من الظلمة والجدران وكل ما يختلس منه الحب . وأوشك في لحظة من اللحظات أن يرن الجرس لكنه عدل عن ذلك على الفور . فالطابق الأول ليس عاليا . ويشكل ستار نافذة المطعم الحديدي حافة عرضها عدة سنتيمترات . فوضع قدمه عليها ، ويده ملصقة بالصفحة المعدنية ، بينما تسمى الأخرى لتمسك بزاوية الباب ، لكن توازنه اختل واضطر الى أن يقفز الى الوداء كيلا يسقط .

جعله التحرق والانفعال يلهث قليلا . فأجال نظره على واجهة الدار ، ذلك الحائط العاري الذي لا يهيم أية مسكة لأصابعه . راودته مجدداً فكرة رن الجرس ليستبعدها كما في المرة الأولى . وبعد تفكير دام لحظات التقط حجراً فرمى به النافذة . ولكن سرعان ما تبين له ما في هذا العمل من تهور . فعليه ألا يحذر أنجيل من قدومه بل عليه أن يباغتتها . وخشي أن يكون قد أفسد فرصة النجاح في مسعاه فتراجع ليختبئ تحت الأشجار عازماً على أن لا يتحرك اذا النافذة انفتحت .

لكن وقع الحجر على النافذة كان أضعف بكثير من أن يوقظ أنجيل من سباتها ، اذ مرت عدة دقائق والنافذة لم تفتح . فتوفر لديه الوقت للتفكير فيما يريد القيام به . وبداله الطابق الأول ، من مكان وقوفه ، قريبا جداً الى الأرض حتى ليسع ولداً أن يتسلق اليه . والمهم أن يجد أسهل طريقة لتحقيق ذلك الصعود . وما تلك بمسألة قوة بل مسألة

اناة . أما القوة فلديه منها رصيد كاف . وسوف يستخدمه حين يتوجب عليه فتح المصراعين من الخارج .

عاد الى الستار الحديدي ورفع ذراعيه ليقبس المسافة التي تفصله عن الهدف . لقد لامس تقريبا ، وهو باسط يديه مطيلا أصابعه الى أقصى حد ممكن ، أعلى النافذة الطويلة . بقيت ثلاثة سنتمترات فقط أو أربعة تحول دون وقوفه في وضع مجد ، لأنه إذا ما وثب ليلبغ الحافة العلوية للنافذة ، فسوف يفقد معها القوة اللازمة للتمسك بها ، فاندفاعه الوثبة ستجعله يفلت يديه . وحاول مع ذلك لكن المحاولة باءت للمرة الثانية بالافخاق .

عندئذ أحس بألم يعتصر قلبه وثار فيه بفتة غضب جامع القى به أرضا . إذا لم يبلغ تلك النافذة فمن الأفضل له أن يموت ، من الأفضل له أن يشجّ رأسه فوق تلك الحجارة وأن تنزف منه حياته البائسة مع دمه النازف . وفجأة جاءت نفرة أقامته فوراً . أ يكون هناك على بعد بضعة امتار من أنجيل ولا يقوى على تسلق جدار وفتح نافذة لينعم بلمسها ، باختطافها ؟ وشعر كأن موجة من الفيض والعنف تسري في كيانه . فهرع مجدداً نحو أشجار الدلب ليختبئ مثل وحش جريح مهتاج ، وليشاور نفسه .

برز بعد لحظة الى النور مندفعاً نحو البيت كأنه خارج لمنازلة عدو . فأدركه بثلاث وثبات وأوشك أن ينجح . فالقوة التي تأتينا لا ندرى من أين ، حين لا تكون قوتنا كافية وحدها ، هذه القوة بدت وقد رفعتة عن الأرض لتعلقه على الستار الحديدي حتى إن صدره كله تجاوز الحافة التي ما استطاع أن يطالها قبل قليل . ولو أنه كان رافعاً ذراعيه ، لاستطاعت يده بكل يسر أن تمسك بالمصراعين اللذين ينوي أن يفتحهما ، لكن حضور البديهة خانته . وظل هناك ثانيتين أو ثلاثاً فاتحاً ذراعيه منفرج الساقين ، وراحته ملصقتان بالحجر ، ثابتاً في مكانه بفعل عزيمة وحدها ، شبيها بأحد تلك الطيور الليلية الكبيرة التي يسحرها جدار

شاحب جداً ويجتذبها رغماً عنها ، فتلتصق به ، كأنها تريد أن تنتشي
ببريق ذلك البياض المقيت . ثم انفصل فجأة وسقط على الأرض .

عندئذ غشيه غضب مسعور أعماه فشرع يشب من غير تحفز فيتمسك
كيفما اتفق بذلك الجدار الغادر الخالي إلا من نتوءات فائقة الارتفاع
أو الانخفاض ، خادشاً بأظافيره الحديد والحجر . وتوصل عدة مرات
لأن يبقى واقفاً على الحافة الدنيا للنافذة الكبرى ، من غير أن يتجاوز
نجاحه ذلك الحد . وعبثاً تنبسط ذراعه يمنة ويسرة للعثور على ملمس
خشن أو نتوء ما أو أي شيء يعيق سقوطه . لكن كل شيء بدا محسوباً
سلفاً من قبل مهندس فطن ، ليكون الاخفاق مصير أية محاولة من
هذا القبيل .

قعد على الأرض وتنهّد . لكن لا بد أن يكون بلوغ الطابق الأول لمنزل
ما أمراً يسيراً . أيمن الا يتحقق له ذلك مع كل ما في قبضتيه من شدة
وبأس ؟ وخطرت بباله فكرة البحث عن شيء يصلح موطئاً لقدمه . كأن
يكون واحداً من تلك المكعبات الحجرية الكبيرة التي وقمت عليها عينه
صباحاً ، في شارع ما يزال في طور البناء ، لكنه لم يشأ مفادرة الساحة
الصغيرة . اذ تراءى له أن مصيره يتقرر هناك وأنه سيبدد كل أمل له
بالنجاح اذا ما ابتعد عن ذلك المنزل . سيدخل غرفة الطابق الأول قبل
بزوغ الفجر وإلا فلا ، لا ، لن يشعر أبداً من بعد بتلك العزيمة الجنونية
التي حملته وألقت به على الستار الحديدي . فمع إشراقة النهار تعود
الوساوس والشكوك . لا بد له من استغلال تلك الهلوسة التي يعيش
فيها منذ ساعات والاستفادة من الواقع الخارق بأنه موجود هناك وأنه
يسعى الى دخول ذلك المنزل مثل أحد الجناة . وما هم ما سيكون رأيهم
فيهم ؟ فهو يستشعر أن وجوده كله قد تجمع في تلك الدقائق التي تمر
بسرعة قصوى . وبالبهجة التي ستغمره وهو يرتمي داخل تلك الغرفة
التي تنام فيها أنجيل ! هل ستجرؤ حينئذ على مقاومتها ، أو الكذب
عليه ، أو خداعه بالكلام على نحو ما فعلت في الطريق ؟

قام بعد أن استراح قليلا ، فشدّ بيديه إطار الباب وكأنه يعزم على سحب ذلك الجزء من المنزل باتجاهه وركز قدمه اليسرى في الزاوية التي تشكلها الفرجة فوق الأرض ببضعة سنتيمترات . حسب بادیء الأمر أنه لن يتماسك . فالإحساس بأن الجدار يصده فيما هو يصارعه أوشك أن يرغمه على التخلي . فالدم يتدفق تحت أظفاره ويلهب بشرته لكن مرفقيه كانا يرتفعان ببطء . وتجمعت كل القوة المخزنة داخل جسمه الكبير في معصميه اللذين كانا يختلجان من شدة الجهد . ولم يعد بوسعها الآن أن يخفق ، لأن المسألة ستكون حياته ، فالسقوط إلى الوراء يعني الموت المحقق . رفع قدمه اليسرى وركز اليمنى في وضعية مماثلة . في رأسه طنين . وكل أوداج رقبته تنبض وتنتفخ . حين ارتفع مرفقاه حتى مستوى رأسه ، اعتمد بقدميه على الإطار ورفع صدره إلى أعلى ما باستطاعته . فتجاوز جبينه أعلى الباب ، ثم أنفه ثم فمه . ارتد برأسه إلى الخلف واسند ذقنه إلى الإفريز الحجري الرقيق ، فسمحت له نقطة الارتكاز الجديدة هذه أن يتصرف بيده اليسرى مدة ثانية ، كانت كافية للمساك بزاوية الإطار العليا . وأرغمه ذلك على أن يميل بجسده جانبا حتى لا يختل توازنه واتخذ وضعا منحرفا فتقوست قدماه متلامستين على الباب . ورجع رأسه إلى الارتفاع الذي كان عليه قبل هذا الوضع الجديد . أحس باليأس يدب فيه وكاد يتخلى عن الطريقة كلها . فهناك شيء يعانده ويقف في وجهه . لكنه أدرك في ذات الوقت أن الكفة قد ترجع لصالحه إذا ما اختار جانب المخاطرة فنقل بحركة مباغتة يده اليمنى إلى جانب اليسرى . ابتعدت قدماه عن الاطار دفعة واحدة وتأرجع لحظة متملقا بأصابعه وهو أقرب إلى الأرض أكثر مما كان منذ بداية المحاولة .

غرق رأسه في لجة من الدوار والعياء . وبدأت القوة تسرب شيئا فشيئا من يديه اللتين طفقتا ترتعشان بفعل ثقل رهيب . بعد عشر ثوان أو خمس عشرة سوف ترخيان فريستهما ، تلك الحافة الحجرية التي مازالتا تتمسكان بها . فكر في نفسه : « إذا ما تراخيت وسقطت

فلن أراها . » وقام بما يشبه وثبة من غير تحفز فرفع ركبتيه وضرب بهما مصراع الباب . بدأ قلبه يخفق بشدة متزايدة فيسمع خفقانه كوقع خطى كائن غير منظور ، ماشيا ، وأقدامه في صدره . توتر جسده كله . لوى مرفقيه وركز قدميه عند جانبي الإطار . كان التعب يشد عضلات أطرافه وكأنه يريد أن يفسخه . أما صدره الذي شالته حركة المرفقين فارتفع مجدداً . وفجأة ندت عنه صيحة وهو يضغط بكل قواه على رأس قدميه ، ورفع يديه معاً فالصقهما على الجدار فوق الباب وانتصب . كانت راحتاه تنزفان وقد كشطتهما الحجارة . واحس بالخشب يصر عند رأس حذائه فأدرك أنه سينزلق . لكنه قام بجهد آخر وثنى قدميه على نحو بات معه محمولا على رؤوس أصابع قدميه فقط ، وكان رأس خنجر قد انغرس في لحمه . وكان الألم على درجة من الشدة انتزعت منه تأوهة . وفي نفس اللحظة تقريبا ضربت قدماه الباب ، بعد ترك موقعهما ، لكنه لم يسقط : لقد تشبثت أصابعه بقضبان النافذة .

تأرجح بضع لحظات ، مرضوض الجسم ، والدم يسيل على معصميه . فكانت فترة العطالة تلك ، رغم كل شيء ، فترة راحة ، اتاحت له المجال لاستجماع قواه . صار في وسعه الآن ، وقد بلغ النافذة ، وشدت يداه على القضبان بقوة ، أن يستخدم ساقيه على نحو ما يشاء دون أن يخشى فقدان توازنه . فتسلق الباب خلال دقيقة مستعينا بقدميه وركبتيه ، واستطاع أن يقف على حافة الباب ويده على ساعدة النافذة . لكن تلك ليست نافذة أنجيل . زفر قليلاً ، وأرخى يده اليسرى ليسير فوق الحافة العلوية للنافذة الكبرى الواقعة في الطابق الأرضي . كان الفاصل بين نوافذ الطابق الأول يقارب المترين . بسط ذراعيه إلى أقصى ما يستطيع وبده اليمنى متمسكة بساعدة النافذة التي غادرها ، واليسرى تلمس الجدار . كانت الحافة التي بدأت تسلكها قدماه ذات عرض يقل قليلاً عن عرض حذائه ، لكنه كاف لحمله . تقدم على ذلك النحو بشكل غير ملموس وجسمه لاصق بالحجر ،

حابساً أنفاسه ، كافأً عن التفكير . أخيراً أحس بأصابعه تلامس ساعدة النافذة فكشمها . من ثم فتح يده اليمنى التي انضمت الى يده اليسرى .

أما الآن وكشفه تلاصق شق المصراعين ، فقد حاول أن يتغلب على آخر عقبة تعترضه وذلك بأن يجعل المزلاج الحديدي الصغير يلتوي . لكن الخشب هو الذي استجاب . فبعد دفعتين فثلاث أكثر فأكثر عنفاً ، تشقق أحد المصراعين بقطعة دوت وسط الصمت كصوت رشقة سلاح ناري .

هوى الى داخل المنزل وتدحرج على أرض الغرفة . كان الدم يدندن داخل رأسه . زفر لحظة ثم قام ، ذاهلاً من نجاحه ، متجاسراً بعض الشيء على تنقيل نظرة في الغرفة ، فجال على أثاثها الذي تخيله مرات ومرات . ونفذت أنى الغرفة بدخوله أولى تباشير الفجر فاضاءت الجدران القذرة والسجادة المهترئة . عندئذ رأى أن الغرفة فارغة والسرير لم يمس .

الدقيقة الحاسمة مرت . وقف قدر ذلك الرجل حائراً لحظة ، وهو لا يدري ماذا يفعل به ، ملقياً به لإرادته العمياء ، لكن الطريق عاد فانشق مجدداً في وجه هذا الرجل . وامتدت يد لا تعرف الوهن فدفعت به ليسلكه ، وشارفت هلوسة الليل على نهايتها .

كان مستقياً على السرير غارقاً في رائحة الجسد الغائب . ميز الموقع الذي تضع فيه رأسها فتلمسه بخده وشفتيه وعينييه ، ومر براحتيه الداميتين على الأغطية والمخدة ، العابقة بعطر عب منه حتى انتشى .

راحت خطى تتحرك في الرواق جيئة وذهاباً . وفتح باب ثم أغلق . وارتفع صوت منادياً : « ما هذا ؟ من هناك ؟ » وتجاسر بفعل الصمت فصرخ : « النجدة ! » .

أصغى إليه دونما إدراك ، مثلما يصغي المرء لصوت يخرج من سبات عميق . واقترب أخيراً فأصبح لدى الباب . هذه مدام لوند تجأ بالصراخ . فالخوف أخذ بخناقها ، إلا أن صراخها يعلو أكثر فأكثر . وفي إحدى المرات نادى أنجيل .

جلس بعد هنيهة فانتزع عن المخدة غطاءها ودسه في جيب سترته . ثم قام فمشى بضع خطى داخل الغرفة . كانت عيناه تنتقلان من شيء إلى آخر ، من السرير الحديدي الذي ناء بحمله فسمع له صرير ، إلى المرأة الصغيرة التي ردت إليه صورة وجهه الزائغ . رأى الجدران وقد بقعتها الرطوبة ، وكرسيتين من القش قرب الباب ، والطاولة التي لم يعد لها جرجار . سوف يحمل معه ذكرى هذه الغرفة التي قادته الحياة إليها من أجل أن تغدر به ، مثلما سيحمل قطعة البياض تلك والتي كان شعر أنجيل يتبعثر خصلاً وضفائر فوقها .

وحينما كان يتخطى ساعدة النافذة سمع الباب يندقّ دقات عديدة . بعدئذ فتح الباب ، لكنه كان قد انزلق من النافذة ليسقط متكوماً على نفسه عند أسفل الجدار . وسمع وهو في الساحة نداءات مدام لوند التي دخلت الغرفة الفارغة لتكتشف سرير أنجيل دامياً . ولم يكن عليها إلا أن تنحني من النافذة لكي تراه . انتصب رغم ما أحس به من ألم أصابه في خصرته إثر سقوطه ، ومشى بمحاذاة المنزل حتى الشارع المار عند زاويته . فتوقف هناك لالتقاط أنفاسه . وعمد في غمرة ما انتابه من جزع إلى كم فمه بوجه المخدة الذي سرقه ، لكي يكتم جلبة لهائه الاجش . دوخه العطر فأغمض عينيه . وتبدى أمامه عالم كامل من الذكريات . فقد تراكم في حياته الكثير الكثير من الذكريات بدءاً باللحظة التي رأى فيها أنجيل . وهي أشياء صغيرة يمكنها إذا أخذت مداها أن تكون ذات حجم كاف لسنين طويلة من اللوعة والعذاب .

وبغثة ثاب إلى رشده ففتح عينيه ، كانت مدام لوند وراء النافذة توالي الصراخ واستطاع أن يرى من مكان وقوفه النور الأصفر الصادر

عن مصباح جيب تحمله بيدها . أعاد قطعة البياض الى جيبه وزرر سترته كأنه عازم على الهرب . أما الصوت الذي خنقه الرعب وضخمه فكان يعلو ويخفت تارة فأخرى ناطقا بكلمات رهيبة : « أنجيل ليست هنا ! لقد ذبحوها ! الدم في كل مكان ! سمعت رجلا هنا ! هو الذي فعلها » .

نظر بحيرة يمنة فيسرة . على يمينه المدينة والصرخات تلك ستوقظها وعلى يساره السوميانت والبرية ، لكن توجهه يسارا يعرضه للوقوع تحت نظر مدام لوند فتعرفه . فتوجه راكضا ناحية اليمين . هذه نافذة أضيئت وأصوات عدة بدأت تتجاوب من بيت لآخر ، لكن أحدا لما يخرج . اذ لا بد من مرور دقائق كاملة حتى يستجمع المرء شجاعته . مضى محاذيا للجدران . في ركبتيه وهن وعلى صدره ثقل يضغط عليه فيحطمه بقبضة لا تعرف التراخي . أما قلبه فيخفق مثل قلب رجل مسعور يرتمي على جدران زنزانه سعيا للأفلات . اذ لم يسبق أن عرف مثل هذا الخوف البتة . فجريمة القتل التي يتهمونه بها ، وموت أنجيل الذي قد يلصق به ، أليس محتملا ، أليس صحيحا ؟ ترى هل كان يفعل غير لك لو أنه عثر على الصبية في سريرها ؟ نعم سيحزن رقيبها ليثار منها ، ليسكتها ، ويداه ستكونان ، مثلما هما الآن ، حارتين ثقيلتين لرجيتين .

قطع الشارع وانزلق نحو اليسار في زقاق معتم لا تبلغه صرخات مدام لوند . لكنه لم يجرؤ على التوقف . وبعد أن جرجر نفسه قرابة عشرين مترا وصل الى شارع يعرفه معرفة جيدة لانه تبع فيه أنجيل مرة . وهو يؤدي الى النهر . لو كان الضوء قويا لتمكن لوند ان تراه ، لكن الظلمة مازالت كافية للمخاطرة ، فاستجمع قواه ثم استأنف جريه . كانت البيوت وطيدة تصطف متتالية على جانب واحد من الشارع ، اما الجانب الاخر فيرتفع من أوله الى اخره حائط مستودع الفحم . فعدا بمحاذاة ذلك الحائط . ثم وقف مترددا عند طرف

الشارع . فالصرخات عادت لتسمع بكل وضوح . نظر الى اليسار فلم
ير شيئا وانعطف بفتة الى اليمين .

كان الطريق عريضا ومرصوفا بحجارة صلبة ففدا لوقع خطاه
عليها رنين . فبلغ التلعة التي تفصله عن النهر وطفق يركض فوق
العشب ، تحت أشجار الدلب التي تسير السوميات في مسيرته
الواهنة عبر المدينة . فهو حينما سيبلغ آخر واحدة من تلك الاشجار
القصيرة يكون قد نجا . اذ يبدأ هناك في الواقع حرج كثيف الاشجار
يتيح له ان يختبئ .

بدأت السماء تنكشف شيئا فشيئا ، واخل ضياء باهت شاحب
يبرز من قلب الظلام آخر منازل المدينة ، التي تحد الطريق من جانبه
الأيمن ، وتلاه نزول الندى . قد تكون الساعة الرابعة . مد يديه
المتهبتين للقطرات الصغيرة الباردة وهي تلتصق في الجو الرمادي . اما
جسده المنهك فلم يعد يحس بالتعب . فالأطراف ، حين تتجاوز مرحلة
معيقة من الإرهاق ، تكف عن الشعور بالعناء وتستجيب تلقائيا للإرادة
التي لا تعود تملك قوة توجيه الأوامر إليها . فلو دعاه الأمر لأن يمشي
ساعة أخرى ، أو أكثر من ساعة ، لفعل .

تعثرت عند طرف الحرج بغصن يابس ، فتهاوى على الأرض المفطاة
بالأوراق ، ثم ما لبث أن راح يغط في سبات عميق .



- ١٢ -

استيقظ حوالي الساعة العاشرة وخرج من مخبئه . فاستأنف سيره على الطريق ، لكن وجهته الآن تلك البيوت التي هرب منها في الليلة المنصرمة . وجفت ملابسه في الريح وهي تهب . لم يجرؤ على استخدام يديه مخافة أن يعود فينكأ جروحه ، ومضى مشعث الشعر وجسده ملتهب بحمى جعلت وجهه متورداً . لم تعد تشغله إلا فكرة واحدة : العثور على أنجيل . فهو قد بدأ ولا بد أن ينتهي . فهذه الليلة المفزعة التي عانى فيها كل أصناف العذاب معاً ، لا يمكن أن تكون كابوساً خالياً من أي معنى . لا ريب في أن لها ثمناً ، ولا بد أن توجد ساعة في مكان ما من الزمن ، أو دقيقة تعوّضانها .

مرّ أشخاص على مقربة منه ، فلم يرههم ولم يردّ عليهم سلامهم . سيذهب إلى المطعم للسؤال عن أنجيل . وسيضرب عرض الحائط بكل ما سيقولونه عن شكله ويديه المسودتين من الدماء ، وبكل ما قد يشيره من ظنون . لا يمكنهم أن يلقوا القبض عليه لأنّ شعره مشعث ويديه مليئتان بالخدوش . لكن ماذا لو أنّ شيئاً ما قد وقع لأنجيل ، ماذا لو أنّ أحداً قد قتلها ليلاً ؟ لو أنّها قد ماتت ؟

لو أنّها قد ماتت ؟ أرغمته هذه الفكرة على التوقف حتى كأنّ يداً غير منظورة وجهت على نحو مباغت ضربة إلى صدره . كزّر السؤال بصوت عال ، من غير هلع ولا انفعال ، اتّما بذهول من يتلفظ بكلمات غريبة يصعب عليه إدراك معناها . استأنف السير بسرعة أكبر . لا يمكن لها أن تموت من قبل أن يحتويها بين ذراعيه . فهي ملكا له . لقد وهبته

إياها الإرادة الخفية التي تنظم مصائرنا ، تلك القوة التي تسود العالم
وهبته هذه المرأة . فهي له لاته أحبها ولاته تعذب من أجلها .

حين بلغ جادة السوميانت أسرع خطواته ليفلت من انتباه فريق من
خمسة نساء أو ست كن يتبادلن الأحاديث تحت أشجار الدلب . وها قد
بدأ يلوح الساحة التي خفق قلبه لدى مرآها . كانت أمامه امرأة تسير
في نفس الاتجاه . فتجاوزها ، لكنّها جرت وراءه ووضعت يدها على
ذراعه .

سألته قائلة : « ما بك ؟ » .

إنتها أنجيل .

وعادت تقول : « ما بك ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ » .

أزاحت بظاھر يدها خصلة شعر تدلّت على جبينها . واتسعت
عينها وهما تلتصقان . نظر إليها لحظة ثم قبض على ذراعها بحركة
متشنّجة . وسألها :

— أين قضيت الليل ؟ — أجابت :

— أعاروني غرفة في المصيفة . أنت الذي دخلت إلى بيتنا إذن مساء
أمس ؟ لا ينبغي في هذه الحال أن تظهر بعد . عد إلى بيتك بسرعة .
أتركني .

— كلا .

— لنمض . لا ينبغي أن نظلّ هنا . أنت ترى أن الناس يمرّون .

— لن ادعك تذهبين . تعالي معي .

— أرخ ذراعي على الأقل . ما دمت أنا التي جئت بنفسك أكلتك ...
كنت مررت بقربي دون أن تراني .

— أخبريني لماذا جئت تكلميني .

— لا أستطيع أن أقول ذلك لك إذا لم تتركني . إليك كيف يسير
الناس باتجاهنا وينظرون إلينا .

لا ينبغي أن نظل هنا .

— سأذهب إلى أي مكان تريدونه لكنني لن أتركك .

أدارت ظهرها للمطعم وبدأت تسير باتجاه الحرج . وتدلّى ذراعها
الأسير على جانبها .

سألته : « ألا تخشى أن أستفيث ؟ » .

— كلا ، لا أخشى ذلك . — قالت بعد هنيهة :

— اصغ الي ، ينبغي أن تعود إلى بيتك وتعيد ترتيب هندامك .
ثيابك كلها ممزقة . ستساور الناس الظنون وهم يروننا على
هذه الحال .

— هل تذهبين معي ؟

— كلا ، لا يسعني أن أقطع المدينة بصحبتك .

— ولم لا ؟ — توسلت إليه :

— أتركني . هيا أتركني . سأقول لك كل ذلك فيما بعد .

— أين أمضيت الليل ؟

- لقد قلت لك : في المصطفة .
- هذا ليس صحيحاً . بصحبة من كنت ؟
- لا ترفع صوتك كثيراً . ها هم الناس يمرّون .
- سكت هنيهة ، ثم استأنف يقول بصوت خافت من غير أن ينظر إليها:
- أخبريني فقط مع من كنت .
- لم اكن مع أحد .
- اعرف أنك استسلمت هنا للجميع . مع من كنت ؟ مع المسيو بلونديو ؟
- فجأة أجهشت بالبكاء وحاولت أن تتملّص منه ، الا أنه كان ممسكاً بها جيداً . وأضاف :
- كنت مع أحدهم . فمن هو ؟ لعله المسيو فروجورج ؟
- بقي السؤال بدون رد . سارا هنيهة في صمت . ثم سألها مجدداً وهو يهزّ يدها :
- قللي . اكان هو ؟
- لا هو ولا غيره . كنت وحدي . لم أشأ أن انام عند ملام لوند . كنت واثقة من انها ستأتي لتكلمني بشأن المسيو بلونديو .
- أعطيت وعداً بالخروج معه يوم الأحد .
- لم أعد بشيء . بل على العكس ، قلت إنني لن أخرج .

— أنت تكذّبين . قال لي بنفسه إنّ الاتفاق حاصل .

— هذا ليس صحيحاً . لكن دعني . حسبي ما أنا فيه من شقاء .
قلت لك أرخني . أنت توجعني .

شدّها بكل قواه وأرغمها على ترك الطريق وتسلق التلعة . قال :

— ما دمت تخافين أن يرانا الناس ، فسوف نسير على الحافة .

أما النبرة التي قيلت بها تلك الكلمات ، والنظرة التي صحبتها فقد
أفزعت الفتاة . وأحسّت بفتة أنّ التلعة التي تسلّقها مرغمة شكّلت
فاصلاً بينها وبين الحياة . وعبرت ذهنها مجدداً فكرة الصراخ «النجدة»
لكنّ غريبه بدا كأنه قرأ تلك النية في عينيها ، لآته سلط نظره عليها
وقال لها :

— أنا هنا الأقوى . إذا ما استغثت ارتميت وإياك في الماء وغرقنا .

فقالته وهي تضبط انفعالها :

— يا للأسف . فانا لا أفكر في الاستغاثة .

— لماذا تقولين : يا للأسف ؟

— لأنك في حالة . . . من يرك يحسبك مريضاً .

إنّتها المرّة الوحيدة التي تراه فيها وهو يضحك ، منذ أن تعرفت
به . لكنّه استرجع على الفور هيئته الجدية .

— أراهن على أنّ ذلك يشقّ عليك .

— أجل .

فقال وهو يهزها من يدها :

— ولكن لا . فذلك لا يسبب لك أيّ غم ، لكنك تخافيني . فعبثاً
تقولين في نفسك إنه قد يمرّ أحدهم على الطريق بين لحظة وأخرى .
أنت تعلمين بأنني إذا ما رغبت في أن نفرق فلدي أربعة أضعاف الوقت
اللازم لذلك . لذا تقولين إنّ الأمر يحزنك . لكن احتفظي بحزنك هذا
لآخرين غيري .

أحسّت بحرارة لهائه تلامس بشرتها فأشاحت بوجهها قليلاً .
قال بغتة :

— قلبي لي إنتي أثير اشمئزازك .

فقالت وهي ترتعد :

— كلا ، كلا . بل على العكس . وإذا كنت تركت مدام لوند ، فمن
أجلك أنت . كنت راغبة أن أوضع لك .

فكرّر بقوة :

— قلبي لي إنتي أثير فيك الاشمئزاز . آمرك بذلك .

— إلا أنني أقول لك إن هذا غير صحيح .

فدفعها بعنف من غير أن يرخي يدها وجعلها تسقط على ركبتيها :

— قلبي ذلك إن كنت متمسكة بالحياة .

فتأوّهت مذعورة :

— أجل ، أجل .

- قولي : أنت تثير اشمئزازي .

فقلت بصوت لاهث :

- أجل ، طيب ، انت ... تثير اشمئزازي . اتركني .

حاولت بذراعيها الأخرى أن تطال إحدى الأشجار الصغيرة التي تحدّ
السوميات والتي تشاهد رؤوسها من على الطريق بازغة من
فوق التلعة .

سألها :

- ماذا تريدین ان تفعلی ؟

- أنت ترى اني أريد النهوض .

كان واقفا حيا لها ، ملتهب الوجه ، يحجب عنها السماء بهيكله
السامق وكثفيه العملاقين . تركها لحظة تتخبط من غير أن يرخي ذراعها
التي كانت تلتف وتدور داخل قبضته . توصلت الى رفع ركة ووضع
إحدى قدميها على الأرض ، وسعت لتلتقي عيناها بعيني الرجل كأنها
تريد التوصل إليه ليسمح لها بالاستفادة من ذلك النصر . فدفع بها
على نحو مفاجيء فسقطت على الحافة . وانتزعت منها المباغلة والرعب
صرخة .

أمرها وهو ينحني فوقها :

- كفى .

لكن لم يعد بوسعها أن تمالك نفسها : قلبها يخفق بسرعة فائقة .
وانطلق من حلقها على الرغم منها نداء رهيب ، جئير حيوان وقع في
الفخ ولم يعد له من ملاذ غير صرخات الألم واليأس . مشهد الهلع هذا

جعل غيره يخرج عن طوره . فصفعها بادىء الامر ثم أرحى معصمها
ليأخذ رأسها بيديه ويدق به الأرض عدة مرات . فأخذت تلهث وتولول
ايضاً . فوضع يده على فمها ، فعضت يده . فانتابته عندها نشوة من
نوع خاص ، نشوة من الغيظ والألم . ادار فيما حوله نظرات امرىء
سقط في البحر . وطوّح بذراعيه تطويحات كبرى فلامس أغصان
الاشجار من حوله وفجأة أمسك بواحد منها ، فسعى وهو يتشبث به
على نحو مسعور لأن يقتلعه . انثنى مرة فائتين ثم تمزق بقطعة هائلة ،
كاشفاً عن شرح كبير أبيض في الجذع نجم عن اقتلاعه .

نهضت انجيل في تلك الاثناء وأخذت تركض على حافة السوميانت .
وعندها اضحت على بعد عشرين متراً من غيره أرادت ان تصعد التلّة ،
لكنها كانت في ذلك المكان على ارتفاع مترين من سطح النهر وبميل
شديد جداً . فخلدتها القوة . فعادت الى الدرب الصغير واستأنفت
عليه الجري .

لحق بها في بضع ثوان وأمسك بها من رأسها . التف شعر تلك
الشقية الثقيل الأسود منساباً على ذراع الرجل . ظل ساكناً لحظة
وهو يحس على ظاهر يده بنداة تلك الضفائر ووزنها ، ثم انقبضت
أصابعه . صرخت وحاولت أن تستدير تجاهه ، لكنه رمى بفصنه جانباً ،
ليقبض على الجسد المنتفض بكلتا يديه ، فيهوى معه على الأرض . كانت
الفتاة تلهث وقد قهرها الإعياء والرعب . وفجأة شعر ، وهو في غمرة
غيظ مسعور أفقده كل سيطرة على حركاته ، بدفقة من الحنان ، وهو
ينظر الى بياض ذلك الجسد المهتز بلهث شاق فتمتم باسم أنجيل ،
لكنها نظرت إليه من بين خصل الشعر المبعثرة فوق وجهها وعادوت
الصراخ ، إذ أخرجها عن طورها الظن بأن هذا الرجل سيقفلها . وأمكن
لها أن ترى السخط يعود الى عينيه كموجة بدلت لونهما ، فأغمضت
أجفانها . قبض على عنقها ليخنق تلك الصرخات في حلقها .

ردد بنبرة توسل وسخط :

— اسكتني (١) .

وفيما كانت تحاول التملص وتصرخ ، ضربها على صدرها ووجهها ضربات عديدة . وبدأ له على نحو مباغت أن النهر والأشجار والهواء تضطرب كلها من حوله ، وأن السماء امتلأت بهدير لا ينقطع . فأخذت القبضات تعلق وتنزل من غير أن يسيطر عليها . وأضحى همه الوحيد إسكات تلك الصرخات البشعة المنطلقة من ذلك الفم ، وذلك الصوت الحاد الذي اخترق دماغه كخنجر وأخذ يمزفه . وتملكه رعب مفاجيء ، تملكه رعب ضحيته ذاتها . لم يعد يعرف كيف يهرب من نفسه ومن جريمته ، وكيف يمنع يديه من الضرب ، وكيف يسكت تلك الصرخات . لم تعد عينا الفتاة تنظران إليه ، لقد اضطرب نظرهما وانصرفتا جاهدتين تفادياً لمنظر الوجه المنحني فوقها ، فبدت في وضعها ذاك أشبه بعمياء أو بمعتوهة ، بل بدت أشبه بمشهد القتيلة على نحو ما تخيله في الليلة الفائتة .

وبقعة ، أخذ الفصن الملقى جانباً ، وكان في متناول يده . ورفع سلاحه وهو في سورة غضبه ليضرب أنجيل على وجهها ، على خديها ، على جبهتها إلى أن سكنت وحجب الدم عن عيني ذلك المنتصر تلك القسمات التي أحباها حتى العبادة .

* * *

١ — الخطاب هنا للمرة الوحيدة بصيغة المفرد .

- ١٣ -

هبت الريح طوال النهار وجالت بالأوراق الجافة ما بين جانب الطريق الرئيسة وجانب آخر أو بمشرتها فوق صفحة السوميانت الساكنة . كان العشب الكثيف على ضفة النهر يلتمع تحت أشعة الشمس وينبسط راقدا حتى كأن أجسادا منهكة استلقت فوقه لتعب من الندوة المتصاعدة من الأرض والماء . ونشرت الشمس ضياء ثابتا . فما من غصن إلا وألقى على الأرض خطأ واضح المعالم ومتقلبا من غير أن تقوى الريح على محوه . ليس هناك ما يضاهي أوائل أيام الخريف هذه عذوبة . فالهواء المضطرب بتقلبات جبارة يبدو بحرا غير منظور تتحطم أمواجه بين الأشجار ، بينما الشمس المهيمنة على ذلك الصخب والاضطراب تمنح أصغر زهرة ظلا تجعله يدور عند قدمها حتى المساء . وينجم عن هذا الهدوء وذلك الجموح انطباع تمتزج القوة فيه بعذوبة تعجز لغة الانسان عن أدائها . فهي راحة لا تواني فيها واستثارة لا تلي أي ارهاق . فالدم يسري أكثر جذلا وانطلاقا ، وينشف القلب بتلك الحياة التي تجعله يخفق . في تلك السويحات المعطاءة تحمل الطبيعة السعادة ، لأولئك الذين لا يعرفونها ، مصحوبة بأريج الغابات وزقزقة الطيور ، وأناشيد الأوراق وكل الأشياء النابضة بالطفولة .

أمضى النهار بطوله يمشي في المنطقة بمحاذاة النهر . وأبصره اناس فتابعوه بنظرهم فخاف وأسرع في سيره ، لكنه كان يلتقي على الدوام بوجوه أخرى تستدير ناحيته ببطء ، وعيون تدقق فيه النظر بنفس التمعن ونفس الدهشة لما في هندامه من فوضى . ورجع قبيل المساء الى المكان الذي ولى منه هاربا قبل بضع ساعات . إن السكينة التي

حلت الآن في قلبه تفند ما تقوله ذاكرته . فهو لم يعد يعاني أي قلق أو تعب ، بل يستمتع بالهواء المنعش وتلك الساعة التي يخفت فيها النور . حمل في رأسه أوقت طويل جداً ذكرى تلك الصرخات ، وذلك السكون المبالغ ، الذي أحس فجأة بعجزه عن تصديقه . إن ذلك لا يشبه باقي حياته في شيء حتى يكون صحيحاً ، ولم يتعرف على نفسه في تلك الحركات التي ظلت تمر على التوالي أمام عينيه . أو قص أحد عليه قصة المراك الشنيع قرب النهر ، اضحك من غير شك . فسار على حافة السوميانت ليتحقق من عدم وجود أي شيء ، وفتش عن المكان ليبرهن لنفسه على أنه غير موجود .

وعثر عليه : هذه الأغصان المكسرة ، رآها في كابوسه . أيمن أن يكون قد لاحظ في سورة جنونه ذلك القدر من الأشياء الصغيرة والأزهار والأشجار والانكاسات ؟ هناك شيء ما ظل في داخله متيقظاً ، بينما غرق كل ما تبقى من كيانه في شبه حلم فظيع تمت فيه أعمال ما كان يحسبها ممكنة ، أعمال إجرام وشهوة . ولم يعد أمامه مجال للشك . وتبدت له الحقيقة بكاملها . لقد قتل تلك المرأة وأقبل أناس فحملوها ، أناس تجمعوا حولها ، فتأملوا القتيلة وشناعة ذلك الوجه المهشم ، ثم القوا على رأس الشقية قطعة ملابس أو كيساً أو أي شيء آخر ، لأنه روعهم . وماذا لو لم تمت ؟ لم يعد بوسعه أن يتذكر هل ظلت تتنفس أم لا ، كل ما يتذكره أنه شاهد بغتة بعد عدة دقائق ذلك الجرح الذي أحدثه في وجهها وأنه أصيب بالهلع فولى هارباً .

جري بمحاذاة النهر ثم ارتقى التلعة واستدار رغماً عنه ليراها أيضاً . كانت هناك . ساكنة ، مستلقية على الدرب مبعثرة الشعر . عندئذ استأنف الجري ليلتفت أبعد بقليل ، لكنه لم يعد بوسعه أن يراها من هناك . وعرف في تلك اللحظة بالذات أعظم راحة في حياته : لم يقع أي شيء مطلقاً ما دام لا يلدح شيئاً على الحافة . واستأنف الجري فدخل الحرج بما استطاعته ساقاه من سرعة وخوفاً من أن يراوده الاغراء فيرجع إلى الدرب المسفير ليراها .

أما الآن وهو يقف كرة أخرى قرب النهر ، في مكان حدوث تلك الأشياء ، الآن والدرب الصغير فارغ ، فقد بدا كل شيء له واقعياً جداً حتى لكان جسد المرأة الشابة ملقى عند قدميه . مشى بضع خطى يمنية ويسرة وهو لا يدري لم يلبث هناك بدلا من أن يهرب . فالجلوس عند تلك الحافة يده بنشوة ، لا يجد في نفسه القدرة على التخلي عنها فوراً . ولو ابتعد لرجع لتوه . ولم يخلف عنفه من ندامة لديه . فقبل قليل كان يلاحقه الخوف مماجنته يداه ، ومع ذلك لم يكن ليصدق الأمر . أما ووعيه الآن يزوده بالدليل على جريمته فقد هذا باله . كان يمعن النظر في العشب ويعكف عليه كأنه يريد العثور على آثار الجسد الذي أدماه . ويخفق قلبه لا خوفا وإنما بفعل وجد جديد فلا يكبح جماحه ، وبفعل الغرابة الخارقة لكل ما يسبغ على ذلك المكان طابعه الخاص . رائحة النهر ، البرودة المتصاعدة من التربة ، وذلك الخفقان الدائم الأغصان من فوق رأسه . كان يكرر بصوت خفيض : « في هذا المكان » . وأغمض عينيه مرة واثنين وتنهى بعمق . ثم انتزع قبضة عشب ودسها في جيبه . وفجأة ارتدى على الأرض باندفاع مباغت ، واستلقى في نفس المكان الذي كان مستلقيا فيه قبل بضع ساعات . وسمع كما في الصباح صوت تدفق الماء عند الضفة ، وتمتة الأوراق . وألوا فتح عينيه لرأى السوميانت من فوقه ، لكنه لم يكن يتبين ضفته الأخرى ولم يكن أمامه سوى الأعشاب التي تتقلب عليها الأنوار والظلال كما في الغابة وبعدها النهر عاليا ومستقيما كالجدار .

كان . ووجهه إلى الأرض ، يلتزم بسكينة تتبعثر فيها كل قواه شيئا فشيئا . وتهيا له أنه يفقد وعيه بذاته . وأن عنصراً غير منظور يبسط سيطرته عليه ، إنه انبثاق غامض يتوارد من كل حذب وصوب ، ومن تلك النباتات التي نفذت رائحتها إلى أعماقه . واحس في رأسه الذي أمسى خفيفا ، بشيء من الدهول جعل أفكاره مهوشة . وتلاشت ذراعاه وساقاه وجسده كله ، وتمازجت مع كل ما كان يتنفس ويضج من حوله . وأغرق ، من غير أن يقدر على النوم ، في بحران من الانشاده حتى نسيت روحه بعض الوقت حقيقة وجوده .

بلفته جلبة حديث جعلته يشوب الى رشده . كان بعض الناس على الطريق يتكلمون بحماسة . توقفوا مرة فائتين وبدوا وهم يتداولون في وجوب العودة الى الورا أو متابعة دروبهم . وإذا كانوا لم يكفوا عن رفع أصواتهم فإنه لم يستطع أن يفقه شيئاً مما قالوه . والكلمة الوحيدة التي استطاع التقاطها كانت « أبعد قليلاً » وتلك الكلمة أزعجته . كان أولئك الرجال يبحثون عنه . وليس عليهم لاكتشافه إلا الانحناء قليلاً من فوق التلعة التي تحجبه عن عيونهم . لذا عبرت ذهنه فكرة الهرب ثم استبعدتها فوراً . فأقل نامة قد تفضح أمره . والأنسب له أن ينتظر ويتغلب على الرعب الذي جعل دمه كله محتبساً في صدره . إن مضوا في سبيلهم فحيراً يفعلون ، وإن انحدروا الى الضفة ألقى بنفسه في الماء .

لقد ابتعدوا . وحملت نسمة اليه أصواتهم وهي تزداد حدة بفعل المناقشة . وبعد لحظات زحف باتجاه معاكس للاتجاه الذي سلكه حتى الآن فزاد المسافة التي تفصله عنهم قرابة عشرين أو ثلاثين متراً . استراح برهة هناك ثم نهض فتسلق التلعة ليستلقي بعدئذ في الخندق الصغير الموازي للطريق . كان بوسعهم أن يراهم وهو يعتمد على مرفقيه . إنهم ثلاثة يمشون ببطء لكنهم امسوا على مسافة لا بأس بها ، واحد منهم قصير هزيل يشبه المسيو بانسو ، وهو الذي كان يشد زميليه من ذراعيهما ليرغمهما على التوقف ، فيقوم بعدئذ بحركات واسعة من عكازه .

انتظر حتى ابتعدوا بضع خطى أخرى ، ونهض وقد خاف أن يعودوا على أعقابهم فقطع الطريق بكل استعجال . كان الموقع الذي اختاره ملائماً جداً ، فقد ظهر أمامه زقاق في الجانب الآخر من الطريق ، فسلكه وجهد ألا يعدو فمضى على الرصيف صعداً باتجاه المدينة .

غاب النهار بسرعة . فهذا الجزء من لورج غير مضاء ليلاً . ولن تيسر الرؤية فيه بعد ربع ساعة . فأوحى اليه الحذر بالكموث هنا والانتظار ، لكن كيف السبيل الى الانتظار اذا كانت اطرافه لا تستجيب

لاية راحة ؟ . كان يتنقل على الرغم منه بين جانب من الزقاق وجانب آخر ، وكأن أمنه قائم على بقاءه في حالة حركة دائمة . وكأن الخطر سيحيق به متى ركن الى السكون .

ولما كان في حالة يستحيل عليه معها التفكير بشيء أو القيام بمحاكمة عقلانية مع نفسه ، فقد واصل تجوالاً كان من شأنه أن يجعله موضع ظنون المارة وشكوكهم أولاً أن الزقاق مقفر . فحركانه كانت تنم على هلع مكبوت بمشقة كبيرة وأمسى ظاهراً عجزه عن السيطرة على نفسه إذ كان يديم التلفت من حوله ويتوقف على نحو مباغت ويقوم بكل مامن شأنه إثارة الشكوك . وبلغ وهو على تلك الحال شارعاً أعرض بقليل لكن الحركة فيه قليلة مثلما كانت عليه في الزقاق الذي تركه لتوه . فليس فيه شجرة واحدة والعشب ينمو بين الحجارة على قارعة الطريق . تذكر كيف رأى هذا الشارع عند الفجر فمنعه مظهره المشؤوم من أن يسلكه . لكنه أمسى الآن يناديه . كان يمضي بين تلك البيوت الفقيرة ، بنوافذها المفلقة . فيركض على مرأى منها وقد استولى عليه هلع لم يعد يقوى معه على اختيار أفعاله ، فبات يديره كيفما شاء ، كان وقع خطاه يرافقه ويتزايد على ما يبدو مثلما تكبر باستمرار جلبه صادرة عن الجند . هل ينعطف عند نهاية الشارع يمناً أم يسرة ؟ إنه لا يدري . فساقاه سوف تحملانه حيشماً تشاءان وحيشماً تقدران . لم يعد له سوى الملاذ الأخير الذي يلجأ اليه اليأس باعتماده على إلهام المصادفة المفاجيء . والأهم لديه أن يجري رغم ضربات قلبه الرهيبة التي أمست ترعزع أركان صدره ، ورغم الدوار الذي يشغل رأسه ويشوش الرؤية أمام عينيه . كان يصدر عن حلقه المتشنج لهات أجش . وسمع صوت نافذة تفتح بعيداً من ورائه فركض بسرعة أكبر . أما حين بلغ نهاية الشارع فقد انعطف يمناً ، وما ذلك إلا لأن التوجه يساراً سيرغمه على الصعود ولم يعد يحس لديه القدرة على ذلك ، ورأى شخصاً يقف على مسافة قريبة منه فبدأ كأنه في انتظاره .

إنه رجل يرتدي معطفاً أسود اللون ويعتمد على عكاز ، وينسدل أمام عينيه حرف قبعة عريضة ليزيد في جعله أشبه بعاجز مُسنّ حصل على إذن بالخروج من المصح للقيام بجولة في المدينة . ذلك أنه كان أحذب بفعل السنين وكان في تفصيلة ملابسه ما ينم على مظهر عسكري .

أمعن كل منهما النظر في الآخر هنيهة وقارعة الطريق تفصل ما بينهما . فالحارب توقف في مكانه جامداً . كان يتخيل وجود من يلاحقه ، لكنه لم يحسب أن من الممكن ملاقاته وأنه سيجد أحداً في انتظاره . ماذا يمكن لهذا الرجل أن يفعل لو أنه واصل الجري ؟ لاشك في أنه أضعف من أن يلجأ الى ملاحقته ، لكن في مقدوره أن يصيح فيدب الصوت في المدينة . من هو ؟ هل هو على علم بشيء ؟ ولم لا يتحرك ؟

حطم التعب اضلاعه . فرفع يديه الى خاصرتيه وجهد لیسحب نفساً طويلاً . كانت كل حركة من حركاته موضع مراقبة العجوز الذي لم يتح أي مجال للكشف عما يمكن أن يكون لديه من نيات . ومرت عدة ثوان وسط صمت مطبق . كان الشارع ضيقاً وطويلاً . يصعد يسارا فيتلوى عبر المدينة ، وينزل يمينا بانحدار سريع صوب النهر . وهذات الريح حتى كأنها لم تهب منذ الصباح إلا لتطرد النهار خارج ذلك الجزء من الأرض . فالضياء يخفت من دقيقة الى دقيقة . وما من نامة تأتي لتحطم جدار الصمت . وبدت الحياة معلقة بسبب السكون التام الذي شمل كل شيء . شعر غريه بنوع من السحر يستولي عليه شيئاً فشيئاً فيسلبه حريته . مرت ثانيتان أو ثلاث ، ما في ذلك من ريب ، لكن غريه ناء بحمل هذا الوقت القصير جداً والذي كان يسحقه . فالساعات المحدودات التي عاشها منذ الفجر ولدت في نفسه انطباعاً غريباً على انها حياة داخل حياته ، حياة فظيعة ، ملأى بالعذاب والدماء ، لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة ، ويستحيل قياسها استناداً لمواصفاتها البشرية ، لكنها متكاملة بذاتها، ومنغرسه في حياته هذه كموقع الحلم في ساعات اليوم الاربع والعشرين ، فلا تماثل حياته هذه في شيء بأكثر مما تماثل رؤى الليل ما نُؤديه في نهارنا من حركات . وهي توشك أن تنتهي ، فهو

سيستيقظ ليسترجع الهموم المألوفة من سأم في الصباح وضجر في المساء . لكن ماذا لو استيقظ بيدين دامتتين ليجد أن كل تلك الفظاعة كانت حقيقية ؟ أيمن للكابوس أن يتحول بنفسه الى حقيقة ليمتزج بالاشياء اليومية ؟

صاح على نحو مباغت :

— لم تنظر إليّ ؟

— أنا لا أبغي منك شيئاً .

كان الصوت الذي أجابه رقيقاً واهناً ، كان صوتاً بطيئاً لا يقوى على نطق سليم للكلام .

قال غريه والهلع يستوطن قلبه :

— إن كنت تحسب أنك تخيفني ... وسكت ثم اضاف :

— ... بمكازك . أيها الواشي الهرم !

فهزّ العجوز رأسه وقد احمر غضباً وقال متلجلجاً :

— أنا واش ؟ أنا لا أعرفك . إنني أتجول في شارعنا . أكون إذاً

قد فعلت فعلة سيئة حتى أمسيت تخاف الناس ؟

فكرّر غريه :

— أخاف !

أخذ ينتفض غيظاً . وبدرت منه الحركة العنيفة لرجل ينزع عنه ملابسه وهبط عن الرصيف فتقدم خطوة وسأل :

— ماذا ، ائخففنى واءء مءلك ؟

ورأى العءوز بهز رأسه ءانية وءء ففرءاه؁ فوءب علفه بفءة وانءزع عكازه . وءءءرء الاثنان على قارعة الشارع؁ سقءء السفءارة لءكشف عن رأس ذف شعر أشفب واقف . أمسك المءءءف بالسفءارة وءاول أن فءسها فف فم العءوز الءف كان فصرء بصوء واهن . وأءس بقوة ءارقة ءءعمه؁ فءفسرف فف اطرافه كالءهرباء؁ مءلفقة وءءلى . ءشنءء ساقا العءوز بعء عءة مءاولاء للءملص؁ فالذراعان المقفءان كءءا عن المقاءمة . وشل الذعر ءاك العءسء الءف ءهاوى مءل شءفرة ءافة . الوءه وءءه بقف مءءفظاً ببضع إماراء ءفاة؁ لكنفا ءفاة ءءء ءءى ءءءا الاقصف بفعل ءشفة رهفة من الموء؁ فاعءصمء لا فف المفنن اللءفن أمسء نفظرءهما فارغة ومسءقرة؁ بل فف ءركاء فائسة للفكن وهما فنفءءان ففنبءقان على الفء ءالانبفة . انهاء المكاز المرفوعة باءفء الأمر على صءر الصءفة؁ لءءءول بعنف مسعور على العءفن والصءفن ءءى نفر الءم .

انءصب فءاة وءء رأى اءطوط السوء ءءرف وءءلاقف فوف ءلك العءلء المصفر . ما من صرءة انءرءه بأن ءفاة واءء هاربة؁ وان الموء أقبل وسط ءلبة؁ بلا صءف؁ لوفع ضرباء العكاز . عافن وهو واقف فلهء ءاك الرءل القصفر الءف أءهر علفه بمصا . بعء هنفهة ابتعء لبضع ءطف ونظر ففما ءوله . إنها لمعءزة الا فكون اءء ءء رآه او سمعه . مازاء فءء ءقبض على المكاز الءف اسءءءمها فرمى بها ثم ءقفطها لفلقف بها فف فءءة كهرفز كانت هناك . وسمعهاء ءرءطم مراء عءة بالءءران ءءرففة . إنها ءطفو الآن على صفءة مفاه ءءرة مءوءهة نءو السومففاءء الءف سفلفها وفءملها بعفءاً ءءاً ءءى إنها لن ءرفف ابءاً من بعء .

هبط الشارع من ءفر أن فسءفر . باءء الظلمة ءامة ءقرفبا . اضفءء نافءة ثم أءرف وهءه فف لءظة مروره ءءءها ءاماف . وعءءها عاء

بركض . كان الانحدار شديداً حتى تعثر وكاد يقع . فخطاه تتلاحق رغما عنه . كان يعلم أنه بركض بسرعة فائقة ويحدث ضجة كبرى . ما عساه يفعل حين يصل الى الجادة التي تسير النهر ؟ فيها قد بدأ يلوح أشجار الزيزفون ترسم بسوادها على سماء لا لون لها . إنه يمضي الآن محاذياً لجدار ابيض فيضئ بياضه الشارع في ذلك المكان . تذكر وهو بركض أنه يعرفه ، فعجل في بلوغ طرفه ليفلت من ذلك الضوء المنتشر الذي كان يبلغ عنه . فبعد ثانيه يصل الى الباب الشبكي للمركم (١) . وبعد أن يصل الى هناك سيتوقف ليلتقط أنفاسه ولينتقي الطريق الذي سيسلكه ، لأن النهر لا يبعد سوى أمتار قليلة ولا يجد غميره في نفسه القدرة على السير في تلك الطريق مجدداً ، والهروب بمحاذاة تلك الضفة التي ترعبه ذكراها . وبرزت من قلب الفوضى التي غرق فيها عقله فكرة ظلت واضحة : إن ضفاف السوميات والدرب والخرج وكل المنطقة التي تألم فيها صباحاً أمست محظورة عليه الآن بما فيها الشارع الذي نزله لتوه مسرعاً . ويستحيل عليه الرجوع من حيث أتى مهما بدا له ما في الفكرة من جاذبية وتأثير . عليه أن يمضي قدماً ، حاملاً طاعون جريمته بعيداً . نحو شوارع لم تره البتة منذ بدء كابوسه .

كانت ساقاه ترتعدان بشدة حتى أخذ يشك في قدرتهما على حمله حتى التجويف الكبير المظلم الناشئ عن باب المركم وسط بياض الجدار . حاول أن يخفف من سرعته فيمشي ، لكن تبديل السرعة يتطلب منه جهداً لم يعد بوسعه أن يبذله . فالإنسان المنهك لا يكف عن الجري لكي يسير سيرا ، بل يمضي في جريه قدماً الى أن ينهار . بدا له أن صدره يتفجر ، لمعجزه عن احتواء قلب جن جنونه لينهال على جنباته ضرباً . أما لهاته فيشبهه اهيباً يملؤه وينهشه .

(١) مركم : مكان يضع فيه التجار الحطب أو النجم المعد للبيع . - م -

تساءل على حين غرة : « مم أنا خائف ؟ » الواقع أن الشارع خال وليس ما يعكز الصمت سوى جلبة وقع خطاه فوق الحجارة . فتحير الفزع داخل نفسه في ظرف ثانية واحدة . ظهر في تلك اللحظة ، خيال رجل عند طرف الرصيف حيث يشكل الجدار زاوية مع الجادة . وكان هو الآخر يحمل بيده عكازا . وحين سمع صوت ركض في اتجاهه توقف جامداً وصاح : « يا هذا ! » لكن ندائه لم يلق جوابا . أضف الى ذلك الجلبة التي سكنت . انتظر الرجل هنيهة ثم قفل راجعا وهو يحرص على السير في وسط الشارع . وحين تجاوز باب المرمم الشبكي لم يعد يجرؤ على الذهاب أبعد ، فتوقف . وتأمل الظلمة من حوله فتوجس خيفة . ثم انتابه الفزع فهبط بسرعة زائدة نحو الجادة . رمى غريبه بنفسه في باحة مرمم الفحم . ولو لم تكن الشبكة الحديدية مفتوحة لكان انتهى أمر ذلك الشقي : كان سيسلم نفسه للمتجول الخائف ، رافعا عقيرته بالصياح : « امسكوا القاتل » ، كي يضع حداً لمحتته ، اما وهو يرقد الآن على الأرض وراء الشبكة ، فقد بدأ جسده بالاسترخاء وأخذ العرق الذي بلل أطرافه ، يجف في هواء المساء المنعش . ورأى ورأسه مرتد الى الخلف وعيناه مغمضتان ، سماء سوداء تدور فيها الكواكب .

حين فتح اجفانه كان قد مضى ربع ساعة وحل الليل . وشيئا فشيئا أخرجته بعض الأصوات من خدره . كانت صادرة حسبما يدل وقعها ، من البناء الذي يحتل ابعـد زاوية في الباحة . وفهم أن البحث يدور حول اضاءة فانوس الباب . أعاقه التعب عن التهوض ، لكنه استطاع أن يجز نفسه بجانب كدسة كبيرة من الحطب فدار حولها وركد وراءها . ولم يعد من شعور يهزه بعد أن غاص في حالة من البلادة . وسمع كمن هو غارق في حلم وقع خطى تقطع الباحة قطعاً مائلا . وبلغت الباب فتوقفت . عندئذ طرق سمعه وقع حذاء ذي صفائح معدنية يتسلق أحد النصبين اللذين يحدان المدخل . أطلق أحدهم صفيرا . وبعد هنيهة قفز من فوق النصب الى الأرض وعبرت الخطى الباحة مجدداً . وفتتح باب ثم أعيد اغلاقه .

ظل ينتظر . لم يكن ضوء الفانوس يصل اليه بسبب أكداس الحطب لكنه كان يتبينه من فوق رأسه . كانت رائحة التراب والخشب تعبق ندية ثقيلة من حوله فيعجب منها بنهم حتى كأنها سترد إليه قواه . عادت كفتاه تنزفان ثانية . وكان يشعر بذلك كلما أطبق أصابعه على راحتيه . لكنه لم يعد يفكر بالنهوض والهرب . لقد منححه الشعور بأنه بلغ بشكل ما حدود شقائه ، طمأنينة جديدة . لأنهم ولو اكتشفوه وراء كدسة الحطب وأوقفوه فلن يقدّر له أن يعاني أبداً أكثر مما عاناه اليوم . لقد طفح به الكيل . وكان وسط الصمت لا يميز إلاّ بمشقة صوت أنفاسه المنتظم . هذا الصوت الذي لعله كان يعدّ آخر ما تبقي أمامه من دقائق الحرية .

سمع دقات ساعة آتية من بعيد . لم يدر في خلدّه بادئ الأمر أن يعرف الوقت . ولم يول انتباهاً إلاّ للدقات الخمس الأخيرة ، لكن لا بد أن تكون الساعة السابعة فالليل أظلم . كانت قطع الفحم أمامه تتلقى ضوء الفانوس فتبرق كالزجاج . تأملها بعينين مثقلتين ثم أرخى رأسه بعد أن رفعه لحظة ، ونام وخده على الأرض .

دام رقاده حتى منتصف الليل . أيقظه شيء يتحرك بمناد جيئة وذهاباً على مقربة من وجهه حتى ليكاد يلامسه . أحس وسط الأحلام المشوشة التي راودت خياله بيد كبيرة تريد أن تتكمش بشعره فيحاول أن يتفادى ملمسها بحركات متلوية تهز كتفيه . لم يكن في الحقيقة سوى واحد من تلك العجوزان اللماعة المتخمة التي كانها ولدت آنياً من قلب الفحم فتنام نهاراً وتسرح ليلاً في مركمها وكأنها في روضة مسحورة عابقة بالروائح القوية وملأى بمتاهات الماشي .

نهض فبلغ الجدار متعثراً وحاذاه حتى الباب الشبكي فوجده مفلقا . كان الفانوس مطفأً لكن القمر ينشر ضوءاً قوياً وساطعاً فيرغمه بريقه على عرك عينيه . الباحة مستطيلة الشكل . وتفصل موقع الباب عن مكتب الإدارة مسافة تعدل خمسة عشر متراً ، والمكتب بناء من طابق واحد على يمينه باب يفتح على الشارع . ويقوم على طول أحد الجدران

طنف ذو ميل قليل ومنبسط الى حد يكفي ليقى من المطر عربة ذات عجلتين وكدسة كبيرة من رزم الحطب مركونة بجانب المنزل .

ارتفعت في وسط المركم ثلاث أكوام من الفحم ، متساوية الاحجام ومنفصلة فيما بينها رغم انهيارات تؤدي الى تسوية رأسها وتوسيع قاعدتها لتتقارب أكثر فأكثر . وكانت الثلاث تعكس بشدة الضياء الذي يغمرها . ما كان لجدار من الجبس أن يبدو أكثر بياضا من صفحتها المواجهة للقمر . وإذا كان الجبس باهتا ، فان صفيحات الركاز (١) الماسية تلمع مثل ماء يضطرب ويتلألأ . لقد أسبغ ذلك الجريان الساكن على كتل الفحم والأنترسيت طابعا غريبا . فبدت خافقة مثل كائنات وهبها الكوكب السحري طوال ساعات حياة غامضة ومذهلة . كان على صفحة إحداها شرح أفقي يشكل ثلما لا يطاله الضوء ، فيوحي بضحكة صامتة في وجه معدني . وتكاد ظلالها تتلامس من ورائها ، فتشكل هوات على شكل مثلث وتبدو كأنها انبجست من داخلها فبرزت الى سطح الأرض لتبدو خارجة من الجحيم . أما الشكل الاعتباطي لوضعها ، كثلاثة اشخاص تجمعوا للتشاور فيما بينهم ، فكساها بمهابة كئيبة . وإذا ما أمعن المرء النظر فيها مطولا ، وسط صمت منتصف الليل ، وتحت سماء سوداء بدا القمر مثبتا في كبدها الى الابد ، رآها مربعة مثل الهة تشهد مأساة يتقرر فيها مصير الخليقة .

ما في الجو من نسمة . وكل مظهر من مظاهر الحياة كان معلقا بين تلك الجدران كما في مكان مسحور . والأشياء المتحوّلة بفعل إنارة شديدة لم تعد من هذا العالم بل تنتسب لكون يجهله الانسان ، فيحسب المرء ذاته بين أنقاض حاضرة ، لكنها حاضرة غير ارضية ، لشدة ما خفق القلب لكل ما حفل به ذلك المكان من بهاء وخيبة .

(١) معدن غير خالص . وهنا الفحم الحجري .

نظر أمامه بمض الوقت من غير أن يفهم تماما أين انتهى حله ومتى بدأت مرحلة يقظته . فحين ألقى بنفسه جانبا قبل ذلك بخمس ساعات، حتى يتفادى الرجل القادم نحوه ، منعه التعب من ملاحظة طابع المكان الذي التجأ إليه . أما دماغه المنهك فلم يعد يتلقى أي انطباع . قطع ثلاث خطى أو أربعا ، ورأسه ممثلىء وهما فوصل كومة الفحم الأولى . لم تأت بعد أية ذكرى لتأمل نفسه اضطرابا . وقف مثل ولد مندهشا لرؤية ذلك الهرم المتألىء وهو قدآمه . وانحنى فغمس يده كأنما في تيار سيل فأخرج حجرا أسود ذا مكاسر ملأى بالشرر .

قطعة من الفحم . قبض عليها براحة كفه هنيهة ثم أرخاها . دار ببطء حول الهرم الأول ، ومر أمام الثاني ، ومشى حتى وسط الباحة كمن يمشي وهو نائم . كانت قدماه تصدمان الحجارة . أما نظره فلا يستقر على شيء بعينه ومع ذلك فهو يتعرف على المرمك تدريجيا ، لكن القوضى المسيطرة على فكره لم تتراجع . فتبرز أمامه صور مهوشة من غير أن يقوى على إحكامها وإسباغ شيء من الواقع عليها .

لم يعد في حلم وهو يقطع الباحة . فالحلم هو اليد التي كانت تسمى قبل قليل لأن تتشبث بشعره ، أما الخطى التي تسير به نحو البيت في طرف المرمك فحقيقية . فهو يصفي الى وقعها . ويرى ظله يمشي أمامه صغيرا وأسود ، ثم أكثر طولا ، بل أطول من ثانية لأخرى ، فبدأ كمن كان متلهفا الى الوصول حتى يجره من قدميه .

حين بلغ البيت توقف . هناك ثلاث درجات تؤدي الى باب نزعت قبضته . كانت المصاريع الخشبية مغلقة . ارتقى الدرجات الثلاث فأسند ظهره الى الباب وأجال طرفه متأملا المرمك بكل امتداده . الأهرامات الثلاثة بنسق مائل ، كدسة الحطب التي رقد في ظلها ، الباب الشبكي المغلق ، الجدران العالية البيضاء ، الطنف الأسود ، العربة وذراعاها على الأرض كأنها غافية ، ذلك المشهد الغريب أثار اضطرابه . هبط الدرجات وتوجه ناحية العربة . فرؤية تلك الأشياء عن كثب قد

تنزع عنها منظر الرؤيا الذي اكتسبته بفضل الاضاءة الآنية الخاصة . مع ذلك تذكر الآن هذا المرحم . لقد سار بمحاذاة هذا الجدار ودخل من ذلك الباب الى ذلك المكان الذي كان معروفا لديه من قبل لانه سمع كلاما بشأنه . اليس من هذا المكان عينه يأتية الفحم الذي يشعله في بيته ؟ ليس ما يدعو اذاً الى خوف لا مبرر له . بل عليه أن يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المكان المسور . قد لا يكون الباب الشبكي مغلقا بمفتاح ؟ بل قد يتمكن من تسلفه بكل يسر . لقد استطاع التسلق من قبل الى الطابق الأول من مطعم لوند .

أرغمته تلك الذكرى على التوقف كمن تلقى ضربة على وجهه مباشرة . فالحياة الواعية استأنفت نشاطها بعد أن هامت فيما يشبه الضباب . والذاكرة وجدت نفسها على حين غرة . لقد حاول المرافقة معها دون جدوى لأنها أقوى منه . وليس ما يقهرها إلا النوم أو الموت . وذلك ما كان يخشاه . لم يعد بوسعه أن يخدع نفسه ، فعليه المضي بحياته في الاتجاه الذي أعطاها إياه بدءاً من يوم أمس .

كان في متناوله قبل أربع وعشرين ساعة أن يتصرف مثل باقي الناس ، فيلبث في بيته أو يخرج منه ، يستلقي على سريره أو يخرج متجولاً في البرية ، يتحدث الى الناس الذين يلقاهم في الشارع أو يلوذ بالصمت . أما الآن فلم يعد بوسعه أن يمشي خطوة واحدة إذا لم تكن تؤدي به الى مأمن من الناس ، ولا أن يتوقف من غير أن يتخفى . وإذا ما لبث في هذا المرحم فهو يقامر بافتضاح أمره . وإذا ما أفلت منه ، فسيعرض نفسه لالقاء القبض عليه في الشارع أو على الدرب أو وسط الحقول . إنه لم يعد حراً . أي كأن حياته في السجن قد بدأت . فأول عابر سبيل سيكون عنده كأنه السجنان . وإذا ما صادف عند زاوية الشارع امرأة أو ولداً فستكون حريته رهن إشارة منهما ، هذا إن لم يحم بقتلهما مثلما قتل الرجل العجوز . لكن يده لن تطاوعه من بعد . وهو يشعر بذلك . فالقدره على القتل ، وهي نوع من انواع الهبة قد أعطي إليه بالأمس . وسحب الآن منه . وجد نفسه ، كما كان في الماضي ،

ضعيفا وجلاً ، لكن فكره مثقل بذكرىات يسغى دون جدوى لاستبعادها ،
فيثن لشدة هولها . شعر بالحر وبدأ العرق يسيل على ظهره فيلتصق
قميصه بجلده . وبدأت يداها بدافع من قنوطه تتحركان دون أي مبرر
فتتشبشان بسترته ، وتجوبان بشرة صدره كأنما ستمزقانها . وقيدته
خوف بشع في ذلك الركن من المركم ، وهو الخوف من أن يرى اذا
ما خرج من الظل الذي أنعم به الطنف عليه . وتولد لديه انطباع بأن
الضوء حين يسقط عليه يجار بالصراخ ليشي به فيجن جنونه . أما هنالك
وسط الظلمة فبمقدوره أن يفكر .

أول ما عليه أن يفعله بعد مغادرته المرمك ، وهو عازم على مغادرته ،
أن يصل الى بيته بأسرع ما يستطيعه . فالفتاح في جيبه . سيدخل
من غير أن يوقظ زوجته فيأخذ كل ما في حوزته من مال . ثم يتوجه
سيراً على قدميه الى المدينة المجاورة ليركب أول قطار عابر . بقي بينه
وبين الفجر أربع ساعات الى خمس . وهو وقت كاف بشرط ألا تنقصه
العزيمة .

سار بضع خطى في الظل محاذياً كدسة حزم الحطب ، وكان ذلك
الظل يشكل واقياً على حافة هوة هي الضياء . وتغلب جبنه حتى على
الغريزة التي تدفع به نحو الهرب . فهو يستطيب كل مسوَّغ يطيل
تلك اللحظات الخطرة من التردد . ولا بد من التفكير والتقاط الأنفاس
قليلاً .

اصطدمت قدمه على مغربة من العربة بدلو موضوع بين الذراعين .
كانت تطفو على سطح الماء قطعة من الاسفنج استخدمت أثناء غسل
العربة . نظر الى الماء ، فخطرت بباله فكرة غسل يديه ليزيل بعض
البقع المشبوهة التي يمكن أن تلاحظ عليهما ، وحين انحنى نحو الدلو
استبدت به رغبة مفاجئة في أن يرى وجهه . فقد انقضى نهار وليلة
من غير أن يرى نفسه . وهذه أول مرة يفكر فيها بذلك الأمر ، واصبحت
الرغبة أشد الحاحاً . فكيف أمسى بعد ما قام به ؟ إنه يريد أن يعرف .

بدأ على صفحة الماء شكل غير واضح المعالم ، أشبه بظل لم يميز فيه سوى معالم رأسه وكتفيه . وأخذ الظل يرتعش تحت لهائه لأنه ركع أمام الدلو ، لكنه لم ير شيئاً من قسّمات وجهه ونظّرتّه .

عندئذ تناسى خوفه من النور ، الذي منعه من الخروج من تحت الطنّف ، فأمسك بالدلو من قبضتيه وحمله الى تحت ضوء القمر . وتأوّه حتى كأنّ ثقل الماء قد أنهك قواه . ركع ثانية وانحنى لكنه استقرّ في الموقع الغلط فمنعه ظله من أن يرى نفسه . فدار حول الدلو ورمى بقطعة الاسفنج جانباً وانتظر حتى تسكن صفحة الماء .

إذا هو لم ينحن كثيراً وإذا ما اتخذ وقفة شبه منتصبه فيسبح في رؤية نفسه . لم يكن الماء صافياً . لكنّ القمر أحالته مرآة . خفت شيئاً فشيئاً حدة التجاعيد التي تراقصت على السطح وبدأت الصورة التي ميزها تردد وضوحاً . بات الآن ساكناً : فذلك الرجل الجامد هو هو .

لبث بضع دقائق بلا حركة . شعره مشعث . لحيتته ترسم ظلاً على خديّه . ملابسه تتبدّى فيها الفوضى . كان يتوقع ذلك كله فلم تتولّه أية دهشة . إلا أنه بدا ، وهو راكع وذراعاّه تتدليان ملاصقتين لجسمه ، في حالة انبهار فلم يأت بحركة . أما الرعشة الخفيفة التي تهزّ جسده ، فكان يتبينها في الصورة المرتدة اليه عن نفسه . قد لا يتمكن أبداً من تحويل نظره عن ذلك الانعكاس المذهل . أما وهو مغمور بذلك الضوء الجنائزي فلم يكن خائفاً من القمر بل من النظرة التي تلاقي نظّرتّه فتستوقفها كما يفعل السحر . أما عن الملاحظة فقد رأى تلك النظرة مراراً وتكراراً من قبل حتى لاحظها . والنظرة تلك مقبلة الآن عليه باحثة عنه ، بل هي تنطق وتنفض بالحياة مثل هذا الفم الذي ترتعش شفّته وهما توشكان أن تنفجرا لتلفظا بالنداء . بلداً على ذلك المحيّا الواقع في أعماق الماء أنه يصعد فيرتفع بهدوء ليخرج من الدلو . لقد تعرّف عليه هنيهة ، لكنّ الرعب أحدث فيه على نحو

مباغتة تغييراً خارقاً فلم يعد هو نفسه . إنه يوشك أن يخرج من الماء ليخفق في الجو قبالة ويصرخ . توترت ساقاه على حين غرة فهب واقفاً من فوره وقلب الدلو .

أحدث الصمت من حوله جلبة تلقفتها أذناه ، وأطلق صوت انداز كأنّ الدلو المتدحرج على الحجارة قد أيقظ الليل . وضع قبضتيه على صدغيه وجرى وراء كومة فحم ثم اندفع باتجاه الباب الشبكي فحاول فتحه مديراً القبضة بعنف في هذا الاتجاه ثم في ذلك ، وقد أخذ الهلع منه كل مأخذ بسبب ما أصدرته من صرير . كان الباب مغلقاً بالمفتاح . فصعد على الدعامة مثلما فعلوا من قبل لدى إضاءة الفانوس ، ليتبين له من هناك أنّ كل جهد لبلوغ أعلى الجدار كان بلا طائل . فنقد صبره وأحسّ بوهن في قوته وضيّق الوقت عليه الخناق . فالفجر لم يعد بعيداً . قفز إلى الأرض وجرى نحو المنزل . فالقدرة المتبقية لديه تتبدد بسرعة وإذا لم يهرب على الفور فسينتهي أمره . قد يكون احتبس في ذلك المركم عمداً . فربما توقعوا أنه سيتوجه إلى هناك وانتابه الشعور بأنهم يترصدونه من وراء أكوام الفحم مثلذئبين برعبه . صعد درجات البيت ثم نزلها وحاول فتح الباب الصغير فقاوم مثل الباب الشبكي .

أظلمت الدنيا في عينيه وأخذت ركبتاه تصطكان . وبلغ به الخوف مبلغاً جعل دموعه تسيل على خديه . وقمت عينه على العربة فصعد فوقها من غير أن يدري ما هو قاعل . فتحرّكت ببطء رافعة ذراعيها . وحاول أن يرتد إلى الوراء لكن الألوان قد فات . وأدرك أنه سيهوي فوثب إلى أعلى كدسة حزم الحطب . فظلت متماسكة تحت ثقله هنيهة ثم أحسّ أنها بدأت تميد بقدميه ، لكنّ الجدار أضحى حينئذ في متناوله . ولم يبق عليه إلا أن يرفع ذراعيه ويتسلق مستعيناً بركبتيه ، معرّضاً جسده للتمزق وهو يحتك بالحجارة . إلا أنه كان يتسلق سور سجنه .

تدحرجت الحزم من تحته على الأرض فأحدثت صوتاً شبيهاً بصوت
سقوط البرد . لبث لحظة فوق الجدار وقد حطم الإنهاك صدره . ثم
شدّ على الحجر بذراعيه وانقلب الى الناحية الثانية من الجدار وقد
تدلت ساقاه فوق الشارع . كم تبلغ المسافة التي تفصله عن بلاط
الرصيف ؟ إته لا يدري ولا يقوى على التفكير . تراخت أصابعه شيئاً
فشيئاً . عليه أن ينزلق ملاصقاً للجدار . عليه أن ينزلق ؟ كيف ؟ وبغثة
أطلق صرخة وسقط .

* * *

القسم الثاني

- ١ -

- يا له من طقس سيء ، يا مدام لوند . قد تقولين لي إن الألوان لا يستحي من أوانه . لكنّ الشتاء لا يتقبل في بعض السنين بمثل هذه السرعة . ويأتي من هذا البرد ... ألا تشعرين به ؟

- أنت ، على عهدي بك ، برّيدة دوماً ، يا مدام كوز . أما أنا ، فحسبي أن أحسّ بالدفع في أطرافي . هل تفهمين ؟ لذا أشعر اني في غاية النشاط بوجود مدفاة الأقدام وقفّازيّ العريضين .

أطلقت مدام كوز ضحكة باهتة وقالت :

- تقولين قفّازين عريضين ؟ هل تتخيلين شكلي وأنا أقوم بإعداد الطعام وبدائي في قفّازين عريضين ؟ لكن من حسن الطالع أنّ الجوّ في مطبخي أدفاً منه هنا .

الترمت مدام لوند صمتاً مليئاً بالمهابة .

فاستأنفت مدام كوز قائلة :

- قلت ذلك دونما قصد إساءة . اعتذر كثيراً إن كنت قد عكّرت مزاجك .

- البتة يا مدام كوز . أنا أحافظ هنا على الحرارة التي أراها توائمني . وإذا عانيت منها فذاك شأنني .

- ١٦٧ -

قالت ذلك بصوت حازم وهادئ . وحدّقت في محدّنتها لتؤكد
عجزها عن نقد كلماتها الأخيرة . لكنّ مدام كوز ما عادت تفكر بذلك :
من السهولة بمكان لجم لسان تلك المرأة القصيرة ، التي كانت ترتجف
وتفرك يداً بيد ، دون أن تجرؤ على رفع نظرها . لقد استهلك عملها
الشاق جسدها وأنهكه ، فكانت تجلس مطوية نصفين في حلة فضفاضة
من قماش النشاف الغامق ، قاعدة على كرسي بشكل موروب مثل ولد
يخشى أن يحتلّ المقعد بحاله . وبدأت بحدقتيها البرّاقتين ، والدم
المتجمّع في أديم خديها وجبهتها ، كأنها ما زالت قبالة قرنّها . ولو
رأيتها لقلت إنّ النار ، ذلك الوحش الذي لا تني الطبّاخات تستثرنه
دوماً بسطامهن^(١) داخل حضّرتّه ، قد وثبت على وجهها ذات يوم ، إذ لم
يكن لها أهداب ولا حاجبان وكان جلدها الصلب اللّماع يحتفظ بما يشبه
أثر حرق .

قالت :

— ينبغي عليّ أن أذهب بعد بضع نوان . فالدنيا قد أظلمت .

لم تكن مدام لوند تهوى العزلة . فقالت بلهجة من يصدر امرأ :

— بوسعك البقاء لبعض الوقت أيضاً .

— بقي عليّ إعداد العشاء ، يا مدام لوند ، ناهيك بأنني لم أعد الآن
أرغب في الخروج وحدي .

— عجباً ! أنت خائفة إذا كالأخريين ؟ ممّ تخافين ؟

— للمرأة مبرّر خوف دائم وهي وحدها على الطريق .

(١) سيطام : حديدة تحرك بها النار .

- ربما للمرأة الفتية . اما أنت فمعجوز بما فيه الكفاية ليدعوك
وشأنك .

- يمكن ذبحي بنفس السهولة من أجل سرقة حافظة نقودي ، كما
يمكن تحطيم دماغى بهراوة ، على نحو ما وقع لذلك الرجل المسكين ...

- حسبك حشواً لرأسك بهذه الأفكار . يا مدام كوز . فيها هي ذي
البلد في حالة غليان واضطراب منذ ستة أسابيع ، بسبب عجوز بأنس
قتل عند زاوية شارع . ماذا ستكون حالك لو أنك في باريس حيث
يقتل ما لا يقل عن عشرة أشخاص كل ليلة ؟

- اسكتي ، يا مدام لوند ، فانت تخيفيني . إنك تتحدثين على
ذلك بكل هدوء ...

- لست أرى ما يدعوي الى القلق من اجل امر ضئيل جداً .

- قال الميسو غروجورج للسيدة منذ ايام . إن العزم على اقتراف
جريمة ينتشر بالعدوى كالاصابة بالحمى ، لذا فإن الجرائم تقع دوماً
بوتائر متسلسلة .

- وماذا قالت السيدة ؟

- لم تقل شيئاً . إنها لا تقول شيئاً ابداً .

- ها انت تلاحظين انها لا تصدق ذلك .

- لست متأكدة من الامر . فقد كانت هيئتها غريبة حقاً . مثل
حالها مع الجريدة منذ بعض الوقت ...

- مع الجريدة ؟

— أجل ، إنها تتلقفها بلهفة .

— يا إلهي ! وأنا أيضاً ، وأنت أيضاً . إنها تريد معرفة الأخبار .

— أنت لم تريها مثلي ، يا مدام لوند . هل ترتعش يدالك وأنت
تفتحين الجريدة ؟ كلا ، أليس كذلك ؟ أمّا يداها هي فترتعشان . وذلك
فقط منذ حادثة الآنسة أنجيل .

— علام يدل ذلك ؟

— على أنها خائفة ، وحق المدراء .

— لو كانت خائفة لما خرجت ليلاً .

— الواقع أنها ذهبت إلى المحطة لاستلام رزمة ، أمس الأول بعد
العشاء ...

— أدري . رزمة رسالة من باريس .

— كيف بلغك ذلك .

— إنك لفضولية .

— كلا ، مطلقاً . لكن هذا ما قالت له للسيد وهي داخلة . رزمة من
باريس تحتوي جزمة قصيرة .

— أنت ترين إذاً ...

— أنا لا أصدق أنك تخمينين . كان بوسعي فيما مضى أن أستنتج بأن
السيد يقول ذلك لأنجيل ، وأن أنجيل تتولى اعلامك من بعد ،
لكن بما أن السيد لم يعد يراها ...

— دعي انجيل وشائها ..

— ايه ! عفوك ، يا مدام لوند . ادري أنه ما كان لي ان اتحدث معك بهذا الشأن . وأدرك أن الأمر يشق عليك . فتاة على ذلك القدر من الجمال ... ومثل ذلك الجرح في وجهها ... أي رجل ، بل أي وحش هو غيرهه هذا . يا مدام ! ويمكن القول إنه نذير شؤم لكل من يعرفه ، ولزوجته قبل من عداها . اتعرفين ماذا حل بها ؟

قابلت مدام لوند هذه الكلمات الأخيرة بتجهم : إنها لا تود أن تقول « كلا » ردّاً على سؤال من ذلك النوع .

— قيل لي إنها رجعت الى ذويها في مقاطعة بريتانيا . وقبل أيام ، سمعت الوصيعة السيد يقول للسيدة إن غيرهه ما كان له أن يقتل بواحدة مثل زوجته . وإن ذلك سبب كل البلاء .

— هكذا ؟ وبماذا أجابت السيدة ؟

— لا شيء . قلت لك إنها لا تقول شيئاً أبداً . ولو لم تكن تتكلم لاصدار تعليمات : احسبها المرء بكماء . لكن ، يا الهي ، لقد استغرقت في الشرثرة وهذا الليل أقبل . إني منصرفة الآن ، مثلما تعلمين .

— كما تشائين .

— الى اللقاء يا مدام لوند . سوف أمشي مسرعة وأسير في منتصف ارض الشارع . اذا ما سمعت صرخات فاعلمي أنهم يدبحوني انا .

— لا تخشي شيئاً ، يا مدام كوز . أنت تقولين هذا دوماً . لكنك محظوظة بالبقاء في بيتك .

— هيا ، ساولي هاربة . الى اللقاء يا مدام لوند . لا تنهضي .

— الى اللقاء .

قالت بصوت خافت حين لبثت وحدها : « انهض ! إنها تتخيل الآن أن علي واجبات تكريم جبالها . » ثم أضافت وهي تميل صوب زجاج النافذة : « هيا أركضي ، أيتها العجوز الخوافة . »

لقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بصوت عال ، ومزيج من العداوة والازدراء ، حتى شعرت هي نفسها بالمفاجأة . نظرت فيما حولها بهيئة من الضيق وسعلت على نحو ما يفعل في أغلب الأحيان الأشخاص الذين يكلمون أنفسهم ، قاصدين من غير شك الى جعل الذين يمكن أن يكونوا قد سمعواهم ، يحسبون أنهم ينقون حلوهم . وأن جلبة الكلمات تلك ليست إلا صوت نحنحة .

لكن إذا كانت مدام لوند في واقع الحال تهمهم أو تتمعجب وهي وحيدة ، كنتيجة لمصيبة واحدة من مصائب الشيخوخة الصغيرة ، فانها لمعدورة ، لان اثر السن بدا منذ أربعة شهور يسيء معاملتها . فبصرها أخذ يخف . لم يعد يوسعها ، من غير الاستعانة بنظارة حصلت عليها حديثا ، ان ترى على نحو كاف . لكنها لم تكن تجرؤ على استخدامها أمام الملاء . ما نفع شعرها الجميل الفاحم الذي ما زالت محافظة عليه إذا كانت ستشوه شكلها بتلك الاداة الممزونة ؟ وهي ليست أخيراً إلا في الخامسة والخمسين . وبصرها يكفيها تماما للتعرف على زبائنها ، اما اذا رغبت في القراءة أو الخياطة فبوسعها أن تنفرد في غرفتها . لكن ما يتسبب لها بأشد الضيق ، وقتر جديد زاد مؤخرا في أذنيها . فنسبت ذلك بادىء ذي بدء الى عيب في النطق لدى محدثيها ، لتسلم فيما بعد بالأمر الواقع : فحواسها تخونها واحدة فواحدة . ولم يعد هناك سوى أنجيل التي استطاعت ، دون من عداها ، الإبقاء على صوتها مسموعا لديها على الدوام : لقد أتقنت الفتاة إتقاناً تاماً المعيار اللازم لرفع عقيرتها ، حتى تخترق حجب ذلك الصمم الناشئ حديثا .

هزت مدام لوند رأسها وهي تتفكر في هذه الأمور ونظرت من النافذة ثم نهضت . كانت بوشاحها الصوفي القصير الأسود ، وهو يقي كتفها من البرد ، ذات شبه قريب من أحد رجال الكهنوت الذين يلبسون الحبة . دارت في غرفتها بخطى ثقيلة وهي تفرك يدا بيد ، وحين توجهت صوب الأريكة عادت ذكرى مدام توز إلى ذهنها ، فدمدمت مفتاة : « كلهن خائفات » .

ذلك الضرب من الذعر الذي ينتاب المدينة بعد غياب الشمس يثير القلق لديها ، فلو استسلم الرجال لجبن النساء لقضي على مطعمها . إذ لابد قبل الوصول إليه من نزول شوارع طويلة سيئة الاضاءة . وليس في النزهة شتاءً ما يبهج .

توقفت الآن أمام الموقد فاضاءت السراج وقالت بينها وبين نفسها ، فيما هي تضع العاكس فوق ساعد السراج الزجاجي : « ما زلت أمسك بهم بحكم العادة . فهم لا يحبون التغيير . ناهيك بأنني لا أزال وحدي في البلد أتعامل معهم بأسعار متهاودة . بل ينبغي القول كذلك إنني أفرضا عليهم . لكن يحتمل ألا يظل الوضع على نحو ما عرفوه سابقاً يوم كانت أنجيل تخرج بصحبته . » .

وقام فكرها بونبة ناحية الأمور العامة ، كأنه يريد الإفلات من عذاب ذكرى محددة بعينها . فقالت بصوت عال :

« ما سبب كل هذه الهموم ؟ لم ناء القدر علي بحمله علي حين فرة ؟ قبل ثلاثة أشهر كنت أحسبني تعيشة ، الكني كنت سعيدة ، أجل ، سعيدة . كنت أكل وأنام من غير انشغال بال . وبدأت حياتي منتظمة إلى الأبد ... » .

حملت السراج وقطعت الغرفة متجهة لفتح الخزانة . وأضافت وهي تدس ذراعها بين الأثواب والشالات :

« انتهى بي الطاف الى الخوف حذر الغد . ولا يعلم إلا الله ماذا ينتابني كلما سمعت طرقاتاً على بابي . لا أحد . ليس من أحد بالتأكيد في هذه الخزانة . بل كيف يمكن لأحد أولاً أن يقف فيها . ينبغي أن يكون طوله مئة وعشرين . ويلي من هاتيك العجائز وحكاياهن . . . إلا أنني قبل ثلاثة أشهر ماكنت أحسب لضرورة تفتيش غرفتي أي حساب » .

أغلقت الخزانة وقصدت السرير فوضعت السراج على الأرض .

« لا يشق علي تصديق ارتعاش يدي مدام غرو جورج حين تفتح الجريدة . وأنا أيضاً ! إن الدم لشيء فظيع . فالفكرة بأن أحداً يطالني برأس خنجر . . . » .

ركعت كأنها ستؤدي صلاتها أمام صورة المسيح وهو باسط ذراعيه فوقها وفوق مخاوفها ، لكنها لم تره . وتأوهت : « علي وأنا في سني هذا أن أركع لأنظر تحت السرير ! لو وجدت أحداً لأمسك بي لأمحالة . وهذا برهان على أنني غير مصدقة أبداً . ومع ذلك فلن أغادر هذه الغرفة قبل أن أثبت من أن أحداً لا يختبئ فيها » .

استندت براحتيها الى البلاط وانحنى الى أمام حتى لامست الأرض بشعرها . فأنحدر الدم الى رأسها محدثاً طينياً .

تنهدت قائلة : « إنني لا أرى شيئاً . كان عليّ أن أضع نظارتي . فالسراج لا يضئ حتى النهاية تماماً . ويبدو لي آخر الأمر أنه ليس من يستطيع التسلل الى تحت حتى لو كان نحيلاً جداً . لكن المرء لا يستطيع أن يجزم أبداً . فالبعض يصير في منتهى المهارة ، حين يتعلق الأمر بتفكير صفو الناس الأشراف » .

وضاع صوتها تحت السرير . فكانت وهي تئن على تلك الحال أشبه ما تكون بحيوان سمين يلهث بحجر تحت باب سجنه . كان غسق الشتاء يضيء النافذة بوهن من وانها لم تعد الآن تتحرك أو تنطق

بكلمة . فنظرتها المكفهرة تتحرك من اليمين الى اليسار . أما مؤخرتها الساكنة الضخمة المتلاثلة داخل غمد من الصرج اللامع لشدة الاستعمال ، فكانت توجه شتيمة لآخر اشعة النهار .

حين اغلقت المطعم في ذلك المساء وضعت قبضة القفل في جيبها وصعدت الى غرفة أنجيل . كانت الفتاة قبل وقت قصير قد رقدت في سريرها واطفات النور . لذا فان زيارة مدام لوند باغتتها ، وجعلتها تخشى أن يكون قد وقع حادث خارق ، فقالت من داخل سريرها :

— ماذا هناك ؟

التقطت مدام لوند أنفاسها ووضعت السراج فوق المدفأة . ثم قالت بنبرة مرح مصطنع :

— ماذا تريدان أن يكون ؟ جئت أتمنى لك ليلة سعيدة . وآمل أنك لم تكوني نائمة .

وضعت كرسيها عند طرف السرير فقعدت . واستأنفت تقول :

— في هذا المساء راودتني وأنا تحت أفكار مظلمة .

ثم قالت بفتة وقد رأت الفتاة تبقي الفطاء مسدلاً فوق وجهها :

« لم تتحجبتين على هذا النحو ؟ »

— لأن النور واقع على عيني .

— طيب ، ها أنت تقاطعينني دوماً حين أبدا الكلام .

وقامت تدمدم متذمرة فوضعت السراج فوق الطاولة ، في زاوية مغايرة من الغرفة ، على نحو يجعل سرير أنجيل يقع في الظل من جديد .

— قلت لك إن أفكارا سوداء راودتني . أجل . فكآبة أولئك الرجال استولت عليّ . ما عادوا يتحدثون كما في السابق . تلك حقيقة واقعة .

— ما كانوا في العادة كثيري الكلام إلا ساعة يتخاصمون .

— لكم أود أن أراهم يتخاصمون . ومهما قلت فلا بد من التسليم: ذلك الصمت لا يوحى بالخير . لم تكن لهم مثل تلك الهيئة قط مد أن عرفتهم .

— وهل في ذلك من ضر ؟ ليس لك إلا أن تدعيهم وشأنهم .

— يا لقلبك الطيب ! وماذا لو انصرفوا ؟

— من قال لك إنهم سينصرفون ؟

— لا أحد . لكن إذا كانوا صامتين فهم غير راضين . وإذا كانوا غير راضين فيمكن أن ينصرفوا . ولديّ ما يشبه الاحساس المسبق .

— لديّ أنا إحساس مسبق بأنهم باقون ، لأن السعر أرخص من أي مكان آخر .

فقالت مدام لوند بلهجة حارة مباغتة :

— والمسرة ، يا ابنتي . ألا تزال في رأيك من مسرة بالحضور للعشاء في لورج ، بينما كثيرون منهم يقيمون في شانتيليا ، وأن الجو في شانتيليا أكثر مرحا ومليء بالضياء والناس ؟ أما لورج فتسودها سمعة مشؤومة ، وشوارعها غير مضاءة . ولا يتردد أي واحد من أولئك الرجال عن دفع خمسة وعشرين فلسا إضافياً للعشاء في مكان يستطيع العودة منه إلى بيته دون أن يخشى من أن تحتز رقبتة .

— لمْ تحدّثيني في كل هذا ، يا خالتي ؟ لقد وعدتني ...

فاستأنفت مدام لوند وقد امتلأت غيظاً لم تعد تقوى على كظمه :

— لكن دعيني . ينبغي أن أتكلّم وأن تسمعي . فالكيل طفح بقلبي ، هل تفهمين ؟ زارتني مدام كوز قبل قليل . إنها واحدة من اللواتي يقتلن الخوف حين يضعن قدمهن خارجاً . وذلك كله يغيظني . فحين يستبد الخوف بالناس في مدينة صغيرة مثل لورج تسوء الحالة بالنسبة للجميع . لا أريد أن يشعر المرء أنه يخاطر بحياته وهو قادم للعشاء في مطعمي . وها هو الشتاء قد حل . فالدنيا نظلم بدءاً من الساعة الخامسة ظلمة حالكة . حسبك ، أنت لن تبكي . اليس كذلك ؟ لأنك بنوبات الدموع التي تفتريك تجعلين حياتي هنا مستحيلة . ناهيك بأن الحالة فيما مضى لم تكن بهيئة جداً ، يا أنجيل ! اتسمعي يا أنجيل ؟

— أجل .

— سأطرح عليك سؤالاً من أجل صلاح أمرك وأمري وهو سؤال جاد . أنت تعرفين اسم الذي اعتدى عليك . فمن هو ؟ قل لي .

ارتدت أنجيل فارتمت فوق السرير ورأسها بين ذراعيها . فحالت دموعها هنيئة دون قدرتها على الرد . وبفتة صاحت قائلة :

— كنت قد وعدتني بعدم التعرض لهذا الأمر ثانية . هيا اتركي .

لم تتزحزح مدام لوند من مكانها . يمكن أنها تعودت مثل هذه الثورة . أخيراً قالت بصوت أخفض :

— لم أعد أقوى على الاحتمال . فبعض الناس يقولون أنك تعرفين اسم ذلك الرجل وان واجبك يقتضي تعاونك مع العدالة . الا تعرفين أنك بصمتك تثيرين المدينة ضدنا ؟ واذا ما تعرض امرؤ لاعتداء فسي

الشتاء فسوف يقال بكل تأكيد انه ما كان لذلك ان يقع لو انك ابلغت
عن الجاني ، عندئذ لا يبقى أمامنا الا الرحيل .

— لكنني لا أستطيع ان أقول لك اسم الرجل لاني لا أعرفه .

— الا انك لن تقنعيني بانك أيضا لم تريه . فقولي ، كيف كان
شكله ؟

— كنت قرب الماء . فقدم من ورائي وضربني على رأسي . هذا
كل ما أعرفه .

— لكنهم شاهدوك معه على الطريق أيتها الشقيّة . فمداً كوب قد
رائك . ومن بعدها صانعة الكراسي عند سان جود رأتك .

— ينبغي اذاً توجيه السؤال اليهما لتقولاً بصحبة من كنت ،
لا سيما أنهما شاهدتاني .

وأعقب هذا الجواب صمت طويل ، تقطعه فقط شهقات انتحاب
مخنوق تصدر عن أنجيل ، وزفرات صاحبة من مدام لوند . لقد جهدت
هذه الأخيرة لتبقى منتصبة في جلوسها على الكرسي لتبدو دون شك
على جانب أكبر من الرهبة في عيني الفتاة ولتفرض عليها رأيها . كان
رأسها نصف مضاء بالسراج الذي وضعته وراءها فبرزت صورتها
الجانبية القاسية الطويلة كخيال محاط بما يشبه الهالة . فكرت بضع
ثوان . وبدت عيناها البراقة باحثة عن الشر الذي يمكن أن يتسبب في
أشد الأذى . وقالت أخيراً :

— سوف نرى بوضوح كيف سيكون ردك أمام محكمة الجنايات .
وصممت أنجيل . ثم أجابت بهدوء :

— لو كنا في غير هذا الوقت ، لاثرت ضحكي . فما الذي يمكن
أن أخشاه من محكمة الجنايات ؟

— سيقولون أنك متواطئة مع أحد الجناة وانك أخذت مالا مقابل سكوتك .

— ينبغي أولا اثبات ذلك .

— المحامون يشبتون ما يرغبون في اثباته وسوف تدخلين السجن .

— اتخليين أنني في الثانية عشرة من عمري فتحاولين اخافتي ؟ ومتى كانوا يضعون المجني عليهم في السجن ؟

بعد توقف قصير ، استأنفت مدام لوند تقول بأناة حشرة ووحشيتها:

— أقول ان الجاني عليك سيقاب ، اما أنت ، فسوف يجعلونك تدفعين ثمن سكوتك الذي منع العدالة من القاء القبض عليه في وقت مبكر . ومن يدري ؟ قد تكونين السبب في ارتكاب جرائم أكثر هولا أيضا ، لان ذلك الرجل الطليق يشكل خطرا تماما . وهو طليق بفضل صمتك يا ابنتي . واذا ما رغب على سبيل المثال في أن يحتز عنقي هذا المساء ، ألا تعرفين أنك ستتحملين جزءا من المسؤولية ؟

— أنا يا خالتي ؟ ولكن كيف ، كيف ؟

— برفضك اعطاء اسمه .

— أكرر لك قلبي اني لا اعرفه . اجهل كل شيء عنه . ولن اكون قادرة على أن أقول كيف شكل وجهه .

— الا أنهم شاهدوك على الطريق وأنت تتحدثين اليه . وهناك شهود .

— الشهود يكذبون .

— ستوضحين ذلك أمام المحكمة ، يا حبيبتي .

— آه ، دعيني اذن وشأني ، يا خالتي . فماذا تجنين من ازعاجي؟

— قولي لي فقط ، ان كان هو السيد غيره ام لا . فهناك شكوك
تحوم حوله . واذا لم يكن هو ، فحسننا تعملين بقولك لي . فانت
لا ترضين بان يتهم بريء ، اليس كذلك ؟ وزوجته ؟ فكري بزوجه .
هيا ، اهو ذاك ؟ لا عليك الا ان تقولي نعم او لا .

فجلست أنجيل في سريرها . وقالت بقوة :

— لن أجيب ابدا . دعيني .

نهضت مدام لوند وانت حتى القرب منها قائلة :

— لن تجيبي ابدا . وانا ، ماذا لو عيل صبري منك ، قولي ؟
ماذا لو طردتك من بيتي ؟ فيوم جاؤوا بك من هناك ، لم تكوني بهذا
الزهو .

وارتفعت حدة صوتها فجأة فطفقت تصرخ وهي مائلة فوق الفتاة
التي كان يظهر شكلها الابيض في وسط السرير .

— سينتهي الامر بالشقي الى التوقيف ، أسمعين ؟ وانت ، أنت
سوف تنالين حسابك . انت متواطئة معه . لقد أخذت مالا من أجل أن
تسكتي . كلهم يقولون ذلك والامر مؤكد .

أجابت أنجيل وهي تضطرب :

— ذلك غير صحيح . ولكني اقول لك ان ذلك غير صحيح . كنت
فيما مضى تصدقيني .

كان صوتها يشبه صوت امرئ يوشك أن يختنق :

– ولكن ألم تريني لتحسبي اني لو كنت اعرف اسم ذلك الرجل
لما انتقمتم ؟ انني اكرهه اكثر من كرهك له بكثير . واني لاتمى أن تكون
المقصلة من نصيبه .

وزفرت قليلا ثم ارتمت سجادا فوق وسادتها . وانتصبت مدام
لوندا وهي تلوذ بالصمت . كانت تقف بطولها في الظل وقد بداعليها
التفكير .

ابتعدت بعد لحظة عن السرير ومضت لآخذ السراج من على الطاولة
وبدا وجهها مضاء بشدة كان نور مسرح قد سلط عليها . بدت التجاعيد
العميقة وقد انحفرت أخاديد في الخدين ، وبدت العينان الجامدتان
بنظرتهم المتوترة ، لتثبت أن الشيخوخة انتصرت في النهاية . فأنفها
الطويل الثقيل وحاجبها السميكان يظهرانها بمظهر رجل ، أما طريقة
الوجه التي وضعتها يد مرتعشة ، فتجهد دون طائل لتعيد شيئا من
النداوة الى بشرة تبدو الحياة قد خلفتها وولت . تأملت السرير مليا
رغم أنها تراه بلا وضوح ، ثم تنهدت . شعرت بعبء في صدرها .
اما وهي تفتح الباب فقد هزت كتفيها ، وربما بدافع من الفم أكثر من
عدم الاكتراث .

قالت كما على مضض :

– على كل حال ، طابت ليلتك .

وخرجت من غير أن تنتظر الجواب .

* * *

- ٢ -

يصعب على المرء الا يستمتع بجو القاعة الصغيرة التي اقامتها مدام غروجورج في الطابق الثاني من دارة « خلوتي » ، رغم قبح الاثاث والطنافس . ومرد ذلك الانطباع ، من غير شك ، نار الحطب التي تملأ جوها بدفء عذب في عصر ذلك اليوم المزمهر . فستائر القטיפه الحمراء والسجادة الرمانيّة المزدانة بتشجيرات غامقة ، وقطع الاثاث نفسها من كنبات واريائك بطابعها التركي ، تشرب كلها تلك الحرارة المستساغة وتنم على متطلبات من تعودوا الرفاهية . لكن ذا الخبرة سيقول ان ذلك المكان بمجاليه المحدود يضيق بمحتوياته ، كما سيميج التجمع المقيت للالوان ، والعدد الزائد من اللوحات التي تغطي الجدران . أما القادم لتوه من الخارج وقد ضرت جسده هبات كانون الاول العاصفة ، فهيهات أن تعدل بهجة جلوسه في تلك القاعة بهجة اخرى .

إلا ان مدام غروجورج التي دخلت لتوها لم تبد من تأثر بدفء الجو . فالتقت بكميمنتها^(١) فوق منضدة وجلست قرب النار ، من غير أن تخلع المعطف الطويل من فراء القضاة ، والذي يلف جسمها كله . ثم نهضت من فورها تقريبا لتمشي داخل القاعة . لقد جعل البارد دموعها تسيل على خديها . فنزعت قفازيها ومسحت اجفانها بظاهر يديها المتصلبتين .

ظلت بضع دقائق نهبا لاضطراب جعلها تقطع القاعة بخطى كسيرة جيئة وذهابا . أخيراً ، وبينما كانت تمر أمام مرآة ملققة على الجدار ،

(١) كميمة : فروة اليدين (غطاء اسطواني طويل يكسوه الفراء لتدفئة اليدين) .

شاهدت نفسها على حين غرة . وباغتت في عينيها نظرة بدت لها غريبة دون شك ، لأنها توقفت ثم مضت لتجلس فوق الكتبة .

نزعت الآن طاقة الفرو عن رأسها ومسدت بأصابعها الطويلة النخيلة شعرها الأسود الذي بدأ يخالطه شيء من الشيب حول جبينها وخلف أذنيها . من يرها يقل إنها خجلت من الحركة التي بدت عنها قبل قليل ، وإنها تجهد الآن لاستعادة هدوئها بحركات متزنة . نهضت ومضت فرنت الجرس وخلعت عنها معطفها .

قالت للوصيفة وهي تدخل :

— هل جاء أحد أثناء غيابي ؟

— لا أحد ، ياسيديتي .

— طيب . خذي معطفي وقبعتي . إن جاء أحد يسأل عني فلا تقولي أنني موجودة قبل أن تحيطيني علما . هل خرج سيدك ؟

— من بعد سيدتي مباشرة . خرج بالعربة .

— لا بأس . هذا كل شيء .

حين أمست وحيدة ، تمتت قائلة : « ما العمل ؟ » فكرت لحظة وتوجهت الى النافذة . كانت الريح تهز أعالي الأشجار ، وتثير على الطريق الذي يشاهد فيما وراء الباب الشبكي ، غباراً أبيض يواصل الدوران على ارتفاع بضعة أمتار عن الأرض ولا يبدو سيستقر أبداً . مامن نبتة صمدت في وجه ذلك البرد . فحوضاً الأزهار المتقابلان عند طرفي سهلة المرج الكبيرة ، لم يعودا أكثر من كومتين كئيبتين من التراب الأسود . ولم يعد ما يدخل شيئاً من التلوين على ذلك المشهد المملق ، سوى مساكب المرج ، والسياج الذي تتوالى فيه شجيرات الفار والمضاض .

عادت فأسدلت ستارة التول ومضت فجلست قرب النار .

في بعض الأحيان تبدو لها حياتها ، لا كتوالٍ من السنين ، بل مثل كائن حي ، مثل بديل تكاد تمنحه وجهاً وحركاتٍ وصوتاً ، وهذا الكائن الخفي يبرز لها في ساعات العزلة القصوى أو على أثر انفعال شديد ، شبيه بما عرفته في ذلك النهار . كانت تشعر به الى جانبها يتكلم بصوت يهيم عليه الصمت . كان انطباعها حينئذ أنها في حضرة مسافرة عائدة من بلاد بعيدة ، تقص عليها مشاهداتها . ولزمها بذل جهد للخروج من ذلك الخدر الذي انزلت بها اليه احلام يقظتها الغريبة .

لم تكن يوماً سعيدة باستثناء مرحلة طفولتها . فالمال لم يعوزها ولا الصحة ، وبدت الطبيعة سخية حيالها ، لكن قد يكون إغداق الهبات التي انهالت عليها ، قد تسبب هو نفسه بالحزن الذي يشاهد في أعماق عيني تلك المرأة . أليكون الحزن على عدم تمكنها من تمنى أي شيء ؟ لقد حصل انفصام عرى تدريجي بينها وبين الأشياء ، حتى إنها قبلت بالرجل الأناني والهزاة الذي تعيش معه ، زوجاً لها ، ولم تظهر عليها أية حساسية تجاه دماثة الأشياء ، التي تحيط بها والتي يقع نظرها عليها طوال ساعات النهار . لكن قد يحصل أحياناً في داخلها انفصال غامض يتعذر تحديده ، بل ضرب من ضروب التوقف في مجرى الزمن ، كأنها فرصة تعطى لها كي تستدرك ذاتها ، وأن ترى نفسها على نحو ما كانت . بل أن ترى حياتها .

كان يجري في عروقها شيء من دم أجنبي ، إذ لابد لخلق امرأة باطنية مثلها وعنيفة مثلها ، طبائع مفارقة للطبائع الفرنسية من خلوص البال والتعقل والرزانة . وإذا كانت تظهر أمام أعين الناس ، غير الفطنة ، في لبوس من البرودة والاتزان الشديدين ، فهي في الباطن قلق واضطراب نفسي ، وتموه قلباً عاصياً تحت ظواهر حياة مستقيمة جداً . كانت تكره ، من غير أن تقيم الأشياء من وزن ، كل ما كان يعيق حياتها عن أن تكون أكثر غنى وأكثر جمالاً ، وتحقق على كل ما يذكرها أن :

« الأوان قد فات . بوسعك منذ الآن التكهّن بما ستكون عليه سنوك الأخيرة ، فما من شيء سيّغير أبداً بعد » . إلا أن ذلك الحقد غامض ، وليس موجهاً نحو كائن بعينه أو شيء محدد . وتعتبر شبابها ، مع كل الأحداث التي تركت فيها آثارها ، بمثابة جولات خسرتها من غير أن تلحظ ذلك . ولم يتخلف لديها الآن سوى المرارة التي يعاني منها المقامر وهو يسعى ليعرف نوع الخداع الماهر الذي لجأ إليه خصم غشاش فسلبه ماله .

وانها لتشعر ، وهي في الخامسة والأربعين ، بأنها أكبر سناً من امرأة أخرى في الستين ، لأنها انسأقت للوقوع في شرك العادات التافهة لحياة ضحلة . وأن كل ما تبقى لديها من طاقة ، بدا مسلوباً منها على نحو غير محسوس . وإذا ما برز أحياناً جموح هوى مفاجيء ليثير اضطرابها ، فإن عقلها لا يتوانى عن الإيحاء اليها بأنها غدت أكبر سناً من أن تفكر الآن في التحرر من القيود . فعلى أي شيء سترسي سعادتها؟ فجماها قد زال منذ زمن طويل وثروتها ليست بين يديها . ناهيك بأن العزيمة تنقصها . فقبل عشر سنين كان بوسعها أن تهرب . لكن هل كانت تخمن قبل عشر سنين أنها ستفرق في مثل هذا السام ، وفي النفور من كل شيء ومن ذاتها ، هذا النفور الذي غدا ينفث سمه في كل ساعة من ساعات نهارها ؟ وكم باتت تتساءل : « كيف يعيش الآخرون ؟ كيف يفعلون للانتقال من أسبوع إلى أسبوع وحتى آخر السنة ؟ »

كانت تهتاج لذلك الضرب من ضروب الترحال عبر الزمن ، والذي تجده نفسها مرغمة على القيام به ، فالى أين يمضي بها ؟ ونحو أية مسرة ؟ وأي تعويض^(١) سيجعلها تنسى عناءها ؟ لم يكن الايمان يوماً ذا تأثير يذكر على تلك المرأة ، فكل المذاهب بدت خاطئة ، وما من واحد

(١) تعويض : عملية نفسية يخفي فيها المرء شعوراً بالنقص أو عجزاً معيناً ، بالتفوق في حقل معين .

استطاع أن يفسر لها سبب مجيئها الى الحياة ، ولا السبب الذي من أجله سيأتي يوم تحرم فيه من هذه الحياة التي وهبتها . كانت فكرة الموت تثير في نفسها ذلك الاضطراب الذي هو من علائم فتوة القلب . وليس حب الحياة هو الذي يعوزها ، انما موهبة القبول من غير تدمير بحياة تغاير كل الحيوانات الانسانية ، الا وهي حياتها الخاصة بها .

وهي تدرك بالتأكيد انه لم يعد هناك ما يقبل التعديل . وكل شيء بات يحملها على الاعتقاد بأنها ستنتهي حياتها في هذه المدينة . فأصفر جولة من جولاتها كانت محسوبة سلفا . وكان شيء يشبه القدر يتحكم بكل حركاتها ، وبكل أفكارها تقريبا . حتى لتفوص في لحدها وهي تنبض بالحياة . وفي واحدة من حجرات هذا المنزل سوف يأتي الموت ليلقها ، سيأتي الموت الذي ليس لها فيه من رغبة لينزعها من قلب حياة لم تطلبها البتة .

اما الاحساس بأنها فريسة لقوة متقلبة الاطوار فلم يفارقها قط : انها العوبة بيد المشيئة التي تسود العالم . أما حريتها فليست سوى أضحوخة . فما نفع التحسر في الخفاء على سماجة الحياة ، ورتابتها ؟ يلزمها روح أقوى من روحها لتفلت من سجنها . ومهما بدت مسيطرة ومهما أفرغت زوجها بقسوتها ، تظل ضعيفة ، بل أكثر ضعفا من أولئك الذين توههم بقوتها .

السأم والقنوط جعلها حادة الطبع . أما تعودها على تحطيم اندفاعات طبيعتها ، فقد جعلها تحتبس على نحو أفضل ذلك السم الذي كان يفعل فعله فيها منذ اعوام . والعنف الذي تسيطر عليه بشكل دائم ، أدى الى زيادة القوة تدريجياً في قلبها حتى أمست لاتبالي بعذاب الآخرين . واذا كانت لم ترتكب البتة أية خطيئة خطيرة ، فقد يكون ضميرها مثقلاً اكثر من ضمير أشد المجرمات همجية . كانت وهي تضرب ابنها تنتشي بالدموع التي تراها تتراقص في عينيه وتتمنى لو تأتي سهوة جديدة فتسوغ لها تكرار العقوبة . كانت تزدرى ذلك

الولد الذي يذكرها بزوجها . فهو يجسد الرمز الحي لعبوديتها ، لأنها تحس بعجزها عن تركه ، بل عن الهروب منه ، ولأنه يشكل جزءاً من نظام الأشياء ذلك ، والذي فرض عليها من دون أن ترضى به . وكلما مرض الولد تولت رعايته بعناية ، لكن فرحاً طافيا كان يستولى عليها ، حتى لا تكاد تعرف ماتمتناه .

ستنقضي قريباً خمس عشرة سنة على إقامتها في الدارة التي سميت « خلوتي » من قبل مالك بليد ، ذلك أن ماهو مدعاة للسخرية كان إحدى السمات البارزة في حياة هذه المرأة . فكنية زوجها نفسها نشر الاستهزاء^(١) . وعاداته تبعث على الضحك . وقطع الأثاث التي ملا بها بيته تنم بوضوح وجلاء على ضحالة تفكيره . ولم تكن من جانبها لتجاهد ضد ذلك كله . لأن استبدال أريكة بأخرى ليس من شأنه أن يجعلها سعيدة . فالقدر اختار إذلالها ، فاستسلمت لكافة أشكال ظلمه استسلام ضحية ساخطة لكن راضخة . ويظل مالدتها من زهو كافياً للابقاء على رأسها مرفوعاً .

يقال إن الثلج يتراكم على سفوح جبال الألب . وتتكسد كتلة متماسكة بتوازن عجيب حتى يمكن لرعدة هواء أن تخلخله . ويكفي حينئذ أن يتجاوب في المنطقة صوت إنساني واحد ليتهاوى ذلك الجدار . فيولد بسقوطه انهياراً ثلجياً يزيل قرية بكاملها من الوجود . ومنتهى أمانها أن تطلق تلك الصرخة ، أن تهتف بذلك النداء الذي يحطم انتظام الثلوج الجامدة .

يوم رأت معلم ابنها لأول مرة شعرت بذلك الانطباع المدهش الذي كان يتجدد كلما استحضرت في ذهنها ذكرى ذلك اللقاء . لم تكن تهوى ذلك الرجل . فتصرفاته لوجله وتزلفه الأخرق ، أثارت نفورها . إلا أنها استطاعت ، رغم قدرتها المحدودة على الحدس ، أن تتبين منذ

(١) غروجوج تعني جودج السمين ، بل جودج المنفوخ . م .

الوهلة الأولى انها تتقاسم وإياه الكثير من الضفائن والأوهام . لا جرم أن السن وشيئاً حاداً في طبعها ، سارا بها أبعد منه بكثير على طريق وقائع الحرمان القسرية ، لكن كان يكفيها أن تدقق النظر في سحنة غيره القلقة ، وأن تعين تصرفاته الخرقاء ، وتلك النظرة الانفعالية المهمومة ، لتدرك على نحو ثابت ، أنه يتخبط في متاعب مماثلة للتي عانت منها فيما مضى . فهو أيضاً لم يكن يعرف كيف يتحكم بزمام حياته ، لكنه كان ينم على ذلك ، بينما توفر لديها من الغرور والشجاعة ما يكفي لاختفاء قصورها . وترتب عليه ، مثل ما ترتب عليها سابقاً ، أن يلاحظ هفواته إلا من بعد ارتكابها وأن لا يستخلص منها أية عبرة نافعة .

إن موهبة الاستفادة من الفرص والمناسبات قد بُتّ فيها بالنسبة للآخرين . أي لنفوس أكثر طواعية . فكثير من الناس يتعلمون السعادة ، مثلما يتعلم المرء حرفة من الحرف . ويستسلمون فرحين للقبول بالضلل تفادياً للأسوأ . وما الزيجات الخصبة وآخر أيام العمر الهنية ، وحفلات العشاء التي تجمع ثلاثة أجيال يعمها الرضى ، إلا حصيلة لمثل تلك الحكمة . لكنها كانت حيال رجل ما بَشَتْ له تلك الضبطة قط ولا ابتمت . فهو قد لا يعرف الراحة أبداً . وقد ينزل به القدر ضربته من غير أن يعلمه شيئاً ، حتى رباطة الجأش ، وحتى تقليد وجه رجل واثق مما يفعله . ويظال جهله المهنة التي اختارها نفسها : كان بوسعها مثلما أصبح معلماً أن يصير موظفاً في مصرف أو ساعياً أو بستانياً : فليس له من موقع أو مكان .

كانت ترى ذلك بكل وضوح . فينتابها الألم حيال نفسها لا حياله هو ، لأنه يمثل في نظرها المشهد الخاص بشقائها . كانت من غير أن تزدرية - أنى لها أن تزدرى امرأة يماثلها من نواح عديدة ؟ - تحقد عليه بسبب قدومه إليها ، لكنها تجنبته إيقاف زياراته . كان يشق عليها أن تراه ، ويشق عليها أكثر من ذلك بكثير الاستغناء عن حضوره . كانت تتحرق شوقاً لأن تسأله يوماً عن أحواله وأن تعرف كيف يتدبر الأمر من جهته لكي يفسد مستقبله .

لا جرم انه كان ضعيفاً وهي ما كانت تحب إلا القوة . إلا انها تحتسب له قصب السبق في واحدة : كان أقل منها صبراً . لذا سيعمد ذات يوم ، بدافع نزق في سورة غضب ، يوسعها أن تكبحها لو كانت مكانه ، الى ارتكاب حماقة اكبر من كل ما عداها ، فيفسد نظام الاشياء . بل سيتوصل الى القيام بما لم تجرؤ قط على القيام به ، لأن الحظ أحياناً قد يسعف الأغبياء .

لذلك حين علمت بوقوع جريمتين في لورج في ذات الأمسية وفي مكان واحد تقريباً ، لم تكن بحاجة لأن يقول لها زوجها حول من تحوم الشبهات . وعاشت ساعات عديدة بحالة من الرضى التام ، حتى اضطرت للانسحاب الى غرفتها كي لا ينكشف امر المشاعر التي غمرتها . لكن شيئاً ما في داخلها كان يشجب غبطتها ، وهو نسيج من ذكرى تربية مترممة كان للمؤلفات الصالحة وقراءة الكتب الدينية دور هام فيها . وفكرت داخل نفسها تقول وقد علت ثغرها ابتسامة لا إرادية : « إلا كم أنا شريرة ! » لكن تلك المعرفة التي تمتلكها عن ذاتها ما كانت لتخفف شيئاً من حماسيتها في قراءة القصة المفصلة للاكتشاف الفظيع واستعادت قراءتها في الجريدة مراراً وتكراراً . وكانت تتجاوز بعينها النهمتين كلمات وسطوراً . ورغم استعانتها بنظارة ذات مقبض ، فإنها لم تفهم إلا بشق النفس ما تقع عليه عينها ، لشدة ما سببه لها الانفعال من اضطراب في النظر . لقد تراءى لها أن لها حصة في ذلك الجرم المزدوج . استبعدت في بادئ الامر تلك الفكرة الحققاء . فهل همست على الأقل في أذن غريمه بكلمة واحدة من شأنها أن توحى إليه بارتكاب مثل تلك الجريمة ؟ لذا كانت تحرص ، وهي تقرأ الجريدة على أن تدحض داخلها كل الأفكار التي تولدها في نفسها تلك القراءة . لكنها كانت تفتقر الى الصلابة اللازمة من أجل أن تحلل بكل هدوء ما يمتلئ داخل دماغها . فتبدأ يدها ترتعش . وترى على نحو يزداد وضوحاً ، ورغم إرادتها ، علاقة غامضة تنشأ ما بينها وبين جريمة ارتكبتها شخص آخر .

وفجأة تنهض وهي تهتف : « آه ، كلا ، ما أعجب هذا ! » وترمي بالجريدة أرضاً . إنهم يضعونها أمام الأمر الواقع بكل قسوته . فيثور كل ما بداخلها ، من استقامة وتمسك بالأعراف ، ضد فكرة تواطؤ ممكن مع القاتل . وتتلبس لبضع دقائق لبوس ملهاة الفضيلة . وبالسماحتها وهي تشعر بالبراءة من جريمة على مثل تلك الفظاعة ! ومن ثم تطمئن نفسها . لكن معرفتها بذاتها تعود الى عدد كبير من السنين مما يحول دون استمتاعها طويلاً بتلك البهجة الزائفة . لم تكن تلك الجريمة لترعبها، بل تثير دهشتها وتستأثر باهتمامها . وهي لا تبالي في نهاية الأمر بأن تصيب المجتمع جانحة عنف من هذا الطراز. بل لا ينتابها تجاه ذلك المجتمع المرتعد ذعراً إلا شعور بالازدراء والحقد . من بعد جاء رجل شعر بمزيد من الحقد وواتته جراحة اكبر . فبأي حق تلومه ؟ إن ذلك الشكل من الرياء لا يتلاءم مع سننها . وخير لها أن تنظر الى نفسها دون موارد . وتنتهي دوماً الى ذلك الاستنتاج الذي يكتسب في فكرها قيمة مبدأ ، فيخفف من تحسرها لأنها ليست فاضلة .

ليس في نهاية الأمر ما يضر اذا ما أحست بروحها آئمة بعض الشيء ، حين اختار القدر لها أن تقترن حياتها بحياة رجل مثل المسيو غرو جورج ، الذي يتألق فيه الاحتشام البورجوازي الزائف بكل مظاهره . وكانت في أحاديثها الثنائية مع زوجها تسلم دون موارد بعدم نقاء قلبها . حسبها أن ترى على أي نحو من السخط ، كان ذلك العجوز الفاسق المموه ، يعلق على مصرع السيد سرسينا ، رغم أنه هو نفسه يمكن أن يتركه يموت جوعاً . وعلى اغتصاب امرأة أرغمها هو نفسه فرضت لماربه مرات ومرات ووافقت بتعس فقبضت الثمن دربهات معدودات . تلك إذن هي الحقيقة : جهل المرء لذاته يؤدي به الى موقف هزلي يقوم أثناءه باستعراض محترميته .

كانت وهي جالسة قبالة المسيو غرو جورج تصفي إليه من غير أن تقاطع حديثه المحتد . وتتحرك في نفسه نوازع الشفقة على غيره فلا يطالب بتعليقه بحبل المشنقة ، بل يهبه الحياة ، لكن بشرط أن يمضيها

تحت سماء جزيرة غويانا(١) التي لا ترحم . فلكل امرئ حقه في الحياة . وكان يتقدم بتلك البديهة كشرة تأمل عميق . فتبدو له كأنها نهاية التنازلات القصوى . ثم يعود لسيتدرك تساهله بشأن شدة العقوبة التي سيطلب بها لو كان مكان النائب العام وفيما لو بقي القبض على الجاني . أما الأسباب التي توغر صدره على ذلك الرجل فعديدة وإن كان يتحفظ كثيراً دون البوح بها . أولاً هو خائف . لقد هزه نبأ الجريمة التي ارتكبها معلم ابنه هزة وهيبة ، وكأن الموت قد مسه على حين غرة . فأمضى يومين في حالة من الفزع يرثى لها ، من غير أن يجرؤ على مغادرة بيته ، متفحصاً بعناية مجموعة مسدساته ليتأكد من صلاحيتها . كان يرى من جهة ثانية أن غيريه قد أساء استخدام الثقة التي منحه أياها يوم ادخله الى بيته . وقد يكون ذلك مأخذه الأكبر عليه . على أي حال ، لم تكن الأفكار التي تمتلئ داخل ذلك الرأس العتيق المهووس بقراءة الجرائد ، واضحة كل الوضوح . فالمجرم يتمثل له كمريض مصاب بداء معد . وعليه أن يمتنع عن التجوال ونقل العدوى الى بيوت الناس . وإذا كانت نفسه تحدثه بارتكاب جريمة ، فعليه أن يلبث في بيته ، لا أن يمضي ليدير نظراته الزائفة في صالات عليقة القوم . ذلك أن السيد غروجورج يتذكر جيداً كيف بدا غيريه بعيون زائفة صباح آخر يوم رآه فيه . وسوف يذكر ذلك حين يذهب للدلاء بشهادته . ويبقى شيء آخر وإن كان لا يقل مشقة في نظره عن باقي الأسباب : ما هو رأي غيريه فيه ؟ فالحديث الأخير الذي دار بينهما تناول فن الرسم والحب . لا بد أن ذلك البائس قد سخر في نفسه منه ومن إيضاحاته . ومن يدري إن كان يضحك الآن من اللوحات التي تلتطف السيد غروجورج فأراه إياها ؟ إن هذه الفكرة لأقسى من أن تحتل . ولو أنه عرف ، ولو أن الشك خامره لحظة واحدة في أنه يستقبل تحت سقفه وغداً على تلك الشاكلة ، لابهجه أن يطرده من بيته شر طردة . أما الآن فيالمشقة الاحساس بأن

(١) مقاطعة فرنسية صغيرة في أمريكا الجنوبية قرب البرازيل . ظلت اقرونا منفي المحكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة . م.

تكون موضع احتقار مخلوق كان بوسعك أن تصفعه ، وأن يكون قابلاً في مخبأ ما يزدريك بكل خساسة ! تلك هي الجريمة الحقيقية في نظر السيد غروج . وما اغتصاب أنجيل وقتل ذلك العجوز بأكثر من مادة تجسد سخطه ، بسبب ما لحق بفروره من امتهان خطر .

مع توالي الأيام تناقص تدريجياً حديث الصحف على موضوع الجريمة . كما أن الجاني لم يلق القبض عليه . وجرى توقيف عدد من الأشخاص فاستجوبوا ثم أطلق سراحهم . وبدأ أن التحقيق الذي جرى بحماسة في البداية قد توقف دون إعطاء نتيجة . إلا أن الهلع كان أقوى بكثير من أن يجعل الطمأنينة تعود سريعاً إلى لورج . فالأبواب تطلق بالرتاجات في ساعة مبكرة . وإذا كانت مدام لوند تنظر متوجسة تحت السرير فليست متفردة بهذا السلوك . لقد انتشرت اشاعات رهيبة . حتى إن النساء لم يعدن يغامرن بالسير على الدرب الموازي للسوميات . وما إن يهبط الظلام حتى تتخذ المنطقة المجاورة لمركم الفحم بكاملها ، شكل منطقة مسكونة بالاشباح . وكأن القاتل قد عاد إليها ليرتكب جرائم جديدة . بل إن بعض الزوايا في الشوارع كانت تهجر نهائياً بعد غروب الشمس . ولم يعد من يجد الجراة على الخروج ليلاً إلا مدام غروج .

كانت تعلم حق العلم أن ليس هناك من تخشاه . كما أنها لم تصدق الشوائع التي راجت بأن جريمتي غريه هما من فعل عصاة من الجناة . ومنذ بعض الوقت أضحى المكوث في البيت أمراً شاقاً جداً عليها . فغالبا ما تأمر بأسراج العربة لتركبها وتجوب بها المناطق الريفية المجاورة كيفما اتفق . بل تمضي أكثر في جولات على الأقدام فتجوب ضواحي لورج ، والطقس بارد وجاف ، فتمشي مشية سريعة ثم تقفل عائدة إلى الدارة ، وقد هدّتها تعب عذب فتهدأ منه أعصابها وتنعم بنوم عميق . وتسلك مدار خط سير لا تعقيد فيه ، فتسير بمحاذاة السوميات حتى تبلغ أولى بيوت المدينة المجاورة ، وإذا لم يكن الجو جو صر ، كانت تجلس على الحافة تأخذ قسطاً من الراحة وهي تتأمل جريان النهر .

لقد خلف في نفسها الحادث الضخم الذي وقع فجأة فزعزع الحياة في لورج ، ذكرى كان يروق لها أن تنعم باسترجاعها . فتذكر احتياجاتها في الدقائق الأولى ، وتذكر وجه زوجها وصوته وهو يخبرها باكتشاف الجريمتين ، ثم البهجة التي اضطرت أن تخفيها . وما أعقبها من إحساس قصير بالخجل . والنتائج التي خرجت بها من المشاعر المتنوعة جدا ، والشديدة العنف ، التي تنازعها طوال أيام عدة . فأخذت تستطيب استرجاع الدراما الصغيرة الداخلية بكافة مراحلها ، فتميشها مجددا في ذاتها ، لكنها كانت بحاجة للعزلة من أجل ذلك التمرين الفكري . فكانت تختار الابتعاد عن البيت والذهاب بعيدا في الريف حتى لا يدخل أحد يعكر عليها صفو تأملاتها .

من المرجح أيضا انجذابها لبعض المشاهد من غير أن تخمن مدى تأثيرها عليها . فهل كانت تتوجه عن عمد لتجلس على حافة النهر قريبا من الأشجار التي عثروا على أنجيل تحتها ؟ أم أن المصادفة وحدها كانت تقودها الى هناك ؟ فاي فضول كان يدفعها وأي أمل كان يداعب أحلامها ؟ لكن عالمها عالم خفي جدا . فالتربية المترتبة التي نشأت عليها أقامت حواجز عديدة ما بينها وبين قلبها ، فلم تعد بقادرة على النطق بحكم دقيق على أعمالها . فالاندفاعات الهوجاء التي لا تقاوم هي التي تملي عليها سلوكها . ولا تساورها في ذات الوقت من رغبة لاستجلاء النتائج التي يمكن أن تترتب على ما ستقوم به . جل ما يعينها يتمثل في ما تشعر به من رضى ، وهي تمثر في هذا المكان أو ذاك ، على ما كانت تبحث عنه من ذكريات وانفعالات . فيحلو لها على سبيل المثال أن تتجول في ذلك الجزء من المدينة حيث عثروا على جثة السيد سرسينا . إلا أنها كانت تعرف سلفا ذلك الفتور الذي ستخلفه ، بدءا من الغد ، تلك الجولات الانفرادية ، بعد أن تردّها ساعات النوم الطويلة الى حياتها المبتدلة ، البادئة منذ الصباح . وبعد أن يكون توقد الأمس العذب قد خبا فهو الى الحضيض .

أما رغبتها في الحركة فما كانت تستبد بها إلا في الآصال . وينتابها الميل لأن تشعر بحجارة الشوارع تحت قدميها وتحس بصلاصة أرض الطريق . وتتوالى تلك الاثارة توقداً في نفسها ، من غير أن يظهر ما ينم عليها في محياها ، حتى يأتي المساء . فكانت تندفع بخطى رشيقة حتى لا يكاد وقعها يسمع . ولا تستسلم إلا حين يهدأ التعب في نهاية النهار، فترتمي أحياناً بكامل ملابسها متهاككة فوق السرير مثل تلك الطيور التي تشاهد وهي تحوم في السماء بلا هدف محدد ، فتأتي طلقة مباغتة قاتلة لتضع حداً لطيرانها المضطرب .

عادت في أصيل أحد الأيام . كانت قد مرت شهور وبقيت ثلاثة أسابيع حتى عيد الميلاد . كانت عودتها في ساعة مبكرة أكثر مما هو مألوف . كان قلبها يوالي الخفقان . لقد ركضت ، لا لأنها في عجلة من أمرها كي تلج الصالة الصغيرة التي تمتكف فيها عادة ، بل لأنها بدت عاجزة عن السيطرة على ذاتها . ونال جسدها نصيبه من الاضطراب الرهيب الذي اجتاح نفسها . فقبل قليل ، وبينما كانت تمشي بمحاذاة الخط الحديدي متوجهة نحو جادة السوميات ، شاهدت غريبه . كان يمشي بسرعة متوجهاً نحو لورج . كان ينوي من دون شك أن يجتاز العبارة . توقفت مدام غروجورج . هو ذا الرجل الذي تبحث عنه على نحو غامض في كافة جولاتها . إنه على بضعة أمتار منها . سوف يراها بعد لحظة حين يصير فوق العبارة ، لأنها الآن تقف متخلفة عنه قليلاً وإلى الجانب الثاني من الخط الحديدي . عبرت ذهنها أفكار عديدة حتى إنها لم تأت بحركة . وبقيت ساكنة . هل تختبئ ؟ ولم ؟ كانت على العكس من ذلك ترغب في التحدث إليه . هل تناديه ؟ سيخاف ويولتي هارباً . قد لا يكون هو . لكن بلى . فالثياب البائسة التي يرتديها لم تغيره البتة . لكن حتى وهو في كامل هندامه ، يبقى في سحنه شيء يوحي بالتشرد ، وما الحركة التي كانت تراه يقوم بها ليرفع ياقة سترته سوى دليل يشي بحقيقته لديها . وحالت المفاجئة ونوع من الغبطة المشوشة دون قيام تلك المرأة بأية حركة . وبغثة استدار .

ربما شعر بنظرة تلاحقه . أول حركة بدرت عنه ، قيامه بسحب يديه من جيبه . ثم توقف . وأدركت أنه عرفها وأنه يسعى ليتبين نياتها . فوضعت إصبعها على شفيتها لتثبت الطمأنينة في نفسه ثم رفعت يدها فأومأت إليه بأن يأتي نحوها ، لكنه ظل يحدّق فيها وبعد ثوان من التردد ، حوّل وجهه ونكص على عقبيه .

حين مر من أمامها وقد طفق يجري صاححت به بصوت مخنوق :

— توقف ! أنا لا أريد بك سوءاً .

لم يصغ إليها . بعد دقيقة سيبتعد كثيراً . إلا أنها ظلت حاضرة البديهة . وبدأ الطلب اليه بالعودة ثانية بلا طائل البتة . فجرت لبضع خطى في ذات الاتجاه وصاححت به فجأة من فوق الخط الحديدي :

— سأكون هنا غدا مساء في الساعة السابعة ! لا تخش شيئاً !

ذلك المشهد على قصره يكتسي في فكرها ، وهي تجلس الآن أمام نار الحطب المتوقدة ، مظهرًا متفردًا . فقبل عشر دقائق كانت تجري على الطريق وتصيح برجل هارب منها وغير راغب في الاصفاء لما تقوله . هل ذلك ممكن ؟ وتراودها نفسها أن تجيب بالنفي . فالساعة لما تبلغ الثالثة والنصف . قد تكون أغفت وسط حرارة تلك الحجرة الصغيرة فحلمت بكل ذلك . لكن ها هي آثار التراب على جزماتها الصغيرة وأطراف ثوبها . كما أن ساقها ما زالتا ترتعشان بسبب الحركة المفاجئة التي قامت بها . ذلك أنها جرت بكل قوتها . وتذكرت صوت وقع أقدامها على الأرض ولهاثها وصيححتها وحركتها . واستعادت منظر ذلك الرجل بملابسه القدرّة . والوجه القلق والمتوحش الذي أداره إليها على حين غرة . لقد انتابته لحظة من التردد قبل أن يولي الادريار ، ذلك أنه فكر : « ماذا تريد ؟ هل ستغدر بي ؟ هل عرفتني ؟ » ثم قفل راجعاً وهو يجري ، ويجري أسرعاً فأكثر . أليكون قد سمع ما صاححت

به وهو يمر من أمامها ؟ ماذا كان يعمل في لوررج في وضوح النهار ؟ هل سيعود غدا مساء ؟

تلك الأسئلة التي طرحتها على نفسها بشكل متوال جعلتها في حالة تلهف جنوني . كان عليها أن تصيح به قائلة : اليوم مساء ، وليس : غدا مساء . فهي لن تقوى على الانتظار حتى مساء الغد أبدا . وجهدت عبثا لتسيطر على نفسها فتلبث قاعدة ، لكن تلك السكينة كانت عذابا ليس في مقدورها تحمله . وأين تعثر على الطمأنينة اللازمة من أجل أن تجتاز انتظارا يطول أكثر من يوم ؟ ذلك أنها لم تخلق للانتظار . بطء الوقت كفيل بالقضاء عليها . ولن يغمض لها جفن هذه الليلة بكل تأكيد . فالساعات التي لا تنتهي توشك أن تبدأ وعليها أن تتحمل عبثها . هناك أولا فترة الأصيل ، يليها العشاء مع زوجها - لن تتعشى - ثم عتمة الليل ، والصمت السائد في غرفتها والمصباح الذي ستضيئه ربع ساعة بعد ربع ساعة ، وساعة الحائط التي ستصفي الى دقائقها حتى مطلع الفجر . وبدت لها الفكرة تفوق كل احتمال . فنهضت وضمت يديها على صدرها كأنها تريد أن تمنع قلبها من الانفجار .

«وكررت بصوت خافت : « لا أستطيع ، لا أستطيع . »

وبعد أن فكرت بضع ثوان ، توجهت بفتة نحو الباب وخرجت .



- ٣ -

في ذات النهار ونفس الساعة تقريبا ، دقت فرناند على باب الغرفة الواقعة فوق مطعم لوند . فردت أنجيل وقد عرفت الفتاة من وقع خطاها : هذه أنت ، يا فرناند ؟ بوسعك أن تدخل .

— طاب يومك ، ألا نشعرين بالبرد هنا ؟ كان عليك أن تأتي لتتدفئي عند المدفأة في القاعة الكبرى . ليس هناك من أحد . لقد خرجت مدام لوند لتسوق .

— أنا هنا على خير ما يرام ، فلا تقلقي يا فرناند .

كانت جالسة في ركن الحجرة قرب النافذة وقد اسندت الكرسي الى الجدار . وما إن دخلت فرناند حتى وضعت فوق منضدة صغيرة ثوبا كانت تخطئه واسدلت على وجهها ذيل خمار رمادي يلف رأسها . وازافت وهي تلمس الجدار بظاهر يدها :

— هاك مدفأتك . ما حاجتي لأن انزل إليها اذا كانت تمر من هنا .

كان خط المدخنة يمر في الواقع من قلب الجدار ، فيشيع شيئا من الدفء حتى إنه أدى الى تشقق في الملاط يشاهد على شكل شرخ طويل في ورق الجدار .

قالت فرناند وهي تجلس على حافة السرير وعلى بضع خطى من أنجيل :

- لا بأس . لكن الجو هناك أفضل ومدام لوند قد خرجت .
- يمكنها أن تعود بين لحظة وأخرى . لست راغبة في رؤيتها .
- سوف تظان هكذا لا تتبادلان الكلام أبدا ؟
- نتبادل الكلام في حده الأدنى ، يا حبيبتي فرناند . لم تطرحين عليّ هذه الأسئلة كلها ؟
- وما أدراك ؟ اتحسبين أنني غير مطلعة على شيء لأنني ما أزال في الثالثة عشرة والنصف ؟ إنك على خطأ . فكثير من الفتيات يكبرنني سنا لكنهن لا يعرفن مثل الذي أعرف .
- قالت تلك الكلمات بنوع من الزهو وهي تحديق بانجيل . فأشاحت هذه بوجهها وقد تملكها الضيق ، من تلك العينين السوداوين اللتين كأنما تسميان بحثاً عن قسماتها تحت تخاريم الخمار .
- واستأنفت فرناند بعد ثوان من الصمت : « إن كنت لا تصدقين فما عليك إلا أن تسألني مدام لوند . » ثم أضافت تقول بمكر : « لكنك لا تكلمينها . لقد نسيت . »
- أنصحك بالأنا تأتي كثيراً لرؤية مدام لوند هذه . فأنت ، يا حبيبتي ، تلازمينها على الدوام . وسوف تأسفين ذات يوم لأنك أصغيت إليها .
- ولماذا ؟ أنت لا تعرفين ما نتبادل من أحاديث . إنها لطيفة في معاملتي . وتدعني أفعل ما يروق لي . ليتك تعرفين مدى ثقته بي ! فهي تقول لي على الدوام أنني صرت بالغة فلم أعد بحاجة لمراقبة . وإنني أضحيت المسؤولية الوحيدة عما أقوم به من أعمال . وأنا أفضل ذلك .

— وأمك ؟

— أمي مسرورة جداً . فهي تأخذ نصف ما أكسبه في خدمة مدام لوند . وتودع الباقي في صندوق التوفير . وحصيلتي بلغت أكثر من خمسين فرنكا .

فقلت أنجيل وقد خفت حدة نبرتها بشكل مفاجيء :

— هذه من حسن طالعك . فأمامك للمستقبل عمل كثير .

— هذا عين الكلام الذي قالت له لي أمي قبل أيام . وماما لوند تعلمني فوق ذلك أن أخيط وأن أغسل الأواني . وهذا مفيد جداً كما تعلمين .

— جداً . وماذا تطلب إليك أيضاً مدام لوند ؟

— ايه ! أكنس غرفتها وأسوي سريرها . الا تعرفين ذلك ؟ إنما أتولى بنفسني ترتيب غرفتها صباحاً . ثم أحمل الفحم إليها . لا يملك أحد غيري الحق في لمس مدفأة الأقدام : فأنا أعدها لها على الدوام ، صباحاً ومساءً .

— يا لك من فتاة بالفئة ! واراهن على انها تكلفك بتنفيذ مهامها .

— بكل تأكيد . فساقها تؤلمانها كثيراً ! هذا الطقس فقط يسمح لها بالخروج : إنها تحب الطقس البارد والجاف .

— الحمد لله . لا بد أن تكون اليوم مبتهجة . لكن أخبريني ، يا فرناند ، بأية مهام تكلفك ؟

— إسمعي . ترسلني أحيانا الى بائعة الخردوات وأحيانا الى دكان البقال . لكنني لا أذهب الى محلات التموين الأخرى أبداً . فهي

تخشى من الباعة أن يفشوني . والآن... ايه ! ولكن هذا سر وقد وعدتها بأن لا أبوح به لأحد .

— بوسعك أن تخبريني بكل شيء ، يا حبيبتي . فأنت تعرفين أن من يأتمني على شيء ، لا أفرط به على أية صورة .

— على كل حال سوف أخبرك بالأمر لأنني أعرفك حق المعرفة يا أنجيل . لكنني على ثقة من أنها لو عرفت بأنني أخبرتك ، فسوف تنتهي العلاقات ما بيننا .

— لا تخشي شيئا .

— طيب . قبل أيام أرسلتني الى محل رجل .

— ماذا تقولين ؟

— أجل . أرسلتني لأوصل رسالة الى المسيو دومين . وهو صيدلاني في شانتيلتا . قالت لي : « هل أضحيبت كبيرة لأبعث بك الى أحد الرجال ؟ » فقلت : « نعم » ، طبعاً . عندئذ سلمتني رسالة فحملتها الى المسيو دومين .

— ثم ماذا ؟ هيا ، تكلمي .

— ولكن ما بك ؟ ألسنت مسرورة ؟

— بلى ، يا حبيبتي فرناند . فقصتك تروق لي . وأرغب في معرفة تتمتها . فماذا قال لك المسيو دومين ؟

— كان في غاية الكياسة . فأعطاني شيئاً من العناب وكيساً صغيراً مليئاً بكرات العلكة . ثم أدخلني الى القسم الخلفي من محله . وهناك شرع يكلمني ويكلمني ! سألي إن كنت أحس بالبرد في

— ... —

ساقى . لانني اضع جوارب قصيرة فقط في هذا الشتاء . وانت
تعرفين ان مدام لوند لا ترضى بان اضع جوارب نسائية طويلة .
وتقول ان على المرء ان يخشوشن .

— أجل ، وبعدئذ ؟

— ثم سألني ان كنت ألبس كنزة ، كنزة جيدة ودافئة . فقلت له
نعم ، لكنه لم يشأ ان يصدقني . وأراد ان يدس أصابعه تحت
صداري بأي ثمن . هل تصدقين ؟ وأغرقت في الضحك لانه كان
يدغدغني . حتى اسقطت كيس كرات الملركة من يدي . وفي تلك
اللحظة سمع احدا داخلا الى محله . عندئذ اعطاني قطعة نقود من
فئة الفرنكين وقال لي ان ذلك مقابل عنائي ، ولانني عرضت ساقى
للبرد . ثم لما رأى انني عازمة على التقاط كرات الملركة ، قال لي
بان ادعها على الأرض واعطاني كيسا آخر . وبعدئذ اخرجني ،
لكن ليس من باب المحل وإنما من باب صغير ينفتح على دهليز .
فتمضين الى نهايته لتجدي نفسك في الشارع .

— وهل قصصت كل ذلك على مدام لوند ؟

— آه ! لكنني لم أقل لها بأنه قبلني ...

— لقد قبلك !

— أجل . ألم أخبرك بذلك ؟ أما الباقي فقصصته كله على مدام لوند .
حتى اني اريتها قطعة النقود فقالت لي ان بوسعي الاحتفاظ بها .
وإنه ليس ما يدعوني لآخبار أمي . أما الرسالة فلو علمت ؟

— الرسالة ؟

— أجل ، الرسالة الموجهة للمسيو دومين ؟

— طيب . إنه لم يلق عليها أية نظرة . واقد دسها هكذا في جيبه من غير أن يقرأها . لقد ذهب عناء كتابتها سدى !

تلا هذا الكلام فترة قصيرة من الصمت ، لبثت أنجيل أثناءها ساكنة ، مطرقة الرأس ، مستغرقة على ما يبدو في تأمل عميق ، لم تقوْ على إخراجها منه أمارات القلق التي ظهرت على وجه فرناند . ثم قالت بلهجة بدا فيها تغير مفاجيء :

— سوف تقصين في نهاية الامر ، تلك القصة كلها على والدتك . اليس كذلك ؟

— لماذا ؟ فمدام لوند قالت ان لا داعي لأن تعلم امي بالقصة .

— وأنا أقول لك ، على عكس ذلك ، إن المسألة خطيرة جدا .

فقالت فرناند بحماسة :

— كنت على خطأ حين أخبرتك . لكنك لن تعرفي أبداً ما قالته مدام كوز عنك وعن عشيقك .

فهتفت أنجيل ، وهي تهب واقفة على حين غرة :

— ماذا ؟ مدام كوز قالت شيئاً ...

— أجل . وأنا سمعتها . فقد كنت في الغرفة المجاورة منشفلة بالخياطة ، وكانت تتحدث الى مدام لوند . لكنك لن تعرفي ماذا قالت .

— فرناند ، لا يحق لك أن تصمتي . أنت تعرفين أن في ذلك القضاء علي . ينبغي أن تقولي كل شيء ، أتوسل اليك . فرناند ، ألا تسمعين ؟

— أقسمي لي بادىء ذي بدء ، أنك لن تذكري قصة الميسو دومين لاحد .

— نعم ، نعم . أقسم لك .

وجلست الى جانب البنت الصغيرة على السرير وقبضت على
كفها بيديها المرتعشتين .

قالت البنت التي بدت متلهفة للبوح بأسراها :

— كنت جالسة جانبا أخط . فطلبت الي مدام لوند أن أخرج
بسبب وجود مدام كوز ، ولأنها لا تريدني أن أبقى بجوارها حين
تستقبل أحدا من الناس .

— أجل ، أعرف ذلك .

— قالت مدام كوز بادية الامر انه لم يعد أحد يراك ، وإن زبائن
المطعم يأسفون لغيابك دون ريب . عندئذ أجابتها مدام لوند قائلة :
« تضييع واحدة فنعثر على عشر » . ولم يبد عليها الارتياح لأن مدام
كوز انخرطت بالضحك ، ثم أضافت قائلة بعد أن رفعت صوتها :
« على كل حال وضعت عيني على واحدة لتأخذ مكانها » .

— قالت ذلك ؟

— نعم . فضحكت مدام كوز مجددا وسألته ان كنت البديلة .
انا ! فكري كم كانت دهشتي . لكن مدام لوند اغتاظت منها على الفور
وطلبت اليها أن تسكت . فسكت مدام كوز فترة لا بأس بها ، ثم
سالت مدام لوند ان كانت تعتقد ، أنه سيلقى القبض في نهاية الامر
على الرجل الذي قتل السيد سرسينا ، والذي اعتدى عليك أنت أيضا .

— أجل ، وبعدئذ ؟

— لم يرق ذلك أيضا لمدام لوند . فقالت لمدام كوز انها ليست
الاجبانة . وانها بلغتها وثرثرتها تسببت في الخوف الذي يعم جميع

الناس في لورج . عندئذ عارضتها مدام كوز قليلا وردت عليها بأنها ليست وحدها في المدينة تعتقد بأن القاتل هو ... خميني من ؟

— لا أدري . قولي بسرعة .

— المسيو غرييه ، الذي قدم الى هنا مرتين والذي توارى غداة الجريمة .

— يا الهي ، ما هذا الذي تقولينه يا فرناند ؟ وبماذا ردت مدام لوند ؟ أخبريني ، قولي !

— قالت ان ذلك غير صحيح . وان عصابة من الجناة قد فعلت ذلك . وردت مدام كوز بالنفي .

وبدأتا تتصايحان . فلم أكن بحاجة للالتصاق بالقفل كي أسمعهما

— وماذا كانتا تقولان ؟ هيا ، أسرعي .

— تمهلي . لا أستطيع الاستعجال أكثر . قالت مدام كوز ما يلي : « الكل يعلم ان الجاني هو عشيق أنجيل . لاسيما وأن الشرطة تبحث عنه بينما هو لا يجرؤ على الظهور . وما ان سمعت مدام لوند ذلك حتى صرخت بها قائلة : « اخرجي من هنا ! » قالت ذلك بصوت أخافني . لكن مدام كوز لم تتوقف ، مع أنها تبدو في العادة وجلة جدا ، فظلت تغغم . وظلت مدام لوند تصرخ بصوت أشد وأقوى ، حتى تعذر عليّ أن أفهم ماذا تتبادلان من أقوال . من ثم ، شرعت مدام كوز تصيح بصوت أقوى من صوت مدام لوند فقالت : « من الجلي والواضح أنك منحازة الى جانبه . » وقالت شيئا آخر أيضا ، شيئا سبب رعدة في أوصالي .

— طيب . هيا . قولي بسرعة .

— قالت لها : « ما من سبيل الى الخطأ . فهو مختبئ هنا ! »

ارخت أنجيل يد الفتاة الصغيرة وتنحّت قليلا من غير أن تنطق بكلمة . لكنها كانت ترتعد بعنف جعل البنت تنفعل .

— ولكن مابك يا أنجيل ؟ هيا ، فذلك غير صحيح .

ورغبت في أن تحيط بدرعها الفتاة ، التي بادرت الى اسدال الخمار على وجهها بحركة غريزية . مضت بضغ ثوان دون أن تقوى أنجيل على التفوه بكلمة . ثم تحررت بتمهل من ضمة فرناند لتقول أخيراً :

— وهل قالت شيئاً آخر ؟

— كلا ، بل انصرفت من ساعتها . ألسنت على مايرام ؟ اتودين أن تتمددي ؟

فأجابت أنجيل بصوت خافت :

— أودّ لو تتركيني ، يا فرناند .

— لو كنت أدري لما رويت لك كل ذلك . الا أنني ترددت . فقد خامرني الشك في أن ذلك سيسيء اليك .

— ليست الفلطة غلطتك ، يا صغيرتي . لكن لا تكرري أمام أحد كل ما رويته لي .

— كلا ، بكل تأكيد .

بعد صمت قصير قالت الفتاة بصوت أكثر حدة :

— يا فرناند ، انني شقية ، شقية جداً . فهل تساعديني اذا ما احتجت لمعاونتك يوماً ؟

— ولكنك تعلمين حق العلم أن ذلك مؤكد .

— مضت ثلاثة شهور وأنا أعيش حياة شاقة ، يا فرناند . لم أمد أقدامي أحدا . لقد اعتقدوا بادئ الأمر أن جراحي ستشفى خلال خمسة عشر يوما . لقد اندملت تماما . لكن سيتخلف عنها شيء بشكل دائم . وأنا لا أجرو على الظهور في هذه الحال ، لكن علي أن استأنف عملي . ألا كم كنت سعيدة وأنا أعمل في المصبغة من غير أن أدرك ذلك ! هل تذكرين كم كنت جميلة ؟

— ماذا تقولين ؟ لكنك مازلت جميلة .

وهزت أنجيلر أسها .

— أنت لم تريني منذ ...

وكفت عن الكلام وبدأت متفكرة . ثم قالت بعد لحظة :

— أخبريني ، يا حبيبتي فرناند ، هل تحبينني ؟ ألا أسبب لك شيئا من الخوف ؟

— الخوف ، يا أنجيل ؟

— أجل . فأنت لا ترينني أبداً إلا وهذا الخمار يلف رأسي . وهذا وضع محزن جدا . ويتراءى لي أحيانا وأنت تحديقين بي أنك تأملين رؤية وجهي من خلال التخاريم .

فردت فرناند وقد بوغتت :

— ولكن لا .

فواصلت الفتاة قائلة بصوت عذب :

— بلى ، بلى . أنت تعرفين اني لا احدثك على هذا الامر ابداً . وكـ
يحز في نفسي التفكير بانني قد صرت بشعة . مع اطلالة كل صباح
أنظر الى وجهي في المرآة ، وأقول لنفسي احيانا إن الحال أصبحت
أفضل . وتأتي من ثم أيام يكون انطباعي فيها بأن الحال أسوأ .
ولكثرة ما رأيت نفسي على ذلك النحو ، ولشدة تفكيري بالامر طوال
النهار ، آل بي المطاف الى نوع من الجهل الكلي بحالي .

فقلت فرناند وقد أفلقتها لهجة تلك الكلمات :

— لا ينبغي أن تطيلي التفكير في ذلك .

— يسهل مثل هذا القول . لكن يلزمني على وجه الدقة ، أن يقول لي
شخص ما الحقيقة ، وأن لا يكون قد رأى وجهي منذ ثلاثة أشهر ،
كي أظهر أمامه .

— مدام لوند ستقول لك ذلك على الفور .

فقلت أنجيل بنبرة سخط :

— مدام لوند . سوف يسعدها كثيرا أن ترى ما الحقته بي من أذى .
وامتقع لون البنت فقلت :

— بل على العكس . فقد قالت لي إنها تأمل أن تراك وقد شفيت قريبا
كي تعودني لاستئناف عملي :

— لكنها هي العلة في كل شيء ، يا فرناند . ولولا انني أعرف تلك
المرأة ، لكنت الآن جميلة كما في الماضي .

ثم أمسكت بالبنت من يدها ونهضت فجأة لتأتي وتجلس قبالتها .
وقالت بمزيلة :

— لدي طلب أتوجه به إليك . ولن ترفضني على ما أعتقد ؟ قلت إنك تحبيني كثيرا . أصني الي . سوف أرفع خماري . وتأين أنت إلى جانب النافذة وتظنرين إلي . أترضين بذلك ؟ هل ترفضين ؟ واجهشت فرناند بالبكاء .

قالت أنجيل وهي ترتمي على ركبتيها أمامها :

— ماذا دهالك ؟ أنت خائفة ؟ أنت خائفة مني ؟ كنت تعانقيني بقوة فيما مضى ، أما عدت تذكرين ؟ كنت تطوقين عنقي بذراعيك وتقولين إنك لن تدعيني أنصرف . أما الآن وقد أمسيت وحيدة ، والناس كلهم يزدرونني ، فأنك تقفين ضدي ، أنت أيضا ؟ أتوسل إليك ، يا حبيبتي فرناند ، كوني طيبة معي . أوكد لك أن ليس في الأمر ما يفزع . اتحسبين أنني كنت نظرت في وجهي كل صباح ، لو كان ذلك يخيفني ؟ هناك ندبة ، هذا كل ما في الأمر . إلا أنني أشعر بالخجل وأنا أتذكر أنني ، لثلاثة أشهر خلت ، كنت أفضل من اليوم .

— متى ستخرجين إلى الشارع ؟

— متى ؟ سأخرج غدا إن قلت لي أنني لم أغير كثيرا . أترين ما يمكن أن تقدميه لي من عون ؟ لقد سلمتك نفسي . ذلك أنك أصبحت فتاة بالغة . اتلاحظين ؟ هيا .

ثم نهضت وجذبت البنث بهدوء صوب النافذة . وتراجعت لتقف عند الركن على نحو يدع بضع خطى بينها وبين فرناند :

— انتبهني . إن الانطباع الأول هو الأكثر أهمية . حاولي أن تنسي كيف كان وجهي فيما مضى وقولي لي بكل صراحة إن كنت أستطيع الخروج غدا . لكن لا تتخذي هذه الهيئة يا حبيبتي . كأنك تتوقعين

رؤية عفريت ! هيا ، لا أريد أن تكوني كئيبه على هذا النحو ،
هاك ، تخيلي أنك في المسرح .

وسكتت هنيهة ثم قالت بلهجة خطابية كمدير مسرح يعلن عن
بداية العرض :

— العرض سوف يبدأ . سيداتي ، سادتي ، الستارة سوف ترفع .
انتبهوا !

تلك الكلمات التي نطقت بصوت مخنوق تلاها صمت ثقيل . ثم
ندت من البنت صرخة ، كأن شيئاً ما قطع عليها أنفاسها بغتة . ذلك أنها
كانت تتوقع أن ترى جروحاً منفرة تعلو وجهاً مألوفاً لديها رغم كل
شيء ، لكنها رأت أمامها امرأة لا تعرفها البتة ، لها عينان زادهما القلق
اتساعاً ، واحتفظتا وحدهما بشيء من حسن ولى إلى الأبد ، مفارقاً
وجهاً جرى التنكيل به تنكيلاً بشعاً . إلا أن تناسب القسمات لم يتبدل
قط ، فالشكل المدهش الجبين والمحجرين والأنف هو على حاله ، لكن
شرخين عميقين ، بل ثلمين عريضين ، بحواشي بيضاء ، يشطبان ذلك
المحيا الداعي للرثاء أبداً . الأول يبدأ من الصدغ الأيمن فيحتفر الخد
ويقطع الشفتين كأنه يفرض الصمت عليهما . ويفتك الثاني بجانب من
الفك والذقن ويتوارى تحت الأذن . فكأن يبدأ لا تعرف الرحمة نقتم
على الصورة التي صنعتها . فأرادت محوها ، فخلقت بشطبات من قطعة
طبشور ، تلك الشروخ المتهاجة التي حملت قرار إدانتها .

أخيراً قالت أنجيل بتنهيده متوجعة :

— طيب ، لا ينبغي أن تبقي هكذا ، يا فرناند ، دون أن تقولي شيئاً .

فهمست البنت من غير أن تتحرك : « أجل » . فواصلت الفتاة
كلامها قائلة :

— لقد تعوّدت ، كما تلاحظين ، على فكرة أنني لن أعود أبداً كمثل ما كنت سابقاً ، لكنني اعتقد أنّ الوضع سيتحسن ذات يوم ، رغم كل شيء .

وبعد توقّف قصير سألتها : « ألا تعتقدين ذلك ؟ »

— بكل تأكيد ، يا أنجيل .

حين خاضت الفتاة بفروها ذلك الاختبار ، خفّ شيء من المباء الذي رزح تحته قلبها ، وبدلاً من أن تدرك البطلان المأساوي لأفكارها ، استأنفت الكلام وكأنتها حريصة على عدم سماع ما كانت البنت الصغيرة ستقوله لها :

— حين شاهدت نفسي على هذا النحو اعتقدت بادئ الأمر أنني سأقضي خجلاً . لكنّ المسألة مسألة تعوّد . لقد احتفظت بعينيّ سليميتين ، وهذا شيء أساسي . أوّاه لو تمكّن إزالة تلك العلامات البيضاء ! يترأى لي أنّ تورّد الجلد تقدّم بعض الشيء من حولها . لاحظت أنّها تشاهد في النهار على نحو أضعف وقت سطوع الشمس . ولا تبدو دميمة جداً إلّا حين أولي ظهري للنافذة . لكن ما عليّ عندئذٍ إلّا أن أطرق رأسي ، هل تفهمين ؟

وأطرقت على نحو ظهرت معه قمة رأسها ومفرق شعرها الأسود الكثيف . أمّا البنت فالتزمت جانب الصمت . كانت شاحبة اللون . وبدت وهي تضع يديها وراء ظهرها أنّها تخشى القيام بأية حركة .

قالت أنجيل :

— هيا اعترفي بأنّ الوضع ليس رهيباً بقدر ما كنت تظنين . فالمرعب هو منظر الدم ، أليس كذلك ؟ أما الندبة . . . على كل حال ، هبي أنك صادفتني في الشارع ، فهل سيتولّك الخوف ؟ هيا ؟

— كلا — .

— هذا من حسن الطالع ! بوسعي إذن أن أخرج ؟ لو تعرفين مدى ما غمرني من غبطة وأنا أجد نفسي على هذا النحو حيالك من غير حاجة لأن أحجب وجهي بخمار ! ذلك أنني صرت في النهاية أخيف نفسي بنفسى . وتبين أنني كنت بحاجة للكشف عن رأسى لأمسي مسرورة تغمري البجعة ! مضى زمن طويل من غير أن يغمري مثل هذا الشعور . أعلمى أن ما قلته لى قد عاد على بهذه السعادة .

كل ذلك الكلام تفوهت به بلسان ذرب ثم انفجرت بالضحك على نحو مفاجىء . فقد اضاءت بهجة مباغتة نظرها وتدفق الدم الى وجهها ، مما زاد من حدة البياض في ندياتها . فأية آمال تلك التي داعبت أحلامها حتى نسيت هكذا على حين غرة أياما عديدة من العذاب ؟ ثم أمسكت بالبت الصغيرة من يدها ومضت لتجلس وإياها على السرير قائلة باتزان أكبر :

— وعدتني أن تكلميني بصراحة ، يا فرناند . أصفى لما سأقوله لك . في ذهني للمستقبل مشاريع عدة . وليس في نيتى كما تعلمين أن أستمع على هذا النحو في عيشة أشبه ما تكون بعيشة السجن . ولم أعد أطيع الاستمرار في غسل ثياب مدام لوند وترقيع بياضاتها سدى . غداً سوف أخرج . هذا قرار قد اتخذته . لكن يبقى لدي الآن سؤال أطرحه عليك وهو سؤال جاد . فكري جيداً قبل أن تجيبى .

— نعم .

— أنت ما زلت فتية . لكنك قلت لى إنك تدركين الأمور مثل فتاة بالغة ، أليس كذلك ؟ طيب انظري لى جيداً . لو أن رجلاً رأى على ما أنا الآن عليه ، فهل تحسبين أنه سيجدنى دميمة ؟

— دميمة ؟ كلا ثم كلا .

— هل أنت متأكدة من أنك لا تقولين ذلك لارضائي ؟ وهل تعتقدين أن ذلك الرجل نفسه يمكن أن يقع في حبي ؟

— أجل ، يا أنجيل .

— في هذه الحال ، سوف يقترب مني ويقول لي : « يا آنسة ، أنا أحبك ! » وبعدئذ ؟

— بعدئذ ؟

— أجل ، ماذا سيفعل من بعد ؟ سوف يمسك بيدي ويعانقني .

اليس كذلك ؟ اليس هذا ما تريدين أن تقوليه ؟

— بلى ؟

وأغرقت الفتاة في الضحك . ثم أضافت :

— هل تظنين أن المسيو دومين كان سيعانقني لو كنت مكانك في ذلك النهار ؟

فأحنت البنت رأسها .

فهبت أنجيل واقفة أمامها على نحو مباغت قائلة :

— عانقيني ، أنت .

كانت تقف منتصبّة ما بين النافذة وفرناند ، مترصدة الوجه الصغير الذي أمتقع لونه لتقرأ فيه تعبيراً يطمئنها كل الطمأنينة . لكن نظرها لم يقع إلا على فم متشنج وعينين تفيضان بالدموع . لقد أحكم

مشهد ذلك الهلع عليها الخناق . لا يسع اية مرآة ، مهما يكن وضوحها
أو شراستها ، أن تريها بشاعة مصيرها بوضوح اكبر مما رآته في نظرة
الدعر التي تبدت في عيني فرناند . وشعرت ان قواها تخونها وأن ركبتها
ستثنيان . ذلك أنها تأرجحت طوال شهور بين الامل واليأس ، ثم
وجدت نفسها فجأة أمام حقيقة فظيعة . ان منظرها يثير الرعب . وهذه
البنيت ترفض أن تعانقها . فأدارت لها ظهرها على نحو مفاجيء ومشت
الى النافذة من غير أن تنطق بكلمة . كان الناس يقطعون الساحة
الصغيرة ، فيهم امرأة عجوز غضنت السنون فقط محياها ، وصبي
صغير ذو بشرة ندية . أكانوا يظنون أنها واقفة هناك وان قلبها يتفطر
حزناً ؟

تم تفكرت قائلة في نفسها :

— ربما لم تفهم . سوف أسألها من جديد .

ورجعت ناحية البنت التي ظلت تلتزم الصمت ولا تجرؤ على
الاتيان بحركة . فتحت أنجيل فاها لتتكلم لكن الاسى أخرسها . وبدت
مندهلة هي نفسها من عجزها عن النطق بما ترغب في أن تقوله من كلام .
يا للمسكينة المروعة التي كانت تخيم على الغرفة ! كان بודהا ان تصرخ ،
وان تجار بالصراخ حتى تنقطع أنفاسها ، وحتى تفارقها آخر نسمة من
الحياة ، لا سيما وان الموت هو الوسيلة التي ما من سبيل سواها
للإفلات من هذا الجحيم ؟ وبغثة خانتها ساقاها فهوت على ركبتها ،
واحاطت بذراعيها ذلك للجسد الذي يهم بالنهوض ، مرتعداً تقزراً من
لامستها ، فوضعت راسها في حضن البنت الصغيرة وتبعثر شعرها
فوق مريلتها وأجهشت بالبكاء كالمجنونة ، مطلقة عويلا متفجراً كتفجر
مظاهر بهجة فظيعة .

* * *

- ٢ -

جلست مدام لوند تنتظر زبائنها في القاعة الطويلة الكئيبة وقد تشابكت أصابعها فوق مكتبها ، واستندت قدمها الى المدفأة . لم تكن تأتي بحركة . كانت تلف كتفيها العريضين ، اللذين ازدادت استدارتهما منذ فترة قصيرة بوشاح صوفي محاك باليد . أما عيناها الساكنتان واللتان بدت نظرتهم كأنها متوجية داخليا ، فقد بدتا مستقرتين على رؤية باطنية ينعكس أساها في قسماتها . كان الاناء الصغير أمامها فارغا . الا انها أبقت عليه بفعل خوف وتطير من أن ينعكس على مصيرها تأثير أصفر تعديل على عاداتها اليومية . واذا كان الفصل قد حرمها من الازهار نهل في ذلك ما يضرها ؟ ان لديها على كل حال هموما أخرى كثيرة . فالشيء الذي يجري خطير جداً ، بل على درجة من الخطورة جعلت مدام لوند ، وقد وجدت نفسها أمام موقف لم يسبق مثيل ، تفقد كل جرأة لديها فلا تفكر حتى بالتحرك قيد أنملة أو مناداة النادل . فإين هي من الزمن الذي كانت فيه تأمر باحضار الحساء لارغام اولئك الزبائن على الحضور ؟ أما الآن فلم تعد تجرؤ على ذلك . لقد فقدت كل ثقة بتلك الوسيلة التي كانت تستخدمها أيام عزها . ألم تشهد بأم عينيها قبل أسبوع مضى ، احد عشر طبقاً يتصاعد منها بخار الحساء الساخن ، ثم تتبرد تدريجياً بانتظار وصول زبائن تأخروا في المجيء ؟

بلغت الساعة السابعة وخمسا وعشرين . وهي تعرف ذلك . فقد أحصت الدقائق ثمانية فثانية وهي تصفي لتكات رقاص الساعة الجدارية السوداء . وزاد القلق والغضب من امتزاج الصفراء في دمها فامتقع لونها من تحت طبقة المسحوق المتورّد الذي طلت به خديها .

فليس في قاعة الطعام من أحد سواها . لكنها فكرت في أنها ستلبث جالسة ، تنتظر أن ترى 'الباب يفتح واحد'هم يدخل ، حتى لو دفعت حياتها فوق مكتبها ثمنا لذلك الانتظار .

لم تكن المدفأة تتوقد بعيداً عن المائدة الكبرى فتسمع نتمتها التي كانت تجدها فيما سلف بهيجة ومريجة . هذه الحرارة تتبدد الآن سدى وسط ذلك الجو الدافئ . وها قد داهمها توعك صحي فزاد في اضطراب فكرها ، ودفعها لأن تتسأل بهلع عما ستفعله من أجل أن تبقى جالسة بالاحراك مدة ساعة ونصف وربما أكثر . فمن أين جاءها ذلك الاحساس بالغثيان الذي شرع يضيقها ؟ ذلك أنها لم تأكل شيئاً في الساعة الرابعة لاحساسها بالتقزز . وها إن قلبها الشقي الذي فعل اليأس فيه فعله قد بدأ يترنح .

تساءلت في نفسها : « لم كل هذا العذاب ؟ » لقد عرفت ، طوال سنين بحالها ، طمأنينة حياة سهلة وعادية ، بدا كل ما فيها منتظماً على نحو دائم ، من اليقظة إلى النوم إلى الوجبات ، بل حتى الأفراح والانراح . وبفئة حصل خلل هائل . وبدأت مرغمة على إعادة النظر في أقدم العادات ، وشمل الانقلاب وجودها حتى غاص إلى أعماق أغواره . فكل ساعة تحمل في طياتها انفعالا جديداً . وكل نهار يشرق منذراً بنكبة . لقد أقبل أحدهم حاملاً معه المصيبة . ذلك هو غريه . فمئذ أن تناول العشاء في المطعم وكل شيء يسير نحو الأسوأ . كان ينبغي أن يحدثها قلبها بأن ذلك الوجه المفلق ، وذلك الصمت ، لا يبشران بأي خير . فها هي انجيل قد أضحت بسببه تحتجب عن الأنظار كمن به برص . وبسببه أمست مدام لوند لا تدري بشيء مما يجري في لورج . وبدأ التأثير الذي اكتسبته على أولئك السادة يدوي شيئاً فشيئاً . اضطربت سكينه الايام المنصرمة ، ولم يعد الفضول الظلامي ينفث له من غليل . تنامى احساسها بالمهانة وشعورها بالنقمة وهي ترى الى صرح حسبته صامداً يتهاوى . ورات نفسها حيال تراكم من الآلام التي من شأن كل واحد منها أن يرهقها بمفرده ، فمن هو السبب في كل ذلك غير ذاك الوحش الذي حشته

وشجعتة على القدوم إليها ؟ إيه لو كان بوسعها أن تعرف ، أو لو أن السماء قد أنذرتها رحمته بها ! بيد أنها لم تكن تؤمن بعون الدين في ساعات المشقة التي على شاكلة هذه . فهي لا تفكر في السماء إلا في ساعات مزاجها الرائق . ففيما مضى على سبيل المثال ، حين كانت أنجيل تأتيها بشيء من المال ، مصحوبا بأقاصيص صغيرة حول هؤلاء وأولئك ، كانت مدام لوند تشعر بالحاجة لاضافة متعة أخرى على بهجة وضع خمسة فرنكات في حافظة نقودها ونشوة الاطلاع على اخبار جديدة ، الا وهي متعة الشعور بأنها شريفة . اما الآن فتعتبر نفسها مخدوعة ، مخدوعة من قبل العالم ، ومن قبل ذلك الاله الذي يصفونه بالعدل والذي كان يتسلى بتعطيل آلة حياتها البورجوازية المنسقة بكل براعة . وعليه فلن تعتمد على أحد من أجل قهر عذابها وتفادي الكوارث التي باتت قريبة ، بل ستكون وحيدة ، جالسة الى مكتبها مثل إلهة ضربتها الصاعقة فوق انقاض معبدها . بلفت الساعة السابعة والنصف . كان بودها لو تكون الثامنة أو التاسعة كي تبلغ النكبة مداها الأقصى ، ويثبت جور العناية الإلهية بالدليل القاطع مرة واحدة وإلى الأبد .

ثم تحولت من تخوف متطرف مما يخبئه الغد ، الى متعة تخيل أسوأ ما يمكن أن يقع . قرأت نفسها وقد انقض جميع زبائنها من حولها فأفلست وأضحت في حالة فقر مدقع ، ثم أصبحت تحت رحمة الدين كانوا يتهمونها بإيواء المجرم في منزلها . ذلك أن تلك التهمة الحمقاء التي ساهم الخوف في إشاعتها لقيت آذانا صاغية أكثر فأكثر . وبدأت الاحقاد ومشاعر الحسد المتجمعة ضدها في الخفاء منذ زمن طويل جدا تنذر بالانفجار دفعة واحدة ، مثلما تنتشر جائحة الوباء بعد حضانة تدوم سنين عدة . فكم حاقت بها البفضاء بسبب المكانة التي احتلتها ، والمطعم الذي كان كل واحد يتمنى زواله ، والدرهم التي وضعتها جانبا تحسبا لأيام شيخوختها ! لكنها ظلت تؤمن بتماسك الأشياء وديمومتها وصدق الأيام وبقوتها الشخصية . فأي أمل تضعه في الحياة الآن ؟ كانت الساعة تشير الى الثامنة إلا خمس وعشرين .

أما الحد الذي بلغته فبدت لها الأشياء فيه متشابهة كلها من بعد . ولم يعد في نظرها من فارق بين أن يأتي أحد أو لا . وبين أن يتناول الزبائن الحساء ساخنا أو أن يترك وشأنه حتى يبرد في آنيته . ذلك أن الضربات الناجمة عن الشدائد والمحن لا تعود تؤلم إذا ما تجاوزت الحد . هذا ما كانت تناقشه بينها وبين نفسها حين فتح الباب . وندت عن يديها ، على الرغم منها ، حركة دهشة كبتهتها لتوها . لقد دخل ثلاثة من الزبائن تلاحم واحد فثلاثة أيضا . قد يقول قائل إنهم كانوا خارجا ينتظرون عمدا ، وراء أشجار الساحة ، من أجل إثارة مخاوفها والشار مما ألحقته بهم من أهانات . وشرع قلبها يخفق بشدة ، أما حين حيوها قبل أن يجلسوا فقد ردت عليهم التحية بكل مظاهر المهابة ، بل وبشيء من اللامبالاة التي تطلبت منها جهدا كبيرا .

لو أنها رضخت فوضعت نظارتها لحظة من الزمن ، لشقيت بقراءة مظهر من الثقة على وجوه الزبائن لم تعرف البتة مثيلا له من قبل . كانوا يحدقون فيها دون أن يطرف لهم جفن . فهل السبب أنهم ما عادوا يخشونها أم أنهم باتوا مدركين أن بصرها أمسى شحيحا . وأنها لن تلاحظ على وجوههم سيماء الوقاحة ؟ بعد ذلك ببضع دقائق كانوا كلهم منهمكين بتناول الطعام . وشعرت في قرارة نفسها أنها تولد من جديد بفعل وجودهم فقط ورغم الامتهان الرهيب، الذي لحق بها لوصولهم متأخرين، فاضطرت لتقبله من غير أن تنطق بكلمة واحدة . صحيح أن عددهم ليس كاملا . حتى أن عيني مدام لوند وقعتا على الفراغ الكبير القائم في أعلى المائدة إلا أن الفرح عاد يداخلها بوجل . فما ضاع كل شيء . وأمسى من العذب ، بعد الأهوال التي خاضتها ، أن ترى القاعة تستعيد مشهدها المألوف . فالنادلان يتحركان الآن حول المائدة فيرفعان أطباق الحساء بحركات مباغتة لا سبيل إلى تقويمها أبدا . لكن مشكلة بدت مطروحة على بساط البحث . ولا بد من إيجاد حل فوري لها : هل تنترك أطباق الغائبين في الأماكن المخصصة لهم أم ترفع وتعاد إلى المطبخ؟ وأي الموقعين سوف تختار ؟ فالإعاز بترك الأطباق هو تصريح بأمل

سوف يبدو مضحكا اذا ما خاب . لكن ألن تكون الاشارة بردها الى المطبخ بمثابة اعتراف بالهزيمة ؟

أحست بوجنتيها تتوقدان نارا حين خطرت على بالها فكرة الازدراء الذي ستثيره كلماتها . ذلك أنها شعرت بما ينبئها بسوء مزاج الطاعمين من غير أن تراههم بوضوح أو تدرك فحوى ما كانوا يتبادلونه من كلام . فمنذ اسابيع وهي لا تدري شيئا مما تمتلىء به حياتهم من هموم ومباهج . فهم يتوارون وسط الغموض كأنهم يغيّبون في ظلمة تزداد سماكة شيئا فشيئا ويعجز نظرها الشحيح عن النفوذ اليها . وكلما ابتعدوا عنها ليصبحوا مجهولين ، تلاشت سلطتها عليهم . فما هي حقيقة كيائها في واقع الامر ، من غير عيني أنجيل وأذنيها ؟ وهل تفيدها قدرتها على الحدس الا في تعذيبها ؟ أليس استشمام وجود سر ، مع العجز عن إكتناه أدنى تفاصيله ، أشق على النفس من الجهل المطلق لدى امرئ لا يشك في شيء أبدا ؟ كانت من ناحيتها تشك في كل شيء ، لكن بحق السماء ، أليست الظلمة التامة بأفضل من هذا الخيط من نور ؟ كانت تعود بشريط مصائبها القهقري ، تحت وطأة عاداتها كعجوز تشوش دماغها بعامل السن وفعل الاشجان ، فتنسب أصغر الخيبات الى مصدر مشترك . واذا كان عليها أن تحسم المعضلة الصعبة المتعلقة بثلاثة أطباق صغيرة من الحساء ، فلأن زبائنهم اتخذوا العادة السيئة في الوصول متأخرين . لماذا امسوا يصلون متأخرين ؟ لأنهم ما عادوا يحترمونها . وما هو السبب الكامن وراء قلة احترامهم هذه ؟ لأنهم أخذوا يشعرون أنهم اضحوا في مأمن من فضولها ، فطفقوا يستردون استقلالهم تدريجيا . أما أنجيل التي كانت تدهن أولئك الرجال لتنتزع منهم أسرارهم الصغيرة ، فلم يعد لها من وجود . فيا للمرارة التي تحس بها حين تنكر بأنها هي مدام لوند قد اوصلت الامور الى ما وصلت اليه بغلظتها الشخصية ! أجل ، انها تتحمل في نهاية الامر كل التبعات . لانها بالحاحها جعلت ذلك الشقي يعود الى عندها بينما كان عليها أن تركله وتطرده شر طردة . ربما فكر بجريته وخطط لها وهو جالس هناك الى المائدة تحت قدميها ، بينما قامت

هي الحمقاء من غير أن تدري بتقديم المأكّل اليه ! آه ، فلترفع أطباق الحساء هذه . ولأن تسكب في قصعة الكلب أو تدلق على قارعة الطريق خير من أن تقدم لرجال !

كانت على وشك الإيعاز برفع الأطباق الثلاثة الملائى حين فتح الباب ليدخل منه السيد غونسولان (غونسولان ! كان أول من يصل فيما مضى) والسيد باريزيه . دخلا بهيئة من الزهو ، وكل منهما يضع قبعته على رأسه . استولى على مدام لوند انفعال عنيف . لا بد من حصول أمر ما ، فهذان الرجلان لا يريدان بها خيرا . كانت واثقة من ذلكا فوضعت يديها على قلبها ، كأنها تريد كبت ضرباته التي هزت صدرها . لكن لا . فقد استدارا شطرها وسلمتا عليها بوقار . ردت عليهما السلام آليا وقد نعضن وجهها بتأثير الخوف ، وتعرق كفاها داخل قفازيهما الأسودين . هل يسخران منها ؟ علام يهزان راسيهما هكذا وهما ينظران الى الباب ؟ والاخرون ، مم يضحكون ؟ أصاحت السمع فلم تلتقط الا متممة تثير الغيظ . وبغثة نقرت ، فالسيد غونسولان الذي اختار مكانا له بين بلوندو وفيرديه لم يجلس بعد . السيد غونسولان ينظر ناحيتها ويتوجه اليها بالكلام .

ماذا يقول ؟ هذا الصوت الذي يتردد كأنه وسط الضباب ، ميزت فيه طابعه الخفيض بعض الشيء ، ولكنته الريفية ، دون أن يلفها منه شيء محدد ، فلم تسمع اية كلمة واضحة . أياكون قد تعمد عدم النطق بشكل أوضح ؟ أحست بجبات العرق تتجمع حول جبينها وتسيل ببطء فوق بشرتها . فالصقت ظاهرها فوق حاجبيها سعيا لحماية المساحيق والحمرة التي طلت بها وجهها وخديها من المسيل الجاري الذي بات يتهدهدها . ثم سكت السيد غونسولان وأخذ الطاعمون ينظرون اليها منتظرين دون شك جوابا على السؤال الذي طرح عليها . تشوشت الرؤية أمام عينيها . وبدأ لها على حين غرة أن القاعة غرقت في نور يفوق كل احتمال . باستثناء الثريا الغازية التي بدت وحدها سوداء . وبدأت ثيابها تلتصق بجسدها . وأوشكت أن ترد قائلة

« طيب » كيفما اتفق حين رأت السيد غونسولان يحيط فمه بكفيه على شكل بوق ويصيح بها بصوت قوي ومقطع :

— لا تنتظري المسيو ليون ، لانه لن يأتي !

فردت قائلة « طيب » لانه لم يكن من كلمة سواها في ذهنها ، وقد أفلتت منها مثل صرخة غم . وأرغمها دوائر موجع على أن تغض طرفها ، بعد أن لحت السيد غونسولان يفرد فوطته ويجلس وسط ضحكات متعالية . لقد سقطت وانتهى أمرها ، أما ما عجز العرق عن فعله فقد تولت دموع اليأس الان انجازها ، فأخذت بكل أناة ، ترسم دربا لها داخل مساحيق التبرج والوانه بدءا بمآقي العين وحتى زاوية الفم . وما عاد احد يلقي اليها بالا . فبات بوسعها الاستسلام للعذاب حتى تنتشي حزنا . ورات بشكل مشوش عبر قطرات الدمع الكبرى التي كانت تتراقص على حوافي أجفانها ، اناء الازهار الصغير والدفتر الاسود ، اللذين يذكرانها بأشياء وأشياء . فأية فائدة ترتجى من الجري وراء الاوهام ؟ السيد ليون لن يأتي من بعد ؟ وسيجيء غدا دور واحد آخر . وبعد أسبوع سيتوجب اغلاق المطعم وركل القدر وربما الرحيل . فهي ترى بوضوح أنهم يكرهونها . وأنهم سيحيلون حياتها الى جحيم . كان عليها أن تستشم المصيبة التي ستحل بها يوم سدد السيد ليون كل المال المترتب عليه . دفع لها قرابة أربعين فرنكا . قسما ، لقد استدان ذلك المبلغ من بعض الاصدقاء أو من رب العمل . وحسبت أنه مازال في قبضتها ! وها هي كقباض على الماء !

أما الآن وقد رضخت لمواجهة الحقيقة ، فقد أدركت ما يأخذه هؤلاء الناس عليها . إنهم حاقدون عليها لأننا حرمتهم من أنجيل . فقد ظلوا يسألونها طوال أسابيع : « كيف حال أنجيل ؟ هل شفيت تماما ؟ » . وكان جوابها هو نفسه على الدوام : « لم تتحسن الى حد يسمح لها بالخروج . انتظروا » . وهل تخاطر بإثارة نفورهم من أنجيل باعادتها إليهم قبل الأوان ؟ صحيح أنها لم تقم بتفحص قسمات الشقية منذ وقت

طويل ، لأن الفتاة تتحجب منها مثلما تتحجب من سائر الناس ، لكنها تتذكر جيدا منظر وجهها المربع يوم حملوها الى المنزل . ولم تكن لتجرؤ من ناحية أخرى على أن توضح الزبائن إن جمال أنجيل قد ناله التشويه . وإن نصيبها من الشفاء التام متروك للزمن . لذا كانت ترى وسيلة للتخلص ، في الحديث عن نوبة عصبية أعقبت الاعتداء . لكن ها هي النوبة العصبية قد طالت لتدوم ثلاثة شهور حتى لم يعد أحد منهم يعتقد بصحتها .

يبقى أيضا أن مدام لوند لم تكن الوحيدة التي شاهدت ابنة اختها في الحالة المحزنة التي تركها عليها الجاني . لقد كان هناك شهود . وكل من يتخيل أن السنتهم لن تدور بما وقعت عليه أعينهم ، إنما ينم على جهل بالطبيعة البشرية . كان يقال إذن ، وفي كل مكان ، إن أنجيل اذلا كانت محتجبة عن الظهور ، فلأن أخايد جروحها باقية . وإنها أضحت دميمة الى حد يمكن أن يشير الخوف في قلوب المارة . وعبثا حاولت مدام لوند أن تقول العكس . لقد تمكنت في بادئ الأمر من إشاعة الحيرة في الراي العام . ذلك أنها كانت حتى فترة قصيرة ماضية ، ما تزال تتمتع بلسطة كبيرة . أما الآن فلم يعد يشق على المرء أن يكتشف أحابيل لعبتها . كانت العجوز التعيسة خائفة على مصير مطعمها . فطفقت تسرد ترهات آملّة أن تتفادى المصيبة التي تتهدده . لكن الدليل بات قائما ، على أن ثروتها وصيتها ، وكل ما بدا واقعا في حوزتها على الأرض من موجود وراسخ ، إنما يستند على أكثر شيء في الدنيا تقلقلا وتبدلا : استلطاف عدد من الرجال لامرأة . كان الجميع على علم بخفايا تلك القصة المشبوهة . وليس من يجهل أن مطعم لوند كان في حالة يرثى لها ، قبل أن تبدأ مدام لوند بتعهير أنجيل . وما من شك في أن القوادة العجوز استطاعت بعدئذ أن توفر مبلغا طائلا . لكن يبدو أن العدالة الإلهية لم ترض بتسنيها عرش وضع مزدهر ، إلا لتمد لها سقطة أكثر إبلاما وإذلالا .

كانت المرأة التعيسة تعرف أن الألسن تنوشها دون رحمة . لكنها لم تكن تخمن حدة الكلام وقسوته . ويقع في الخطأ كل من يحسب أنها جشعة . لأنها ، وبعد كل حساب ، خسرت مالا أكثر مما كسبت من نظام الطعام بالدين ، على النحو الذي اعتمدته . أما الطريقة الفوضوية التي كانت تمسك بها دفتر حساباتها ، فتنم على فكر يتغلب فيه الوهم والخيال على الحس بالوقائع . كانت تبدو دقيقة . لكن دقتها لا تتعدى تسجيل عدد الوجبات التي يدين لها بها كل واحد من زبائنها . وتحل نهاية الشهر لتسجل على الدوام عجزاً يتراوح بين عشر فرنكات وخمسة عشر فرنكا . فهل كانوا يسرقونها ؟ هل كانت تنسى أن تدون كافة نفقاتها ؟ إلا أنها لم تلق بالآ لذلك التبذير الذي كان ينبغي أن يقلقها . فقد قالت في نفسها إن من يدير أول مطعم في المدينة ، لا بد أن يتدبر أمره في نهاية المطاف . ويضيف صوت قائلاً في ذلك الجزء الغامض من ضميرها . حيث تختبئ أشياء كثيرة فلا تبوح بها : « لا سيما حين يكون لديه فتاة حسناء مثل أنجيل ، يضعها في متناول الزبائن . »

لكن هذا السند سلب منها على حين غرة . فالدار بدأت تنهار لأن رجلاً معتوها ضرب أنجيل على وجهها . فبدأت الشراسة التي أبدتها تجاهها القدر ، وبدا للحقد على ما ينعم به البشر من طمأنينة ! يا ليتها كانت تستطيع تلاوة الصلوات على نحو ما تقوم به العجائز المتزمتات في كنيسة سان جود ، لطرقت بلفظها وتخريفها سمع الله الذي يسمح بكل تلك الأهوال ! ويقودها تفكيرها إلى فتاة في مقتبل العمر قد جرى تشويبهها أبداً . أما المرأة الصالحة التي آوتها في بيتها فترى نفسها مهددة بفقدان كل ما تملك ، وذلك دون شك جزاء ما قدمته رحمة وإحساناً . فهاكم ، هاكم ما يدعى بالعناية الإلهية !

لا ريب في أن مدام لوند قد فكرت في كافة الوسائل الكفيلة بانقاذ وضعها المهدد . فما هو فحواها ؟ وسيلتها أن تجعل زبائنها يتجملون بالصبر إلى أن تتحسن حال أنجيل تماماً ونستعيد جمالها الضائع . أما وهم في حاجة لفتاة ، فهل من الصعوبة بمكان العثور على واحدة فتية

حسناً تقبل القيام بدور البديلة ؟ إنهم بأمر الحاجة للتنافس على نيل حظوة لدى صبية جميلة . لقد عودتهم أنجيل على ذلك النوع من الخصومة الغرامية . ويبلغ غرورهم أقصى مداه في تلك الحرب الصغيرة الشرسة التي يخوضونها منذ زمن طويل . فهل يهوون وشايات بعضهم البعض الآخر ، ونصب المكائد وإثارة الفيرة . وهل للهوى في واقع الأمر من متعة تفوق في حدتها متعة الايقاع بالخصم ؟

واحدة فتية حسناء ... لقد أمعنت مدام لوند بحثاً ، وقامت بحملتها متخذة كل ما يلزم من حيلة ، لكن دونما كبير أمل : فلاقدار لا تسوق إليك بيتيمة فائقة الحسن والجمال مرة تلو مرة . وليس بوسع واحدة متهتكة من غايات شانتيليا أن تحل محل أنجيل . حددت مدام لوند اختيارها في نهاية المطاف . كان اختياراً غريباً وقد يكون مبالغاً . وهي لم تنته إليه من فورها ، رغم أن فكرته كانت تراودها منذ وقت طويل .

كان عليها كمهمة أولى أن تختبر نوعية الطعام الذي نوت أن تقدمه لزبائنها . وفي سبيل هذه الفاية بعثت بفرناند الى الصيدلي في شانتيليا ، المسيو دومين . وقد أضحى معلوماً أن النتيجة جاءت على أحسن ما يرام ، وأن مدام لوند شعرت لدى نجاح تلك التجربة الاولى بأنها تعود للحياة من جديد . بيد أن فرحتها لم تطل : فالمسيو دومين ناهز الستين عاماً ، ورغبات المرء في مثل تلك السن بسيطة جداً ، حتى ليصعب على امرأة عاقلة أن تخرج منها بنتيجة عامة . واعادتها تلك الفكرة الى قلقها مجدداً .

ترددت في أن تعرض فرناند على زبائنها . سوف تبدو مشار هزلهم وموضع شكوكهم لو جاءت تسألهم إن كانت لديهم من رغبة في بنت صغيرة ترافقهم في نزهاتهم . فالبعض منهم أضحى معباً ضدها ، مثل المسيو غونسولان على سبيل المثال . وبوسع اثنين أو ثلاثة من الحاقدين على شاكلته أن يستغلوا الفرصة ليشيعوا عنها في المدينة تلفيقات مروعة حتى

ليمكنهم ان يشوا بها . ثم كيف لها ، من جهة أخرى ، ان تفوض أمرها الى فتاة رعناء مثل فرناند ؟ وهل تدرك هذه على الأقل كنه ما هو مطلوب منها ؟

بعثت المعلمة بالبنية الى عدد من زبائنها ، من بعد ارسالها الى الميسيو دومين ، متعلقة بدرائع واهية من شأنها ان تدلهم على القصد . لكنهم بدوا كأنهم لم يفهموا ، أو أنهم كانوا يخشون بدورهم ان يتورطوا في فضيحة مشينة . وسعت مدام لوند عبثا لأن تسبغ على الفتاة مظهرا لائقا جدا . كانت تتوالى بنفسها تمشيط شعرها ، وتدربها على التبسم بركة . كان هناك جانب من البراءة القصوى تحت مظاهر صارخة ووقحة ، يقابله جانب آخر يتجلى فيه الجبن وعدم المبالاة .

رأت مدام لوند نفسها أمام مشروع خطر ، يحسن بها الا تصر على التمسك به . سوف تدع الأمور تأخذ مجراها بنفسها . وذات يوم ، قد تراود احد أولئك السادة فكرة الاهتمام بفرناند على نحو تلقائي . ليس على مدام لوند حينذاك إلا ان تتصنع الغباء وتغض عينيها ، على نحو ما فعلت يوم بدأ الميسيو ليون يحوم حول أنجيل .

لكن الوقت أخذ يمر . وإذا كان ينبغي انتظار فرناند حتى تنضج ، وانتظار أنجيل حتى تستعيد جمال مجياها القديم ، فان مطعم لوند سيمصاب بالافلاس ، ويجعل كل تعاون بين مدام لوند وهاتين الفتاتين دون جدوى . إيه ! الا ليتها كانت أصغر سنا من الآن بثلاثين عاما ، بل بخمسة عشر ! لو كانت أصغر بخمسة عشر عاما لتدبرت أمرها بكل يسر : أصغر بخمسة عشر عاما يعني ان تكون في الأربعين تماما . عندها كانت ستصرف تلك القاصر فرناند دونما أسف ثم تلحق بها تلك الحمقاء أنجيل التي تخاذلت فتعرضت للعنف والتشويه في وضوح النهار . كانت ستصدي بمفردها ، هي مدام لوند ، لادارة مطعمين ، بل لثلاثة مطاعم مثل ذلك الذي يسبب لها الآن كل هذا العناء . وتذكرت سنين عديدة مضت ، كان الرجال فيها لا ينظرون اليها من غير ان يحبسوا تنهيدة في الصدور .

ذلك أن شعرها آنذاك كانت ضفائره الفزيرة السوداء تتزاحم فوق غرتها
وصدغيها . كانت ما تزال ندية رائحة اللون ملساء العارضين . كان ذلك
كله يبدو لها حديث العهد وجد قريب ، حتى أن تلاشي كل تلك الأشياء
الرائقة يتراعى لها الآن مثل كابوس سوف ينتهي قريباً . لكن عقلها يتدخل
دونما تأخير ليزيل ذلك الأمل الكاذب : ما الكابوس إلا حقيقة واقعة .
لقد أضحت عجوزاً دميمة ومقعدة . فكل خطوة تخطوها تكلفها تأوهة
وتفصنا في الوجه . أسنانها غدت متسوسة تنذر بضرورة اقتلاعها .
صوتها أضحى متهدجا وشعرها يتساقط خصلا خصلا . البصر غشي
منها وسمعها بات ثقيلاً ولم تعد الحياة راغبة فيها .

أخرجتها من أفكارها تلك قرقة قوية للكراسي المزاحة فنقرت .
انتهى الطاعمون من تناول عشايتهم . قد تكون هذه آخر وجبة لهم هنا .
لقد لبثت على مدى نصف ساعة جالسة أمامهم ، تحديق في تلك
المجموعة من الرجال فتلمحهم كأنهم وسط الضباب ، فهي لم تنتبه
مرة واحدة إلى ما كانوا يفعلونه أو إلى أين انتهوا في طعامهم . وها هم
يهبّون بغتة واقفين ليسددوا ما عليهم وينصرفوا . وراودتها الرغبة
في أن تنهض هي أيضاً لتلوح بيديها على نحو ما يفعله ممثل على خشبة
المسرح يؤدي دوراً ترااجيدياً ، وان تطلق صرخة كخاتمة لمشهد درامي ،
حتى لا تحتبس لفترة أطول حزناً لا يزال يمتلئ في قلبها منذ أسابيع .
إنها تود أن تعيش وأن تكون سعيدة . فما الذي يدفع بالناس لازدراءها
لاسيما وأن ضميرها لا يثقل عليها بشيء ؟ لم لا تكون شيخوختها
محترمة كشيخوخة الآخرين ؟ إنه الظلم بعينه . أما الشوائب الصغيرة
التي لحقت بها والمهانات التي تعرضت لها بصمت ، والضغائن التي
جابهتها على هذا النحو أو ذاك ، فيبدو أنها قد تكدست وتخمّرت
حقداً . ثم اختارت هذه اللحظة كي تنتش وتبدأ بالنمو . أخذ الزبائن
يمرون من أمامها الآن ، واحداً في إثر واحد ، ليسددوا قيمة الوجبة
ومقدارها فرنكان ونصف . فكلهم في هذا المساء يدفعون . وليس هناك
من حسابات للتدقيق أو كلمات يجري تبادلها . كل ما عليها أن تبقى

ساكنة تصفي لوقع القطع النقدية على رخام المكتب وهي تتكدس بين وعاء الأزهار الفارغ والدفتر المغلق .

اندفع الدم الى وجهها مثل موجة من الغضب ، وأحست به وهو يخفق تحت بشرتها ، في عنقها وحول أذنيها ، كأنما لحثها على الدخول في معركة والدفاع عن نفسها . ومع ذلك فقد ظلت صامتة ساكنة . كانت ترى الى القطع النقدية وهي تتدحرج فوق المكتب ، من غير أن تقوى يدها على التحرك ، أو يقدر فمها أن يفتح . أما تلك الوجوه الماكرة أو الساخرة التي تمر من أمامها ، فهي لم تكن لتراها . فاختلط كل ما هو واقع تحت ناظريها وغرق وسط ظلمة متعاطمة تتراقص فيها الثريا . وشعرت أن كل واحد من أولئك الرجال يلث أمامها ساعة يزديها .

وبدؤوا ينصرفون . سمعتهم يتمنون لها ليلة سعيدة من غير أن ترد عليهم .

أما وقد دقت ساعة الحائط فوق رأسها معلنة التاسعة فقد أمسكت بدفترها بحركة آلية ووضعته داخل أحد الدروج . كان النادل يطفىء الأنوار . فنهضت وغادرت القاعة بالمشية المتزنة التي علمتها إياها الشيخوخة . أما حين بلغت أول الدرج فقد وضعت نظارتها ، وشرعت ترتقي الدرجات ، وكل واحدة تثن من وطء حذائها الواسع . كان مصباح غازي مضاء في الطابق الأخير ، ينشر شيئاً من الضياء فوق رأسها وكتفيها ، ليعكس على الجدار ظلاً هائلاً وباهتاً فيبدو كأنه يمازحها مزاحاً مشؤوماً .

كانت تصعد دونما استعجال فتلهث قليلاً ، وهي حريصة على التثبت من وضع قدمها فوق الدرجة التالية . وحين بلغت الطابق الأول وصارت أمام باب انجيل ، توقفت كأن إلهاماً مباغتاً قد جاءها ، ودقت الباب بقبضتها دقة قوية . ولم يأتها الجواب بسرعة على نحو

ما كانت تريد . قد تكون انجيل نائمة . فدقت من جديد . فجاءها صوت :

— ما هذا ؟

فقالت مدام لوند وهي تفتح الباب :

— انجيل ، أنت هنا ؟

— بلى . — فقالت المعلمة بجلل كاذب :

— لقد سنّيت الأمور يا بنيتي ، وقرر هؤلاء السادة أن يقبلوا بك على ما أنت عليه .

بوسعك غداً أن تخرجي . هل تسمعينني ؟

— أجل يا خالتي .

— هيا إذن . طابت ليلتك . نوماً هنيئاً ، يا صغيرتي .

* * *

- ٥ -

انقضت قرابة ساعة ومدام غروج جورج واقفة على الطريق تفكر في الانصراف من غير أن تتوصل الى اتخاذ قرارها رغم أنها فقدت كل أمل تقريباً . كانت ترتجف بشدة وهي ترتدي معطفاً من فرو القضاة أما يداها فمتجمدتان داخل كميهما . فالثلج قد تساقط طوال النهار وبدأ الطريق الأبيض وهو يضيئ شيئاً من البهاء على ظلمة الليل .

لم يأت من أحد . ولم يكن ذلك مفاجأة لها . فمنذ ساعات النهار الأولى وهي تقول في نفسها إن من العيب لها أن تقف على قارعة الطريق، تنتظر قدوم رجل تلاحقه الشرطة ، وقد جاء مخاطرًا بحريته وربما بحياته ، تلبية لرغبة امرأة لا يحبها . إذ لم تكن تساورها من أهوام حول ما في نفس غيره من مشاعر نحوها . وهي تتذكر بكل وضوح نظرات السخط التي لمحتها في عينيه مرات عديدة . وتعلم حق العلم أنها في نظر تلك النفس المستعبدة تمثل الفن وكل ما يصحبه من أوزار . إلا أنها ستمضي رغم ذلك لتقف في المكان الذي حددته . وعبثاً يقول لها عقلها إنها ستضيع وقتها سدى . لكن متى كان العقل سيد الموقف في ساعات الحياة الحاسمة ؟

هذا ، وكل ساعة إضافية تمضيها داخل البيت ، تعني مزيداً من الغم ونفاد الصبر والاشمئزاز ، حتى لتوشك أن تفقد صوابها . فكلما تفكرت في نظام الأشياء الذي لم تقبل به ، وكيف حدد لها مكاناً خاصاً بين تلك الجدران وقطع الأثاث والتحف ، استبدت بها سورة من الغضب ، تزداد عنفاً مع معرفتها الأكيدة ، أن كل تمرد ليس وراءه

- ٢٢٨ -

من طائل . ولم يكن التعود مجديا . فهو لم يروضها . ولا تزال بعيد
سنتين عديدة من الزواج ، أشبه ما تكون بوحش لم يستطع الإذعان
لوقوعه في الفخ . وظل يدفع برأسه المدبور قضبان القفص ، كأن
عليها أن تنفجر ذات يوم بمعجزة .

كانت قد خرجت في اليوم السابق دون أن تدري أين وجهتها
فضربت في البرية وهامت لتبلغ أحيانا حد البكاء إغواء ، ولتحملها أحيانا
أخرى فكرة سعادة محتملة ، قد يخبئها لها القدر كإحدى العجائب .
فتودع ثقتها كلها ، بسداحة طفلة ، في مستقبل فوري ، رغم أن هذا
المستقبل يكذب يوميا وعود الأمس . فتففر كل شيء للقدر المسؤول عن
ماض بلا بهجة ، وحاضر كله تعاسة ، على أن يدع لها ذلك الإيمان
المحموم الذي يعمل على تناقل الأيام فيسلم الأخد للآتين ، والآتين
للثلاثاء ، وهكذا دواليك الى أن يأتي يوم يضعونها فيه داخل تابوت
أسود . ويحكمون الإغلاق عليها ، وعلى الأطوار الشاذة لقلبها التعتيس .

رجعت منهكة من تعب رمى بها فوق سريرها من غير أن يمنحها
النوم . فأعصابها المتوترة تأبى الاسترخاء . وصمت الليل ملئ بأشكال
الحفيف . والظلمة الحانكة تخترقها بقع كبيرة تشع ضياء فتعجز
أجفانها المغلقة عن حمايتها منها . قامت أخيراً فأضاءت المصباح وجلست
قرب النافذة ، على أمل أن ترى السماء من دقيقة لأخرى ، وقد بدأت
تنجلي من وراء أشجار الحديقة . ودخلت في صراع مع نفسها فصارت
تؤخر لحظة النظر الى ساعثها . وتمني النفس بوقت يتقدم ساعة عما
كانت تخمئنه فتسعددها المفاجأة . ثم أبعدتها الإحساس بالبرد عن
موقعها ، فعادت الى دفع السرير ، وأطفأت المصباح . وأخذت تعد
حتى مئتين . ثم أشعلت عود ثقاب لتجد ، وهي تتنهد خائبة ، أنها
قد أخطأت بساعة كاملة ، وأن وقت العناء مازال أمامها طويلاً لا ينتهي .

باغتها الفجر وهي بكامل ملابسها ، واقفة عند النافذة ، شاحبة
الوجه ، غائرة العينين . فمثل تلك الليالي تقودها نحو الشيخوخة

بأسرع مما يفعله الإعلان عن مصيبة كبرى . أما الآن وهي ترى النجوم قد بدأت بالافول في أعماق السماء ، وترى الدرب وهو يترأى من وسط الظلمة ، فقد أخذت تسترد شجاعتها شيئاً فشيئاً ، كأن داخل ذاتها يطلع النهار . رأت نفسها كأنها قطعت فراسخ عديدة وأنها أضحت عند نهاية مرحلة شاقة . بقي أمامها عبور فترة صباحية وفترة مساءية . لكن الدرب غدا أقل وعورة . وهناك ألف تسلية تقلل من طوله . بيد أن أياماً من مثل ذلك اليوم كانت تجعلها تشعر بفراغ وجودها . فمن بعد أن تصدر الأوامر المعهودة للخدم ، وتفتح كتاباً ثم تغلقه ، وتحلل بتراخ رموز صفحة من الموسيقى ، تكون قد استنفدت كل ما في جعبتها ، لتفوص من بعد في لجة ذلك السأم الرهيب الذي يعتبر لعنة الأغنياء . لقد تلاشى أول أمل للصباح : فبعد أن تمت بزوغ ذلك البهاء الذي تعالظ تدريجياً من فوق رؤوس أشجار الزيزفون ، أضحت الآن لا تني تتلف على قدوم الليل ، ليلفها بوشاحه من جديد . ويا لعذابها وهي تجد نفسها مرغمة على متابعة الساعات في رحيلها الذي لا ينتهي ، بينما كل ما فيها يشب ويود الانطلاق .

انقضت فترة الضحى بطيئة ثقيلة الحركة . وراودت ايضاً غروج نفسها مرات عديدة بأن تخرج للتجول ، لكنها كانت تعرف كيف ستكون في حالة مهلهلة حين تعود ، إذا ما خطت خطوة خارج الدار . فهي سوف تمضي بعيداً ، وتستنفد كل القوى التي ستكون في أمس الحاجة اليها بعد الظهيرة ، حين يتوجب عليها أن تكبح جماح نفسها ، وتسير على الطريق بتمهل في الاتجاه الاول ، ثم في الاتجاه الاخر ، وهي تنتظر رجلاً لن يأتي . لأنها كانت على يقين من أنه لن يأتي . لكنها ظلت راغبة في أن تثبت لها الوقائع أنها على حق ، حين لا تعلق على الاشياء أي أمل . وقد تجد من بعد شيئاً من الراحة ، حتى وهي تفكر بأن الحدث الذي تمنته بكل شغف لن يقع . ومن شأن ذلك أن يضع حداً للاضطراب الذي استولى عليها منذ أن رأت غريه . وسوف تستأنف حياتها ، التي تشتتت لحظة ، وتحولت لحظة عن خط سيرها الاعتيادي ، نفس

المجرى الذي تسلكه منذ عشرين عاما . وقد يكون ذلك افضل ، بل أي شيء افضل من ذلك النعم وذلك الخفقان في القلب وذلك التناوب ما بين الفرح والقلق .

كم يشق عليها أن تقول ما الذي تأمله من حديث يدور بينها وبين غيرهه . وكانت تحتريز من التفكير في ذلك الامر طويلا ، بدافع من خوف متطير من أن يؤدي توقعها المسبق الى منع الاشياء من أن تحصل . وكم لاحظت من مرة أن المستقبل يتغير مظهره دوما حين يتحول الى حاضر ، اما بعباء يقصر دون ما كان يؤمل منه ، واما بالوقوع في خطأ حول نوعية السعادة المرجوة . وتكون الحصلة كومة من الاشياء البائسة بدلا لما قام الخيال بنسجه . اليس من الحكمة اذن الالتزام الكلي بالصمت ، وقبول ما تحمله الساعات في طياتها من سام أو متعة بكل طاعة ، دون التصرف مطلقا بسام الغد ومتعته ؟

بيد أن القبول متعذر عليها . فالقبول يعني الموت . فكان يستحيل عليها مثلا أن ترضخ للمحنة اليومية المتمثلة في تناول وجبات الطعام مع زوجها . فهذا الزوج هو الاصل في كل ما تحمله للكائنات من ازدياء وهي تبغضه بغضا مهر قلبها وهيمن على حواسها . فالاضطراب قائم في رأسها حصرا . حتى أنها لم تستوعب تلك الاغراءات التي لم يخضع لها جسدها . وكان أن أعطتها العفة ثمارها وهي في الخامسة والاربعين من العمر ، فحملت اليها هديتها المفزعة المتمثلة في عشق متأخر لا طائل وراءه . وأضحى الفكر لدى هذه المرأة التي اساء قدرها معاملتها ، يثار من كل ماعداه .

كان المسيو غروجورج يمثل في نظرها صورة الشراة البشرية في اخط شكل لها . فكل حركة من حركاته ، وكل نامة تصدر عنه ، تشير وتغذي في نفسها مقنا متزايدا ابدا . فذلك الوجه المثلئ الذي يضج سعادة ، وذلك الجسد السمين الذي لم يعأ بالمرض قط ، والذي اترعته الحياة بملذاتها ، لا يستخدمهما القدر حسبما يتراءى لها الا

للاستهزاء بها وبعبادتها ، بها وبالجوع المتصاعد الى رأسها ليسبب لها الدور .

كلما تفكرت فيما كان مهياً لحياتها أن تكونه ، وهي تتذكر كيف جاءها شاب وسيم ذات يوم ، من بعد زواجها بوقت قصير ، فارتضى مولها عند قدميها . وكيف صدته بدافع هو مزيج من الفزع والنزاهة في آن معاً ، وهي تغرق في الضحك ، أحست أن لديها القدرة على قتل ذلك الهرم الذي اغتصب منها شبابها ، وقضى الى الأبد على مذاق النشوة الوحيد . وبينما كانت ذاكرتها تستعيد بدقة تفاصيل مشهد لن تنساه ابداً ، كانت تتسائل بمرارة ، وهي على بعد عشرين عاماً ، من كان أكثر مدعاة للضحك : شاب راكع أمامها ، أم هي التي صدت الهوى وقامت الآن تناديه وقد أمست على اعتاب الشيخوخة ؟

لم حاق بها ذلك الظلم كله ؟ وهل تعاني النساء الاخريات ويشقن مثلها ؟ وما فائدة الثروة والجمال ان كانت ستبقى محرومة من السعادة ؟ لقد اكتشفت أخيراً أن الذي مقتته وازدرته ، أن الحب اياه قد اشتتهه طوال حياتها . أو انها عرفت ، لو أن أحداً قال لها ، لو أن أحداً قام بأصفر عمل بر وإحسان نحو مصيرها ، لكان بوسعها ان تتذوق السعادة ، ولكانت في وضع أفضل على كل حال . أما عن فسوة قلبها فهي تعرف الحركة بل النظرة التي تسببت في ذلك . وتعرف أن هذه الكلمة فعلت في نفسها ما لا يفعله العنف الذي تشعر نحوه بالهول . لقد كرهت الطفل ، كشره لحالات القهر التي تعرضت لها ، منذ اللحظة التي أحست به يتحرك داخل أحشائها ، ورافق حقدتها عليه سني طفولته الاولى . فكانت تمتلئ نفسها وهي تعاقبه بلذة الشار الآلام التي أصابتها من ولادته ، وأدامت تعنيفه حتى جعلت منه عبداً صغيراً ينوء تحت نير الخوف ، وقلبه ممتلئ ضغينة . كانت متحجرة العاطفة وما كانت لتجبل ذلك ، الا أنها لم تكن قادرة على الاحساس بما يمكن لمثل هذه المعرفة بالذات ان تسببه من تأنيب

الضمير لدى امرأة أخرى . ولديها على كل حال من الاعذار ما يكفي لتبرير موقفها ، في نظرها هي على الأقل . انها بطبيعتها أشبه ما تكون بأرض قاحلة وعصية ، لم تهبط السماء نعمة القيث ، فلا تخرج من نبات الا ومعه عشب سام يمتزج به على نحو ما . فالمشاعر الأكثر بساطة تنحرف عن مسارها . وكل بهجة تبسي مشبوهة ، وكل حنان يتسرب اليه الفساد من منبعه . كانت في انفصامها عن كل نعميات العالم لا بدافع من فضيلة ، بل لان تعاستها تحول دون تمتعها بها - رغم استهجانها لفكرة سعادة لا يكون للحواس فيها من نصيب - تستهلك قوتها وحياتها وسط الضحالة ، وتسعى ، وهي تأكل بعضها وراء سكينه تأبى أن تفيئها بظلمها .

يسبغ لس أعماق اليأس على النفس ارتياحا غريبا ، ويمنع الشقاء الأقصى نوعا من الطمأنينة . فيغدو ميناء نعمى للروح الغريقة التي لم تعد تجرؤ على الايمان . ومثل هذه الاستغاثة الاخلاقية هي الملاذ الأكثر أمنا ، ومثل ذلك الاستسلام هو الراحة . ليست من أجل هذا تتحول على الطريق وقد تجمدت أطرافها على الرغم مما يغطي جسدها من فراء ، وهي في لهفة لبلوغ الساعة التي ستنقذها من اضطرابها وتعيدها الى يقين مصرها ؟

اما الآن وقد حل الليل ودنت اللحظة الموعودة ، فما نفع هذه الدموع التي تسيل على خديها ، وتلك التنهيدة الخفيفة الموجهة التي حرصت على خنقها داخل كميمها ؟ كانت أنانية وقاسية لكنها جريئة على الأقل . وقد تستسلم لما تخلقه تلك الانفعالات من تعب . سوف تعود بعد هنيهة الى بيتها وتصعد الى الصالة . فتخلع معطفها بحركة هادئة ، وتزيد النار وقودا . ثم تجلس فتقرأ أو تعزف على البيانو الى أن يأتي من يقول لها ان العشاء جاهز .

نظرت الى ساعتها . انها السابعة وعشر دقائق ، بل السابعة والرابع تقريبا . المسألة واضحة . لن يأتي . لقد ساوره الخوف وهذا أمر طبيعي وانتظرت ايضا دقيقتين أو ثلاث ، كنوع من تبرئة الدمة ، ثم توجهت نحو الدارة .

سمعت على الفور تقريبا قرع الجرس الذي يعلن عن الزيارات :
كان احدهم عند الباب الحديدي المشبك ، وقد قرع الجرس لتوه .



- ٦ -

- هذه انتِ ! ماذا تفعلين هنا يا انجيل ؟

- يا الهي ، لقد اخافتني سيدتي !

- من الذي تودين رؤيته ؟

- جئت اطلب عملا من سيدتي .

- يا لهذا النبا ، اقد قرونا^(١) اخيرا ان نعود الى العمل ! لكن لا تختبئي على هذا النحو يا ابنتي . يبدو لي انك كنت أكثر وقاحة فيما مضى ، اليس كذلك ؟

- كلا ، يا سيدتي .

- بلى ، يا سيدتي . اي نوع من الاعمال تطلبين ؟

- اي نوع كان ، يا سيدتي ، شيئا من الخياطة .

- الا تريدان إذن ان تعودا الى المصبة ؟ صحيح اتنا^(٢) رأينا اسمنا مطبوعا في الصحف ، فلا يسعنا ان نتواضع من بعد الى مستوى إيصال الفسيل الى الزبائن في المدينة ، اليس كذلك ؟

- لعل سيدتي تتحلّى بالشفقة .

١ - هذه الصيغة في الكلام تعني الاستهزاء والازدراء . (م)

— الشفقة ! لا ينقصني إلا أن تعطيني درساً في الاخلاق ! بل قد تحسبن انني لم اكن مطلعة على ما كان يجري هنا في بيتي .

ثم سمعت وقع خطى خادم جاء ليرد على قرع الجرس ويفتح الباب فصاحت به بلهجة جافة :

— لا داعي لأن تفتح ، يا جان . قل لسيّدك انني سأتخلف بضع دقائق عن موعد العشاء .

توقفت الخطى وعادت ادراجها . فاستدارت هي نحو انجيل بنوع من النهم الذي يظهر على وحش امامه فريسة . وتحركت في داخلها على نحو مباغت ، طاقة جديدة لرؤية الفتاة التي أحبها غيرهه ، فلاحقها وضربها . ويا لتشفيتها ، وهي تصبّ بدورها كل حقدها ، على رأس تلك المرأة المهابة ، وتثار من كل ذلك الحب الذي كان موجهاً إليها !

— لم أعد أسمح بدخول أيّ امرئ كان الى بيتي ، كما ترين . لقد تفاضيت أكثر مما ينبغي عن السفاهات التي كانت ترتكب تحت سقفي . لكن تفضلي الآن وارفعي هذا الخمار الذي يغطي وجهك ، ثم انظري إليّ نظرة مباشرة .

— لا استطيع ، يا سيدتي .

— لا تستطيعين التحديق في وجهي ؟ لا أستغرب ذلك . سوف تقومين ، على كل حال ، بالكشف عن وجهك . وإلاّ فسوف أدخل وأحظّر عليك دخول بيتي من بعد .

— ليت سيدتي تصغي إليّ لحظة . فقد جئت لاتحدث إليها في ذلك الشأن بالضبط . وسوف تدرك سيدتي وهي تراني انني لم أعد بقادرة على الظهور علناً . لذا كنت راغبة في أن اطلب من سيدتي . . .

— هيا ، قولي . ما حقيقة الأمر ؟

— لم أعدد أستطيع العيش هنا . يجب أن أرتحل عن لورج .
سأذهب الى أي مكان ، حتى الى باريس . انني شقية الى أبعد
حدود الشقاء .

— يا لها من فكرة . لكن الناس كلهم تعساء . ولو كان على المرء
أن يرتحل كلما وجد نفسه تعيساً ، لحققت شركات السكك الحديدية
ثروات طائلة . أنت ما زلت طفلة . هيا انزعي هذا الخمار ، وتعودي
منذ الآن على الظهور في الشارع . سوف تنسين كل هذا في
فضون اسبوع .

— ذلك أن لدي حاجة يستحيل أن أطلبها من سيدتي .

— لا بأس . هيا ، قولي بسرعة .

— لو تكرّمت سيدتي واقترضني شيئاً من المال .

— شيئاً من المال ؟ وما حاجتك به ؟

— من أجل أن أرتحل .

— لقد تلبستك الفكرة . قلت لي قبل قليل إنك جئت بطلبين
عملاً . كنت إذن تكذابين ؟ من هو الذي جئت تريئه هنا ؟ أنا أم المسيو
غروجورج ؟ إنني أنذرك بأن تقولي الحقيقة من أجل مصلحتك .

— لكن سيدتي لن تصفح عني .

— إتما جئت إذن لرؤية المسيو غروجورج ، من أجل أن تبتزّي
منه شيئاً من المال . . . أنا واثقة من ذلك . وكنت تنوين أن تتغني
أمامه ، مثلما كنت تفعلين من قبل ، اليس كذلك ؟

— إئتني أقسم لسيدتي ...

— أستمتهج إذن اته ما يزال لديك شيء من الحسن الذي كنت
تتباهين به كثيراً . هيتا نتر ذلك .

— هل يسعني على الأقل أن أعقد الأمل على أن سيدتي سوف
تتكرم وتساعدني ؟

— إيتها مساومة ؟ هذا مستحيل ! فيما أن تطيعيني وترفعي هذا
الخمير على الفور ، أو نفترق منذ اللحظة . واحظر عليك في هذه الحال
أن تقرعي على هذا الباب من بعد . أمّا عن المعونة التي تطلبينها فسوف
نرى . فانا لا أعدك بشيء .

— إئتني مستعدة لأن أطيع سيدتي .

— لا بأس . هيتا ، حلتي عقدة هذا الخمار .

— هذا ما أفعله . هاك .

— لكنني لا أرى شيئاً . لا شيء أبداً . هلمتي نحو ذلك المصباح .

— لو تجرات قليلاً لطرحت سؤالاً على سيدتي ... لم هي راغبة
في رؤيتي ؟

— لم أعتد على أن يستجوبني أحد ، يا ابنتي .

— ذلك أئتني أساءل ما إذا كانت سيدتي ستصاب ... بالفزع .

— أنت تحسبينني امرأة هشة . لو كانت حدود مصائبي تتوقف
عند الأثر الذي تخلفه ضربة عصا على الوجه ، لكنت راضية عن الحياة
على نحو مغاير .

— قد تتذكر سيدتي أن لون بشرتي كان متورداً دوماً ، لذا فإن الندوب تظهر بشكل واضح في مثل هذه الساعة من المساء . فالضربات انتزعت حاجباً بكامله .

— لا تطيلي الحديث وارفعي رأسك . هل نويت أن تطيعيني أم لا ؟ احذرك من أنني أزدري الدموع . هيا ، ارفعي رأسك وانظري الى المصباح . طيب . . . لقد رأيت . إن الوضع أقل بشاعة مما كنت أحسب . فالناس يغالون كثيراً ! ما من شك في أن التأديب قد نفذته يد حازمة . فبعد عدة سنوات من حياة الفجور ترتبت عليك ديون ، وكان لا بد من تسديدها ، يا ابنتي .

— هل تعتقد سيدتي أن هذه الندوب سوف تنتهي بالزوال ؟

— كلا .

— كلا !

— ما بك ؟ يبدو أنني أرميك بطلقة الرحمة . كنت تمنين النفس بزوال كل ذلك ؟ دعيني أوجه إليك نصيحة مفيدة : لا تأملي شيئاً ، لا تأملي أبداً . كنت مثلك ساذجة ، قبل وقت قصير . أما الآن فقد شفيت .

— لكن سيدتي تدرك أنه لم يعد يسعني الظهور في لورج وأنا في هذا الحال .

— ولم ذلك ؟ غطي رأسك إن كنت لا تريدين أن تصابي بالبرد . ينبغي ألا نبقي هنا . وعليّ أن أدخل الى البيت .

— لم يكن في حساباتي أن أقترض مبالغاً كبيراً من سيدتي . مئة فرنك على أبعد تقدير .

— لا ينبغي أن نعود الى هذا الموضوع . هل لديك شيء آخر
تطلبينه مني ؟

— سوف اكون شديدة الامتنان لسيدتي .

— لست بحاجة لامتنانك .

— ليت سيدتي تسمح لي على الأقل بأن اطلب من سيدتي .

— من سيدك ! لقد طفق الكيل ! لا بد أن تكوني قد فقدت صوابك .
فالسيد أولا ! لن يرضى بأن ينظر إليك ، ووجهك على ما هو عليه .
فالسيد لا يعرف الشفقة .

— سيدتي طيب جدا .

— يا غبية ! هل تحسبين أنك تبهجينني بقولك ذلك ؟ ليس في
قلب السيد من المروءة أكثر مما في قلب هذا الباب . وأنت التي جعلته
هذه الحال ، أنت وأمثالك . آه ! لا أقصد أنك أنت التي تسببت في
كل ذلك ، فقد بدأ في الواقع من قبل أن تولدي . على كل حال ،
طاب مساؤك .

— يا سيدتي !

— لا تلمسيني ، أرجوك .

— أتوسل الى سيدتي أن تصفح عني . لقد أسأت الى سيدتي
فيما مضى ، وأنا أعرف ذلك ، لكن إذا لم توافق سيدتي على معونتي
فسوف أقتل نفسي .

— طيب ، هيا ، إنها الأغنية الأبدية التي يكررها ذوو النفوس
الضعيفة . أنت إذن تعيسة الى هذه الدرجة ؟

— ليس لدى سيدتي آية فكرة عن ذلك . فمنذ شهور وأنا أشعر
أنني سافقد صوابي .

— إنني أتساءل حول حقك في كسب عطفي . لكنني أوافق على أن
أفكر في وضعك ، لأبرهن لك على أنني أقل قسوة مما يحسب بعضهم .
سوف أرى . غداً سيأتون لأخذ غسيلنا . وسوف أبلغك شيئاً بواسطة
الصفيرة فرناند .

— آه ، يا سيدتي !

— كلا ، دعي يدي . قلت لك إنني لا أريد أن تلمسيني . لكن
لا تعلقني على الأمر آمالاً عريضة جداً . وتذكري نصيحتي .

— أجل ، يا سيدتي .

مرت لحظة من الصمت ، بدت مدام غروج مترددة أثناءها ،
فقد وضعت يدها على قبضة الباب ، لكنها سألت على نحو مباغت :

— لكن ، قلبي ، لمَ لم تساعدني الشرطة في تحرّياتها ؟ فانت مصرّة
على القول إن الذي اعتدى عليك ليس غيره ، في حين أن عدّة أشخاص
قد رأوكما معاً على الطريق . أجيبي . وإذا كنت راغبة في أن أهتم
بوضعك فينبغي أن تخبريني بالحقيقة .

— ليس غيره .

— من هو إذن ؟

— لا أدري ، ولم أره . فقد ضربني من خلفي فغبت عن الوعي .

— وأولئك الشهود ؟

— الشهود يكذبون .

— لكن هيا ! فكري ، يا ابنتي . هناك مكافأة بانتظارك ، إن قلت لي الحقيقة . وإلا فسوف نفترق على الفور ، عليك بعدئذ أن تفقدي كل أمل في استدرار عطفي أو حتى في دخول بيتي . لماذا لم ترغبي في الإبلاغ عن الذي اعتدى عليك ؟

— هل يسعني أن أتأكد من أن سيدتي لن تقول ذلك لأحد ؟

— ومن تحسبيني ؟ وهل ترينني أشبه من يشي بسر ؟

— طيب ، لم أبلغ عنه لأنني كنت خائفة من انتقامه . وحتى لو القوا القبض عليه فإن بعض السجناء يهربون . فهل من ضمن لي عدم عودته الى هنا لكي يقتلني ؟

— آه ، آه ، آه !

— يا إلهي ، هل تجد سيدتي الأمر مضحكاً جداً ؟

— أجل ، فخوفك هو الذي يضحكني . وليس من شأنه أن يرفع من قيمتك في نظري . لكنك لست مختلفة عن الآخرين . وعلى هذا الأساس ، فإنه غيره إذن ؟

— أتوسل الى سيدتي ألا تكرر ذلك .

— لا تخشي شيئاً .

— هل يسعني أن آمل بأن سيدتي ستتذكرني ، وأن فرناند سوف تحمل إليّ جواباً حسناً ؟

— سوف أفي بوعدتي .

— سيدتي طيبة جداً .

— سيدتك مستقيمة ، لا أكثر ولا أقل . أما الآن ، فطاب مساؤك .

— طاب مساؤك ، يا سيدتي .

- ٧ -

أصغت لوقع خطى مدام غروجورج وهي تسلك ممشى الحديقة الرئيس ، ثم انتظرت هنيهة أمام الشبك الحديدي وكأنها تعتقد أن تلك المرأة القاسية الصلابة سوف تطل بعد ثوان معدودات وبداها ملأيان بالأوراق النقدية . وهبت ريح صرصر ففقدت أطراف الوشاح الأسود الذي يلف رأسها تحت ذقنها واستأنفت سيرها نحو المدينة .

قالت في نفسها : « لم أش به . الكل يخمن أنه هو الذي هاجمني ، لكنها وعدتني ألا تقول لأحد . »

ومهما تكن درجة ما تكنه من حقد على مدام غروجورج في واقع الأمر ، فإنها تتبين في طبيعتها الباردة والسيئة ، نفورا من الغدر يبعث الطمأنينة في نفسها . لكنها شعرت بالغبطة من ناحية أخرى لأنها لم تقل لها الحقيقة بكافة جوانبها ، ولأنها سكتت عن الأسباب التي منعتها من الإبلاغ عن المعتدي . وهل في العالم روح واحدة قادرة على أن تفهمها ؟ وما همها إن اعتبرتها مدام غروجورج خوافة ؟ بوسع تلك المرأة الفنية اللوحيحة أن ترغمها على الإجابة عن طريق التهديد بحرمانها من المساعدة ، لكنها غير قادرة مع كل ما تملكه من ذهب على أن تنتزع منها السر الذي تخبئه في صدرها . فانتابها ، رغم اليأس ، شعور بأنها خيبت أمل عدوتها ، فخفق قلبها طربا .

لا ريب في أنها قصدت لأن تقابل المسيو غروجورج . كان في نيبتها أن ترتمي على قدميه وأن تقبل يده الكريهة . لم يد لها أي هوان صعبا جدا أمام ضرورة حصولها على المال من أجل أن تهرب فصرها قد نفذ في

ذلك المساء . لقد عاشت كل حياتها في لورج . أما الآن فلم تعد تجد في نفسها القدرة على العيش فيها يوما واحدا . وبدأت تعد الساعات على نحو ما يفعل المرء قبيل سفره وتنزعج من بطء الوقت . من غير المجدي أن تتفكر في مشاريع المستقبل ، فهمها الأساسي ينحصر في مفارقة هذا المكان . لأن كل حجر فيه وكل وجه ، يذكرها بمصيبتها . كان بمقدورها أن تفعل أي شيء من أجل أن ترتحل . لقد وعدت مدام لوند بأنها ستستأنف حياتها السابقة . وكانت على استعداد لأن تعفر جبينها أمامها لو كان ذلك قمين بأن يؤمن لها المبلغ اللازم . فكل ما فعلته الشهور الثلاثة التي أمضتها منجسة في غرفتها ، أنها هدهدت مخاوفها . لقد بقي لديها شيء من الأمل ، طوال بقائها معتكفة بين سريرها ونافذتها ، وإذا لم يكن أملا في شفاء تام ، ورؤية وجهها يستعيد حسنه الأولي ، فقد كان على الأقل أملا في أن تكون مبالغة في خوفها من دماستها ، وأن تظل تروق لأعين الناظرين . لذا لجأت رغم ما تحمله الأيام الفارغة من سام ، إلى تأجيل لحظة خروجها حتى الحسد النهائي . فتلك هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على وهم هي بحاجة إليه من أجل أن تعيش . وما كانت لتفكر أن تضعه قيد التجربة عن طريق جولة في وضح النهار . لأن مرآتها ما كانت لتطمئنها . فاللحم المدمى انفلق من غير أن ترضى الندوب البيضاء بالتلاشي . ورغم أن القسمات لم تتغير فإن الحسن قد هجرها . وما الجمال إلا آية يمكن لأي شيء أن يبددها ، ولا ينبغي للمرء أن يتأمله إلا عن بعد . إنه يزول على نحو يصعب تفسيره ، على نحو ما يصعب تفسير وجوده نفسه . ولا يمسه الإنسان الا بيد تدنسه . ولقد هرب من وجه أنجيل على نحو ما يهرب من مكان رجس .

تبينت الفتاة الحقيقة . فعبثا منت نفسها بأن أنفها وفمها على حالهما ، وأن الندوب لم تكن عميقة ، لأنها لم تعد تتعرف على حالها . فالوجه الجديد كان يثبت في نفسها الفزع كلما رأت في المرأة نظرتة القلقة الهرمة . فهل كانت تفزع الآخرين أيضا ؟ لقد اعتقدت ذلك بادئ الأمر .

ثم ما لبثت أن تمثلت ، تحت تأثير ما أصابها من وهن ، فكرة غريبة تقول إنها قد أخطأت التقدير وإن عزلتها جعلتها ترى الأشياء على نحو مغلوط . وقالت في نفسها إن المرء إذا أطل النظر إلى نفسه في المرآة لا يعود يدري ما حقيقة شكله . كان بوسع مدام لوند أن تخبرها بحقيقة الأمر دون مواربة ، لكن من أين لها القوة لتتوجه إلى عدوتها بالسؤال ، لتؤكد لها دمار حسننها ؟ ناهيك بأن مدام لوند ما كانت تشعر بأية رغبة في المساس بالخمار الرهيب الأسود الذي يحجب عنها وجه أنجيل ، مثلما يحجب وجه مصرها . فيالمصيبة إذا كان الضرر غير قابل للإصلاح ! لقد فضلت الملمة مجانية عدم اليقين وقتاً طويلاً . لذا ترتب عليها أن تستنفد كل مصادر الأمل ، حتى تعلن للفتاة أن أولئك السادة قد قبلوا بأخذها مع ما هي عليه .

لم يخلف ذلك النبا في نفس أنجيل إلا أثراً ضئيلاً . فقد اكتشفت منذ البداية أن المسألة كذبة ، كما أن موقف فرناند الصغيرة ، حين كشفت لها عن وجهها ، وفزعها وصمتها ودموعها ، قد انتزع منها كل شجاعة . لقد قرأت في عيني الطفلة ، ما باتت مرآتها عاجزة عن أن تقوله لها : إن شكلها لمرعب . لقد طلبت إلى بنت صغيرة أن تعانقها . فامتقع لون تلك البنت الصغيرة ، وتراجعت من أمامها . بات عليها منذ الآن أن تتعود على أنها قد فقدت كل شيء . وبدأت حياة جديدة بالنسبة لها ، وهي حياة فتاة دميمة ؛ لكنها دميمة على نحو ينفر الحب . فهي لا تعتقد أنها وقد افزعت طفلة ، يمكن أن تستهوي رجلاً . وادركت في واقع الأمر ، رغم قلة ذكائها ، أن الرغبة تخضع لقوانين عامة تقريباً ، وأن فساداً في الحواس فقط يمكن أن يتيح لامرء ، أن يهوى وجهاً خلف عليه أحد القتلة أثراً ظاهرة بمثل تلك الوحشية .

استعادت رباطة جأشها على أثر أزمة اليأس الأولى . فالشهور التي أمضتها في كفاح مع نفسها ثبتت من عزيمتها . وافسحت لامبالاتها وفتوتها المجال ، أمام قناعة ملأى بمرارة ، تساعد على تحمل عبء

الأيام . وغدت الآن تعرف نفسها على نحو أفضل . فكل ما كانت تطلبه من عزلتها ، هو أن تكون في معزل عن الحقيقة . أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا . لقد كشفت عن وجهها أمام فرناند ، من أجل أن تعرف الأسوأ ، وتطرد من قلبها آخر الأوهام التي كانت متشبثة بها . وكان ذلك شكلا من أشكال التحرر . فما من شيء يعذب المرء ويستعبده ، مثل الأمل في سعادة أرضية . تبين لها ذلك بعد أسابيع طويلة فارغة ، يأتيها فيها كل نهار بالأحزان نفسها . تعلمت وهي قرب نافذة غرفتها العالية ، ورأسها ملفع بخمار ما عاد يفارقها ، كيف تطاوى كبرياءها ، وتخدم لهفة انتظارها . أما الساحة الصغيرة التي كانت تراقبها فيما مضى بعيون نهمة ، فلم تعد تثير فيها أي دافع فضولي ، ولم تعد تلقي نظرة عليها إلا فيما ندر . فهي تعرف أشجارها المغروسة على شكل مثلث حق المعرفة . وتعرف الحجارة غير المتساوية والمقاعد الخشبية النخرة . وتوحي لها تلك المساحة المحدودة بخشبة مسرح ، لا يقدم عليها من عرض اسدا .

كانت وهي منهمكة بترقيع الملابس التي تكلفها بها مدام لوند ، ترخي العنان لفكرها ليسلك مساره الطبيعي . فتلك الروح التي اجتاحتها الجسرة على ما فقدت ، ظلت تعرف بهجة بعينها . وهي بجهة غريبة تعتادها أحيانا فتجعلها ترتعد هلما . إنها البهجة في أن ترى أي درك من العمق بلغ بها الانحطاط . هناك شيء كان يتشبث بها ، بل ويروق لها أحيانا ، وسط نزوة القدر المرعبة حيالها ، وفي مصيبتها المباشرة . وكانت تتوقف طويلا حيال فكرة التغيير الذي شهدته يطرا على حياتها . فتتقارن أسي حرمان الحاضر بأحلام الماضي الشهوانية . وتثوب من ثم إلى رشدها على حين غرة ، فيجتاحها الألم اجتياح موجة عارمة . فأين هي ؟ وبم تفكر ؟ وماذا دهاها لتستلطف الصناعة ؟ حينئذ تتراءى لها برودة الموت وقد هبطت على كتفيها ثم احتوتها من كل جانب .

كما تعتادها أحيانا أخرى أفكار مغايرة تماما ، تأتيها متدفقة مثلما تملأ الريح منزلا مفتوح النوافذ . فتنسى بنته ، بفعل ثغرة في ذاكرتها

المرهقة من استعادة الأشياء ذاتها على الدوام ، أنها أضحت مشوهة ويدوم ذلك عدة ثوان . فتجتاحتها الرغبة في الحب مجددا ، ويتألق في عينيها غرورها الذي امتنن طويلا . ويمنحها التوهم بحسنها شعورا بالفنى والسمو يختطفها من دنياها فتقع الحاجة التي تعمل بها من بين يديها . وترى نفسها ، وسط هذا النوع من الدوار ، معبودة ، ورجلا جاثيا أمامها .

ذلك الرجل هو غيره . ويتراءى لها على نحو ما شاهدته لأول مرة ، رجلا خجولا ، وذا صوت يسعى جاهدا لتلطيفه . وكلما نظرت اليه غض طرفه . لكنها تباغته من وقت لآخر ، وتعبير وحشي يطو قسماته حين يرفع جفنيه ، ليدهشها البريق الذي يشع في مقلتيه . ما كان يوسمها أن تقول ، إن كانت الغلبة للعدوبة أم للوحشية لدى ذلك الرجل لكنها كانت تعرف فقط أنها مسيطرة عليه ، وأنه يرتعد وهو أمامها .

وتأتي نهاية تلك الهلوسة على نحو مباغت . فتجد الفتاة التعبسة نفسها في غرفتها . وتتأمل ، والهلوع يستولي عليها ، المنشقة التي كانت ترفوها ، وترى ذيل خمارها ، وكل ما يشدها الى الوقت الراهن ، ويعيدها الى عذابها . فتجهد في احياء ذكرى ما فاض به قلبها من حقد ورعب ، وهي ترى ذراع غيره ترتفع لتهوي على وجهها . لقد أصابها ما يشبه الاغماء حتى من قبل أن يضربها ، بل انها اعتقدت أن الصرخات الصادرة عن حلقها ، كانت صادرة عن فتاة أخرى ، عن امرأة يفتاونها بالقرب منها ، فكان من المستحيل عليها أن تتخيل أن حياتها معرضة للخطر . لم يكن الموت يتهدهدها هي . بل كان يتهدد تلك المرأة التي تصرخ ومع ذلك ، فيا الهول ما اتابها وهي تشعر بقبضة ذلك الرجل تسمرها الى الأرض ! ويا للهلوع الذي حملته معها تلك الصرخات المتواصلة الفرقة ! الهبت الضربة الاولى وجهها من عينها اليسرى حتى شفتها . ونزف الدم حتى حلقها . ثم غابت عن الوعي ، وحين استفاقت بعد قليل أحست بطعم مالح يلسع لسانها ، لكن الما جسديا يفوق الاحتمال اعادها الى وعيها . كان ما يشبه النار يسيل فوق وجهها . ويقطر الدم من راسها

فيفطى ذراعيها وصدرها . لم يجرؤ واحد من كل المشاهدين ، الذين
خفوا لدى سماعهم عويلها ، أن يمسها . واضطرت لأن تتوسل اليهم
حتى يعيدوها الى بيتها .

كأنت تلك الذكريات تعتصر قلبها فتضع قبضتها على أذنيها
وتغمض عينيها كأنها تريد أن تطرد من دماغها صورة العذاب الذي
تعرضت له ، لكن ذاكرتها المتصلبة ، ما كانت تتساهل معها في بعض
اللحظات الا لتقسو عليها في لحظات أخرى . حتى أن الشقية لم تكن
لتتوصل الى استبعاد تلك الرؤيا للدموع التي تذرفها وهي تستعيد
ذلك الماضي !

تذكرت ليلة غريبة أمضتها في غمرة ابتهاج عميق . كان ذلك على
أنر نزاعها مع مدام لوند . وقد قررت أن لا تعود الى غرفتها في ذلك المساء
بل أن تتجه لتنام عند إحدى صديقاتها في شانتيليا . وحرصت على
عدم اعلام أحد بالامر ، حتى أنها قامت بهروب . انها تريد الهروب .
تريد أن تهرب من مدام لوند والمطعم ، وألئك الزبائن الذين يتنازعونها
فيما بينهم . لم يكن في ذهنها آنذاك سوى هذه الفكرة . وتستعيد حالها
وهي متكئة على نافذة تطل على جادة البريست . كانت الليلة معتمة
هبت فيها الريح . وأخذت حبات المطر تتساقط من وقت لآخر فوق
شعرها وزنديتها العاريين . أما الحجرة التي أعطيت لها فكانت من
ورائها تطفح بالنور . لم يكن السرير والمنضدة والكرسيان ملكا لها
لتذكرها بشيء ما . أما في غرفتها فكل شيء يوحى بالقهر والسأم . أنها
هنا حرة . والهواء الذي يداعب محياها ليس نفس الهواء الذي يحرك
الأوراق الجافة فوق الساحة الصغيرة ، أمام مطعم لوند . كانت سعيدة
فهناك رجل مدته بحبها . وكانت على يقين ، من غير أن تعرف أين هو
أو ماذا يفعل ، من أنه يفكر فيها وأنه يتألم بسببها . وكان ذلك يروق
لها مثلما تروق الشمس للنبتة . صحيح أنه لم يكن يشبه المثل
الأعلى الذي نسجته أحلامها ، في شيء ، الا أنها كانت تجد من ناحية
أخرى كل مشقة في صد متعة الشعور بأنها معشوقة ، فتمنى لو يستمر

ذلك ، وتود أن لا يعرف ذلك الرجل شيئاً عن مغامراتها العديدة مع الآخرين أبداً . ولم يكن في نيتها أن تستسلم له يوماً ، لكنها بدأت تستعذب ذلك الحنان المبالغ الذي تلمسته لديه . وتدرك جيداً أن تصرف غريبه سيكون مختلفاً جداً لو اكتشف ما كانت تحاول إخفاءه عنه . وغالباً ما تردّد صوته الاجش في ذاكرتها وسمعت كلماته المألّى بالضغط ، وكل ما كان واقعاً خارج نطاق جسده المخلع ووجه الخالي من أية ملاحظة ويديه الثقيلتين . لم تكن تنظر إليه حين تلقاه . كانت فقط تصغي إليه وهو يتكلم ، وتنساق على غير دراية منها نحو ذكرى وجوه أخرى شاهدتها مصادفة وهي على الطريق . لكن ذلك الصوت ، وحرارة ذلك العشق المكبوت ، أسبغاً عليها بهجة لم تشعر بمثليها قط . حتى بدأت تنشف بها شيئاً فشيئاً . وفي الغد نفسه رأت غريبه في دربها وهي راجعة إلى غرفتها . فجرها إلى ما وراء الحرج الصغير ، حتى حافة النهر الذي كانت تسمع أحياناً خرير مياهه في هدأة الليالي ، حين يكون نومها مضطرباً . الاكّم كان الثمن الذي سدّدته مقابل السعادة القصيرة والضئيلة التي صورتها أحلامها باهظاً ! ليتها كانت تعرف فقط . لكن الغضب لا يلبث أن يتولاها على أثر هذه الفكرة الأخيرة . فالمرء لا يعرف أبداً متى ستغدر به الحياة . والاعتماد على الغد ، بل حتى على الساعة التالية ، شيء غير مجد . وليس من شيء أكيد إلا الموت .

ذلك ما كان يجول في ذهنها حين تركتها فرناند وولت رافضة منح هذه الفتاة التعيسة قبة تعيد الطمأنينة إلى قلبها . وما نفّح البكاء ؟ لن يعمل إلا على تورم قسماتها فتصير أكثر قبجاً . ثم نظرت إلى نفسها مطولاً للمرة العشرين منذ الصباح ، وهزت رأسها . واستبد بها على نحو مبالغت سخط على نفسها ، وعلى الله الذي يسمح بوقوع مثل تلك المظالم . فألقت بمرآتها على الأرض فهشمتها وسحقها بعقب حذاءها .

وتساءلت : « ما العمل حين يكون المرء شقياً حتى هذه الدرجة ؟ »
 أجالت نظرها في قطع الاثاث من حولها ، والجدران التي شهدت عذابها
 الطويل . ثم بدا لها أن عالم الخشب والحجارة ذاك ، قد دبّت فيه
 الحياة فأخذ يتحدث إليها . لم لا تختار الرجل ؟ لقد تمت في مسار
 هذه الحياة أشياء كثيرة . ولم تتعلق بشيء معين . فليس هنا من فكرة
 أو ذكرى لتتعلق بها وتبقىها .

وعلى هذا فحين جاءت مدام لوند وفتحت الباب لتعلمها أن
 الزمان يرغبون في رؤيتها غداً أجابت « أجل » ، حتى لا تثير جدلاً عقيماً
 لكن مخططها أصبح جاهزاً : ستتوجه الى الميسيو غروج لتطلب منه
 مالاً ثم تغادر المدينة في أسرع وقت لم يساورها الشك في امكان نجاح
 خطتها لحظة واحدة . ففباء الرجل العجوز وغروره كانا في واقع الامر
 بلا حدود . وعلمتها تجربتها الفائدة التي يمكن أن تجنيها من ذلك .
 فهي سوف تنصرف على نحو يمتد مع ذلك الرجل انها ما تزال جميلة
 رغم خمارها . ولطالما انطلت عليه أكاذيب فيما مضى . فهو سيحمل
 رفضها في رفع الخمار ، والكشف عن وجهها ، على محمل من الفنج .
 لقد كان على كل حال في أمس الحاجة للاعتقاد بحسنها ، ليصير خداعه
 ميسوراً جداً . وهي تتذكر ما كان يوقفه حضورها فقط من رغبات
 لديه ، وما يصير اليه مقدار سخائه في تلك الساعة من التلهف . لقد
 سعى الى رؤيتها مرات عديدة من بعد وقوع مصيبتها . فكانت واثقة من
 السيطرة التي يمكن أن تمارسها على ذلك المخلوق التعيس العاطل
 والشهواني . اليس ذهابها لرؤيته بعد انقطاع ثلاثة شهور كفيلاً وحده
 بملء نفسه غبطة ؟ سوف تعذه بكل ما يريده على أن يعطيها فقط المال
 اللازم لهروبها . ولن تعوزها الاكاذيب في مثل تلك الحال . لقد كانت
 تكن له كل أذراء . وتعتبره سافلاً جداً ، حتى أن خداعه لن يسبب أي
 تأنيب ضمير . حتى كان ندالة ذلك العجوز الشقي تعفيها من السلوك
 القوييم .

وتأتي إحدى نزوات القدر لتهدم ما بنته من مشاريع . فمدام
غروجورج ، تلك المرأة الفظة الغامضة ، والتي لم يقع عليها نظرها غير مرة
أو مرتين من قبل ، هي التي صادفتها على دربها ومنعتها من رؤية زوجها
ولم يكن ذلك الأمر ليدهش أنجيل لأنه يشبه مجرى حياتها . وليس
في الأمر من صدفة بل هناك شراسة قدرها ، وصروفه الفادرة المعدة
سلفا وباتقان لكنها تتخذ لبوسا عارضا لأن كنهها الباطني يتجاوز
ادراكنا .



- ٨ -

حملت مع كل ذلك وعداً من مدام غروجورج بأنها ستفكر في حالتها .
 الحصلة هزيلة . فمشهد كميم الفرو الذي كانت تدفيء به تلك المرأة
 يديها بدأ أكثر فتنة . لقد راودت أنجيل الرغبة ، أكثر من مرة أثناء
 الحديث على الطريق ، في اختطاف ذلك الفراء الثمين . الا يحتمل أن
 تكون محفظة ما مخبأة داخله ، وفي المحفظة . . . آه ! لِمَ ينبغي أن يكون
 قلب الفني على هذه الدرجة من القسوة ؟ وكم سيؤثر التخلي عن مثني
 فرنك على سير الأمور في دارة « خلوتي » ؟ هل تتدنى من جراء ذلك
 نوعية الطعام ؟ هل سيكون الهواء داخل الحجرات التي تتأجج النيران
 في مواقدتها من الصباح حتى المساء أقل دفاءً ؟ وكيف يقدر الفني أن
 ينام وقلبه طافح بذلك المقدار من الضغائن والاطماع ؟

شدت أطراف شالها فعقدتها تحت ذقنها بقوة وحشت الخطى .
 لم يعد أمامها إلا أن ترجع إلى غرفتها وترقد في سريرها ليخف إحساسها
 بالبرد . فهذا النهار الذي أمضته خارجاً ، بعد أشهر من الاعتكاف ،
 جعل التعب يهددها هداً ، حتى لم تعد تجد في نفسها القدرة على التفكير
 فيما ستفعله غداً . بل فقدت الرغبة في الكفاح . وامتلات نفسها
 بلامبالاة غمرتها شيئاً فشيئاً حيال السعادة والشقاء . شعرت بشغل
 في رأسها . لو كانت قرب نار لاغفت على الفور .

كانت تمشي على الطريق منذ بعض الوقت حين سمعت وقع ركض
 وراءها . فسردت بحركة عفوية طرف خمارها على وجهها واستدارت
 فلم ترَ أحداً . كانت بعض المصابيح الغازية تنشر بعيداً شيئاً من ضوء

شاحب فوق الثلج من غير أن تبدد الصمتة تماما . أصابها الخوف على حين غرة . فالوقع كان قريباً الى حد ينبغي معه أن ترى الشخص الذي كان يتبعها . كان الهرب أول ما تبادر الى ذهنها . إلا أن الصمت من حولها كان عميقاً جداً حتى أخذت تتساءل ما إذا كانت مخطئة . لم يكن هناك ما يدعو للخوف على كل حال . فالمسافة التي تفصل بينها وبين أول منازل المدينة لا تتجاوز المئة متر . لكنها تعرف أيضاً أن سكان لورج ما عادوا يغادرون منازلهم بعد غروب الشمس منذ أول الشتاء . فأية صرخات تلك التي ستجعل هؤلاء الجبناء يغامرون بالخروج لنجدتها ؟ وهكذا فإن مخاوفها لم تكد تهدأ إلا وعادتها على نحو أشد .

في تلك اللحظة سمعت من يناديها . ولم يتح لها الوقت حتى ترد . لقد رأت على الفور رجلاً يقبيل باتجاهها من عند حافة الطريق حيث كان مختبئاً . عرفت من منكيه وعرفته من مشيته : إنه غريه وصرخت .

فصاح بها بصوت خفيض : « اصمتي . أقسم لك بأنه لا مدعاة لخوفك . »

كان قريباً جداً الى الفتاة حتى كان يوسعها أن تميز قسما وجهه . لقد استولى عليها رعب منعها من أن تأتي بحركة . وترأى لها أن الدم تدفق من كل أنحاء جسمها نحو قلبها .

واضاف :

— إنني أخطر بحياتي من أجل أن أراك . لو أوقفوني لكان مصري السجن المؤبد وربما أسوأ . أمازلت خائفة مني ؟ أجيبني .

فهمست وهي تتراجع خطوة الى الوراء : كلا .

— سمعت شيئاً مما كنت تقولينه لمدام غروجورج قبل قليل . كنت مختبئاً بالقرب من سور الدارة . قبل يومين رايتها وأنا أطوف

في هذه النواحي ، فهربت لكنها صاحت بي أن أرجع في الفد عند الساعة السابعة . أي هذا المساء . فحضرت ثم داخلني الشك في اللحظة الأخيرة ، فاختبأت ساعة وصولها . هل صحيح إذن أنك لم تبلي الشرطة عني ؟

— أجل .

— لكن لا ترتعشي . أقسم لك بأنني لن المسك لمساً ما لم تسمحني أنت بذلك . أنجيل ، أصفي إلي . أنت تزدريني ، ليس كذلك ؟

لم تجرؤ على الإجابة خشية أن يكون قد قصد الإيقاع بها . لكن ، كم أثار ذلك الصوت من كوامن الحقد داخلها ! لقد كان يكلمها على هذا النحو يوم اقتادها آخر مرة الى حافة النهر . فأى ضعف ذاك الذي أصابها فيما بعد حتى ضللت جهود الشرطة بإنكارها أنه هو الذي اعتدى عليها ؟

سألها : « هل ستصفحين عني في يوم من الأيام ؟ »

إنها لن تسامحه أبداً . أما العار الذي تشعر أنه لحق بها ، بسبب ما أحست به من ميل نحو رجل بلغ ذلك الدرك من التفاهة ، فكان يؤلمها أيضاً أكثر من فقدانها لجمالها . إن كلمات الحب الوحيدة التي قيلت لها في وقت ما ، نطق بها صوت بلا فتوة . وهي تحتقر ذلك الصوت .

أخيراً قالت : « دعني أنصرف . »

فاستأنف يقول : أما وأنت لم تبلي عني ، فمعنى ذلك أنك سامحتني . وما هذا بدافع الخوف ، ليس كذلك ؟

وترقب لحظة أن يسمع الجواب لكن بلا جدوى . ثم سأل على حين غرة :

— لم اقتادتك مدام غروجورج ناحية المصباح ؟ ما الذي دعاها لأن تنظر إليك ؟ أنجيل ، لا يمكن أن تكون الآثار ما زالت ظاهرة على وجهك . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

ترددت هنيهة ، لكن الغلبة كانت لغورها على ضفينتها ، فقالت :

— كلا ، لا يوجد أي أثر .

وأضافت على الفور وقد ثارت في داخلها قوة لا تقاوم :

— فتيات شانتيليا هن اللواتي روّجن تلك الأقاويل بدافع الفيرة .

فأمسك بيدها كأنه يريد أن يشكرها .

— ماذا دهاني حتى فعلت ذلك ؟ لا بد أنني قد أصبت بالجنون . حسبت طوال ثلاثة أيام أنك قد مت . وحين قرأت الجريدة ، بدا لي أنني بدأت أحيا من جديد . لم أفعل إلا التفكير فيك . ولم يخطر مني على بال غير الرجوع الى هناك .

أما وقد ظلت ساكنة ، لا تسحب يدها ، فقد قال لها بغتة :

— إنني احبك ، هل تفهمين ؟ كان بوسعي أن أهرب الى الخارج ، لكنني فضلت الاختباء في باريس والمناطق المجاورة ، حتى لا أبتعد كثيراً عنك .

احسنت بلهائه الحار يلفح وجنتها ، فتراجعت أيضاً تحت تأثير ما يسببه لها ذلك الرجل من تقزز . وخشيت أن تسحب يدها مخافة أن تثير غضب غيره . لكن كلمات الحب هذه ، أثرت فيها رغم كل شيء . وتابع يقول :

— بلغ بي الأمر حد عدم الاكتراث بحريتي . لا بد أن تكون مدام غروجورج قد أشاعت في كل مكان أنها قد رأتني أمس . بل قد يكونون

الآن جادين في البحث عني . ومع ذلك فأنت ترين أنني لا أخشى التجوال في المنطقة .

— عليك أن تهرب .

— تريدين التخلص مني . أنجيل ، لديك مغامرات كثيرة ؟ هل حياتك على المنوال السابق ؟

أثارت هذه الأسئلة في نفسها من الاضطراب أكثر من كل ما قاله لها حتى الآن . كانت تتمثل في داخلها رغبة لم تسع إلى توضيحها لنفسها : كانت تزدرى ذلك الرجل . لكنها لا تقوى على مقاومة الرغبة في أن تروق له . قالت :

— كلا ، لقد انتهى كل ذلك .

أسفت على هذه الكلمات فور التلفظ بها . اذ بدا لها أن الرد بحد ذاته يجعلها ترتبط بمغامرة خطيرة . فبدلاً من أن تهرب فوراً على نحو ما أوعزت به غريزتها ، لبثت واقفة على الطريق تتحدث مع ذلك الرجل . لقد وقعت في المصيدة . قالت بحدة :

— ولم تسألني عن ذلك ؟ اترك يدي ودعني أمضي في سبيلي .

قالت ذلك وهي على الطريق الرئيسة التي تحاذي السوميات . أي تماماً كأن المشهد إياه يوشك أن يتكرر . فخافت من تلك الكلمات التي نطقت بها شفتاها رغماً عنها . بيد أنه كان ممسكاً بها بشدة حتى أنها لم تحاول التخلص .

وبغطة أضاف من غير أن يلقي بالاً إلى ما كانت تقوله :

— وماذا لو وجدت المال ؟ هل توافقين على اللحاق بي ؟

وظلت ذاهلة . ها إن أحدهم يعرض عليها ما كانت تتوسل للحصول عليه قبل قليل : وسيلة الهرب . لكن القدر قام بتنسيق هذه الهبة على نحو يجعلها غير قادرة على القبول بها . أن تهرب من الرجل الذي تكن له أشد الكراهية ! ما عسى ذلك الرجل أن يفعل حين يراها في وضع النهار ؟ لكنها قررت أن لا تتخلى عن فرصة قد تكون ثمينة . فبوسعها أن تتفكر في الأمر ملياً وهي وحدها . ولما كان الكذب كامناً في أعماق طبيعتها ارتأت أن من الخير القبول بعرض غيره ، إذا كانت ستنجح على ذلك النحو في إبعاده عنها . فسألته :

— كيف ستعثر على هذا المال ؟

— وما همك ؟ قلت لك إنه سيكون في حوزتي من الآن وحتى مساء الغد .

كانت أصابعه الدافئة تشد على معصمها داخل كم قميصها . وملأها ذلك الشد ، الصادر عن قاتل ، رعباً جعل أسنانها تصطك . وخشيت أن تتسرع بالقبول فتثير ظنون غيره . فسألته :

— إلى أين سنذهب ؟

— إلى الخارج . لدي أصدقاء في بلجيكا . وبعد عدة شهور نرجع إلى فرنسا .

وأحاطها بذراعيه :

— هل تقبلين ؟

فتمتت :

— أجل . بشرط أن تدعني أمضي في سبيلي . اتركني .

فقال وقد جنّ جنونه من الفبطة :

— اتقبلين ؟ اتقبلين أن تأتي ؟

— أجل ، دعني ، إني أقبل .

فأخذ يقبل يديها . ثم أضاف :

— وعدتني مدام غروج بأن تساعدني . إنها غنية . سأقابلها .
اتعرفين متى تخرج وإلى أين تذهب ؟

قالت في نفسها : « لو رآها لانتهى أمره . سوف تغدر به . »
اجابت :

— بعد الظهر ، في حدود الساعة الثالثة عادة . صادفتها كثيرا
ناحية شانتيليا ، وأنا ذاهبة لحمل الفسيل . ثم أضافت كأنها تحدث
نفسها : لم تكن تحبيني البتة .

— هل تخرج سيرا على الأقدام ؟

— أجل ، حين يكون الطقس صحواً ، وإلا فإنها تأخذ العربّة .

— وحدها ؟

— وحدها دائماً .

— أضرب لك موعداً هنا غدا مساءً بين المصباح الثالث والرابع بدءاً
من المصبر . كم يمكن أن تكون الساعة ؟

— الساعة والنصف .

— إذن في الساعة والنصف . سنتوجه إلى هيريكور سيرا على
الأقدام ، فما من أحد يعرفنا فيها . ومن هناك نركب القطار .

— طيب .

— أقسمي لي إنك سوف تأتيين .

— أجل ، أقسم لك على ذلك .

فقال بضحكة ملائ بالتهديد :

— سوف أعرف دوما أين أعثر عليك .

— سوف احضر . دعني أنصرف .

— إنزعي هذا الخمار وعائفيني . هل تسمحين ؟

— كلا ، كلا . لكن احذر ، هناك شخص قادم .

فتركها على نحو مباغت وارتضى جانبا وهو ينظر فيما حوله .
فهربت . وبعد ثوان معدودات كانت تمر راکضة أمام أول منازل لورج .

لقد أصفى أوقع خطاها تبتمد من غير أن يجرؤ على ملاحقتها . لم يكن من أحد قادما على الطريق ، بل لجأت الى تلك الخدعة كي ترغمه على ترك ذراعها . إلا أنه كان متيقنا من أنها ستأتي على الموعد غدا . فالخوف سيأتي بها الى ذلك المكان، وإلا فهو الحب . وتردد في الانصراف فمشى في اتجاه ثم في الاتجاه المعاكس وكان جدرانها غير مرئية تحدد تيجوله . كانت قوة خفية تقيده الى تلك البقعة من الأرض التي سيقابلها فيها . سوف تطفأ هذه الأرض على نحو ما يفعل هو الآن . ثم حرك براس قدمه موقع قدم أنجيل فوق الثلج والوحل . هنا ، في منتصف الطريق تقريبا . كانت قبل ثلاث دقائق واقفة أمامه . ولقد تركها تمضي .

بعد بضع دقائق مضى هو بدوره . كان البرد يخترق المعطف الرقيق الذي يستر جسده وبحث يده بلا جدوى عن شيء من الدفء في أسفل

جيوبه . ونشأ لديه احساس بأنه عار وسط الشمول التي أخذت تهب فتجمد الدموع على خديه ، أما قلبه فكان يطفح بشرا .

لقد عاش طوال ثلاثة أشهر ونصف في عزلة تامة ، متخفياً في الأحراج الصغيرة المجاورة . يتناول طعامه في القرى حيث يعتقد أنه في أمان . وما لبثت لحيته التي أطلقها أن غطت وجهه فجعلته غير معروف تقريباً . لم يبق ما يشي به إلاّ عينان في حركتهما الدائبة وكتفاه المحدبتان ، هذا إن خطر ببال أحد أن يدقق النظر فيه ، لكنّه ركن الى ما لدى الناس من ضعف ذاكرة . وخاطر بنفسه ذاك مساء فوصل الى شوارع لورج . سلك أول شارع وهو واثق من انه لن يصادف أحداً ثم انتقل الى شارع آخر ليصل في نهاية المطاف الى الساحة الصغيرة أمام مطعم لوند . وتراءى له أن الزمن يعود مجراه ، وإنّ كلّ ما عاناه في الأشهر الأخيرة من غمّ وربع قد زال دفعة واحدة . قد لا يكون وقع شيء مطلقاً ، ما دام واقفاً هنا بنفسه وما دام المنزل على حاله والحجارة أيضاً . هل كان يخاطر بنفسه ، لو أنه ارتكب جريمة حقاً ، فيأتي الى مكان يمكن لكل من فيه ان يبلغ عنه ؟ كان إهمال نفسه يطمئنه . أمّا استمرار عيشه مهدداً بالخطر فجعله بالذات ذلك . ناهيك بأنّ الصحف لم تعد تتحدّث عليه . وبعد أن خمد ما ثار من اضطراب في الأسابيع الأولى ، فقدت الشرطة كل امل في العثور عليه وبدأ النسيان يخيم على جريمة أضحت الآن في حجم الحوادث اليومية . وكان المجتمع قد منحه المغف .

أما لقاءه مع مدام غروجورج فقد أعاد إليه الإحساس بالخطر . لقد عرفت تلك المرأة على الفور رغبته لحيته ورغم ثيابه الرثة . فهل ستشي به ؟ إنّه لسؤال أسوء طرحه ، بل ينبغي التساؤل : لِمَ لا تشي به ؟ ما من شكّ في أنها قالت له إنها تريد مساعدته ؛ فهل كلمته على ذلك النحو المفير حتى توقع به في المصيدة ؟ وما هي الدوافع لديها حتى تهب لمساعدته ؟ فذكرى نظرة الازدراء التي طالما قراها في عينيها تثير في نفسه

أشدّ المخاوف . فأية نزوة تلك التي جعلت هذه المرأة المتعجرفة تصبح
محسنة جداً من بعد أن بالغت في إتهامه ؟

لكن بات عليه أن يتصرف بسرعة ، وإن يقابل أنجيل ، لا سيما أنه
جاء من أجل ذلك فقط ، قبل أن يندقّ ناقوس الخطر . لكن كيف
السبيل إلى رؤيتها وأين يراها ؟ لقد أطلّ الوقوف على الطريق التي
كانت تسلكها فيما مضى وهي عائدة من سانتيليا في نهاية النهار ، لكن
دون جدوى . كان يجهل في الواقع أنها لم تعد تعمل . ثم توجه بعد أن
أعيتة الحيلة إلى المكان الذي حدّثه له مدام غروجورج ووقف ينتظر
وقد تنازعه الخوف من الوقوع في شرك منصوب له ، والحرص على عدم
تفويت فرصة ممكنة . وفي اللحظة التي أوشكت مدام غروجورج أن تظهر
فيها ، استولى عليه خوف مباغت فاختبأ في العتمة قريباً من سور دارة
« خلوتي » . وشاهد تلك المرأة التي رهب جانبها دوماً ، وهي في ذهاب
وإياب على الطريق ، وقد ظهرت عليها دلائل صبر نافذ . مرت من أمامه
مرات عديدة . ما هي الأفكار التي تعتمل في ذهنها ؟ إنها برأسها الشامخ
ومشيئتها السريعة وطريقتها في التوقف المفاجيء لتدقّ الأرض بقدمها
وهي تنظر يمنة ويسرة ، قد جدّدت لديه كلّ الانطباعات التي ولّدتها
في نفسه ، حين كان يأتي لإعطاء دروس للصغير أندريه . يا له من تنغم
مدهش بين الرّوح والحركات ، حتى إنّ أحد مظاهر الجسم ، كطريقة
الاستدارة أو رفع الكتفين ، يمكن أن يكشف عن كلّ ما في القلب من
غلظة وقسوة ! لقد أحسّ بأنه يسمع صوتها المقتضب يوجّه إليه أشدّ
العبارات وقاحة . وكان في صوتها ، حتى وهي تصيح به : « لا أريد
بك سوءاً ، لا تخشَ شيئاً ! » نبرة سيّدة نبيلة تفرّع أحد الخدم .
وها هو قد جاء ينتظر منها إحساناً ! لم لا يتوجّه إلى البلدية طالباً
منها العون ؟

ملأه وصول أنجيل غبطة لم يقوْ على احتوائها إلا بدافع الحذر . لم
يكن على مقربة كافية من المرأتين ليسمع حديثهما أمام الشبكة الحديدية ،
إلا إذا رفعتا صوتيهما ، وهذا ما حصل حين أمرت مدام غروجورج

انجيل بأن تريها وجهها . ورغم انّ غيرته تاجّجت لذكرى الرسالة التي قرأها المسيو غروجورج عليه ذات يوم ، فقد شكر الظروف التي سادت انجيل لان ترى المعجوز من جديد .

في الوقت الراهن اضحت امرأتان تعرفان أنّه موجود في لورج . واحدة منهما تزدريه ، والأخرى لديها الأسباب الكافية لأن ترهبه وتكرهه ، وعليه أن يكون مخبولا إذا ما اعتقد بأنهما ستكتتمان سرّه . كما بات في يد انجيل أن تثار منه بكل يسر : حسبها أن تبلغ الشرطة من مكان الموعد ليقع في الفخ الذي يكون قد أعدّه بيده الى حد ما . وقد يكون الإبلاغ حاصلًا فيما هو يفكر دون طائل في الاحسان الذي يمكن أن تجود به عدوّتان عليه .

إلاّ أنّه لم يكن يفكر في الهرب . فمسألة بقائه طليقًا ، أو تمضية ما تبقى من حياته داخل أسوار المعتقل ، كانت مطروحة عليه في مظاهر مختلفة . فلو تفحصها عن كثب ، لبدا من الحمق التردّد بين السجن والحرية ولو ثانية واحدة . ولكي يتفادى إلقاء القبض عليه ، كان يمكنه أيا ما عديدة في قرية بعينها . هذه الطريق تبدو له آمنة أكثر من تلك ، وهذه السلسلة أكثر ملائمة من غيرها . لكنّه كان يرى في لحظات أخرى أنّ الأمور تسير بطريقة مغايرة ، وأنّ مشاريعه لا تتوافق ومجرى الواقع . فالحساب الأهم هو حساب الزمن ، وليس الزمن أداة طيّمة في يد الناس . إنّ مصيره سوف يتقرّر بعد عدد معلوم من الأيّام أو السنين . فقد جرى البتّ بقضيته وغدت نهايته معروفة . وهو أشبه ما يكون بطفل يلهو من غير أن يعرف أنّ الوقت يمرّ بينما ترى أمّه مسبقًا متى تحين لحظة حمله الى السرير ، وإطفاء النور من حوله ليخلد الى النوم .

تذكر كيف سلك ، ذات مرة في باريس ، زقاقًا ضيقًا كي يتعدّد عن درب شرطي ، وكان الوقت مساء ، وقد خطرت بباله فكرة تسليم نفسه بنفسه . فالحرية ، مقابل الجوع والخوف والحزن ، يمكن أن

تكون الضميمة من السجج . وقد يكون مكانه آنذاك هو الذي أوحى اليه
بذلك التفكير . فحصل ذلك في أحد أماسي تشرين الثاني وقد أقبل الليل ،
تكون لم تكن . لكن المصائب حصدت بعد . فغاص في الجزء الأكثر ظلمة من
البحر ، وكان له شحنة بدعته عبر كتل الأبنية العالية والموحشة التي
تخلد جانيها من شيلدغ بماند لانداز . بدت امامه وسط الضباب المظلم ،
والخفاف بين البحار ان كان به بقية شاحبة نجحت عن لهائه . وما لبثت دقات
قلبية ان اهدت حشاشه فمضت . انتمظي يتلمس الحجارة بيده . وهبط من
لبس السطوح يصيغض خباياها من بين غيبان ما يصل الى عنده . فبدت خطاه
يفترق في مثل الخطى الاظلمى وكانت له مساقاة ان ترفغان من أثر الجري . وظل
يصلح المديقة يتعلل من احواله كصبي يتوضيخ ملبىء بالوعيد ، في رسم له
خيااله بآخرة وحش يفهائل . فلاحقه مفسر آفاق العفمة وهو يزجر .

الاعاءة . هالكا في راحة ان الحار طيلة ساعة .
كان شعوره ذلك ، بوجود صراع غير متكافئ بينه وبين قوة غامضة
وملحو شبة يذبل خلفه في ذاي غميمة من نهارة على كتمان لا حلف في الشيارع عينين
تحمي قان اوجها . ان لم يسمع زواياهم في قيع خطي اسرع من خطاه يقبل . وعند
تحتاج جسد حرا في راحة غنية ولتصق قبيته بجبهته المبتصبة عليها من
هو قه . كان المضي امره شارعه الى انتشار غطائر له فرجال يشترطه ويحيطون له
فيلتصق في جوار الاذن المكنة فلتصق المديقة لا يخلص المباحات القفر والجدات
الطوا يلقي الجاهلية من الارانب . فيخلط في الجوهرة وفي استولى عليه هلع
لا يواظف له فكشيرة هري بلصحه التي تشرك او صاقله . وتكفي حنونة لمن
يزواات المديقة المديقة الحيد المبتكفين . يخلو عيشه كرا على جين اهزة . بعد
لن برامه بخلاوة فيها القوي قواها قبل الانا بها له قامة طويلة . في تحف في
المظهر لا مكان ليحلول ان . يمتضي لفتنة بل المستقامة . لكن دون جردوى .
بشرة باهية . في لا ريب في ان ذلك في محتمل . لكن الجاهلية العادية
نقوس الغللى اميد الث غير محتملة . في الحولته الغلبة في الاختباء وضطر الجشيد
على التوجه . صارا صوب المخطاك الكهربى في يدي نطقه بالعماد وسط جلهون
من المسلمون . فبالا . يلمح انة ليلتصق بالية . الانظار يشهد بشاياه لا المشقة
والقلق الفياض على رفقته . عند ان يتخيل ان الامر المضحى مكل وعا .

وإن أولئك الناس يحاصرونه على هذا النحو عمداً لمنعه من الهرب .
 وإلا فلم ينظرون اليه بهذه الطريقة ؟ فهل عليه أن يشقّ طريقاً له في
 وسطهم أم ينتظر حدوث تحرك يلقي به جانباً فيحرّره ؟ كان يبدو له
 أن أيّ سلوك يختاره يثير الشبهات . وإتته ببقائه ساكناً أيضاً يلفت
 إليه الأنظار . وما يلبث أن يتبع ما ينتابه من ضيق ، فزعّ يمسك
 بخناقه . من نافلة القول أن يقنع نفسه بأن هؤلاء الرجال والنساء
 لا يعرفونه وأنهم لا يفكرون حتى في النظر اليه . فالرعب من التوقيف
 يجتاحه اجتياح عاصفة هوجاء لا يمكن لشيء أن يخفف من غلوائها . أما
 الأفكار التي تخطر بباله ، في تلك اللحظات من الدرع العقلي ، فغاية في
 الغرابة : أن ينهال ضرباً على المحيطين به ما استطاع من قوّة ثم يولي
 هارباً مثل قاتل يجدّون في طلبه ، أو أن ينخرط في الصراخ ويبلغ عن
 نفسه بنفسه معجلاً أمر القبض عليه بعد أن اضحى في نظره مؤكداً .

لم يعد في وسعه أن يسلك شارعاً أو يدخل غرفة من غير أن يتوارد
 الى ذهنه نفس السؤال : « أكون توقيفي في هذا المكان ؟ هل أنا أعيش
 الآن آخر دقيقة حرة من حياتي ؟ » وعلى هذا فما من فندق رآه يلج
 بابه ليلتين متتاليتين . فكان يمضي متنقلاً من شارع الى شارع ، بدافع
 من غريزته التي تدفع به من هنا الى هناك فتجعل بعض الشوارع تجتذبه
 وأخرى تثير فزعه . ووقع ذات مرة فريسة وساوس جعلته يبتعد طوال
 أسابيع عن قسم كامل من المدينة ، من دون سبب واضح ، وأحياناً عن
 باريس كلها فيهرب الى الضواحي . ثم تليها مرحلة الطمأنينة أو عدم
 الاكتراث فيعود على أثرها الى العاصمة . أما وقد أرهقه التخبّط ضد
 عدوّ يحسب أنه موجود في كل مكان ، فاتخذ قراراً حاسماً بأن لا يهتم
 من بعد بالمخاطر الكبرى التي تتهدّد حياته وأن يستمر في العيش مثل
 أي رجل آخر ، بل مثل هؤلاء الناس الذين يصادفهم في طريقه بالمئات .
 عندئذ كان يتدخل عقله ليفقد عليه آيات التشجيع . وهو لم يكن في
 حقيقة الأمر مجرماً كبيراً . فاغتصاب فتاة وضرب رجل عجوز عند زاوية
 أحد الشوارع لا يستدعيان أن تبقى الشرطة جادة في طلبك طوال شهور

وشهور . ولا مناص لها ، بعد عمليات البحث الأولى ، من أن تغضى الطرف عنك لتوجه اهتمامها نحو الجناة الذين يستحقون ذلك .

ثم يستبدّ به الرعب على نحو مباغت ، أثناء تناول وجبة طعام ، مثلما يصاب المرء بحمى تفيجؤه ، على اثر شيء فاقده الأهمية ، كأن تنقلب المملحة من يده ، أو أن يرمقه نادل بنظرة . عندئذ يتوجّس من حدوث شيء . ويصبح المكان مصدر شؤم . لقد قام أحدهم بالصغير وهو يمرّ من أمام المطعم . عليه أن ينهض فيدفع وينصرف . وأن يجري مسرعاً بكل ما أوتي من قوّة من غير أن يلتفت الى الخلف . لكن فكرة مألوفة تأتي لتطمئنه : « ان يلفى القبض عليّ في مكان أتوقّعه . » وبفعل واحد من تناقضات الدماغ البشري يعثر على الطمأنينة داخل قلقه ذاته .

بيد أن ذكرى أنجيل ما كانت لتفارقة ، فتجعل كل جهوده للبقاء طليقاً بل ولكسب عيشه ايضاً ، تبدو في نظره باطلة وتافهة . لقد أدّت بشاعة الجريمة الى تشوّش تام للصور داخل ذهنه في بداية الأمر . فالتقزّز من الدم المراق ومن الصراخ ومن ذلك العراك الشنيع على ضفة النهر ، ذلك الكابوس الذي كانت ذاكرته ترغمه على أن يتعرف فيه على نفسه ، قد شغله على نحو تام ، فكيف أمكن أن يفعل ذلك ، بل لماذا قام بذلك ؟ فكل الاسباب التي يسوقها ، من الشهوة الى الغضب والخوف ، لا تفسر حصول ذلك التحول العميق جداً داخل ذاته ، والذي دام بضعة ساعات ، صارت فيها يده أداة للقتل . بل إنه الآن ايضاً ، وبعد أسابيع من التفكير ، لم يتوصل الى إقامة علاقة حقيقية داخل وعيه بين القاتل وبينه . فيتراءى له أنه لو ألقي القبض عليه ، لكان ذلك تكفيراً عن جريمة شخص آخر . حتى كانه ارتكب جنائية وهو في نوبة سرنمة^(١)

انم يكن يشعر على ذلك بأي تأنيب ضمير . فهذه الكلمة الطافحة بالمعنى للعديد من المذنبين ، لم تكن تتوافق والمشاعر العديدة التي تعتمل

(١) السير والتكلم أثناء النوم .

اليقين على اية صورة كان بأفضل من حالات التوجس التي تعمل فيه تعذيباً لو عرف أن أنجيل قد ارتحلت ، أو أنها لم تعد على قيد الحياة ، لكان عناؤه على طول المدى دون الخشية الدائمة منها . حتى كان يتراءى له في بعض الأيام أن خلاصه النهائي سيكون في القاء القبض عليه وزجه في السجن . فكثيراً ما تمر بالمرء لحظات لا يود فيها إلا أن يكون محروماً من حريته .

أما الآن وهو واقف على الطريق ، إثر حديثه مع أنجيل ، فهو يحس أن الخاتمة باتت قريبة . ولم يعد لديه وقت يضيعه . فقدره أن يتحمل ما تعرض له من عنف ، أما المشاهد الملاحقة فقد جرت لأنه أراد لها ذلك . ولا يسعه أن يرتحل من غير أن يرى أنجيل . سوف يأتي الى ذلك الموعد الذي ضربه حتى لو كانت حياته هي الثمن . إلا أنه لو سلم بعزمها على اللحاق به ، فلا يسعه أن يقترح عليها الرحيل معه دون مال . فلقاؤه بها قبل قليل تجاوز كل آماله . لقد أظهر شريكه في اللعب كل سخاء تجاهه . لم يبق أمامه إلا أن يحاطر بكل شيء ، إذا كان لا يريد أن يخسر كل ما في حوزته .

وتوقف . لقد قادته أفكاره الى ما وراء آخر دارات اورج . فالى اين ينوي أن يذهب هذه الليلة ؟ رفع رأسه ، ونظر فيما حوله ، مثل من ينتظر أن تحمل اليه الريح ، وهي تصفر في أذنيه ، إجابة على تساؤله . شد قبضتيه في أعماق جيوبه ولبث ساكناً بضع ثوان . ثم عاد أدراجه على حين غرة .



- ٩ -

مرّ أكثر من ربع ساعة على قيام السيد والسيدة غروج عن المائدة ، ليواصلوا أمسيتهما كالمعتاد في قاعة الطابق الأرضي الصغيرة . وهي حجرة محصنة تحصينا مدهشا ضد تقلبات الطقس في هذا الفصل . إلا أن الثروة جادت عليها بألوان بدخ مزرية ، على نحو ما فعلته في كافة أرجاء دارة « خلوتي » . كان طراز لويس السادس عشر هو المتبع . كل شيء يوحى بمعروضات المخازن الكبرى ، بدءا من السجادة البرتقالية حتى الطنافس بلونها الأزرق الطاووسي ، تزيينها أشكال زنايق بيضاء ، وقد تولى تنسيقها وتوزيعها رجل متخصص ، لكنه في عجلة من أمره . فالمناضد المزخرفة ذات المضلعات ، والاسكملات الصغيرة التي لا طائل وراءها ، تتنازع مجالا محدودا مع كراس ذات أرجل ضئيلة ومظهر هش ، حتى ليتهب المرء من الجلوس عليها . لكن كنبتين عميقتين ومريحيتين تحتلان جانبي الموقد ، حيث تلتهب خمس أو ست قطع ضخمة من الحطب . جلست في الأولى مدام غروج تقرأ جريدة وعلى الثانية جلس زوجها وسدر في أحلامه .

كان ينقل نظرة ناعمة بين اللوحات الفنية التي تزين جدرانها . فهذه لوحة للفنان فراغونار تتلوها واحدة بريشة بوشيه . أما النور القاسي والكثيب المنهمر من الشريا فيضيء بلا رحمة وجهه العجوز ، الممتلىء حتى التهدل ، والذي لم تكيفه أية آثار : لا حزنا ولا فرحا . من الواضح أن عينيه البليدين وجهته الفارغة ، لم تعرف من توقد شع يوما فيها . حتى ان الانفعالات الدنيئة نفسها ، والتي تنجم عن متعة يشتريها بماله ، كانت لا تثير اكتراثه على قدر ما هي ضرورية له . قد لا يكون اشتها شيئا

ما بعنف ولومرة واحدة . وقد لا تكون الحياة جعلته يشعر مرة بالحرمان . وعلى هذا فان التجاعيد التي تحيط بما تهدل من خديه ، وكل الاثلام المحتفرة في ذلك القناع اللحمي ، ليست من فعل الهموم أو العناء بل هي من فعل النهم والتقدم في السن . كان دقاء الغرفة يسري فيه فيبث في اوصاله نوعاً من الخدر فتتراخى أجفانه الثقيلة وتهدل شفته المكتنزة فيفرق في إغفاءة قصيرة بين وقت وآخر ، مثل من يخلد للراحة بعد نهار من العمل الطويل .

طوت مدام غروجورج جريدتها بعد فترة طويلة ثم أخذت تراقب قطع الحطب المتوقدة وهي تتأكل شيئاً فشيئاً . فبعد أن تحترق آخر واحدة وتفتت جمراً ، تغادر الصالة هي وزوجها ليتوجه كل منهما الى غرفته . تلك هي الاشارة التي ينتظرانها كلاهما . وعلى ذلك النحو تختتم سهراتهما الشتوية . كانت وهي تتأمل السنة الذهب تشرح بأفكارها بصيداً جذاً . وأما النار المتأججة في ذلك الوسط الداخلي ، المثير للسخرية والمسؤول ، والذي يوحى كل ما فيه بضحالة الحياة البورجوازية ، فكانت تبدو كأنها نقياً وقويماً يتعاملون معه باحترام ، مثل وحش مفترس احكم حوله الطوق داخل عرينه . ويستمينون عليها بأدوات مضحكة من أثاف وملاقط ومساعر . فهي مستعدة على الدوام لأن تثب خارج حبسها فتلتهم السجاد والاثاث والدار المقيتة . فينبغي مراقبتها باستمرار وعدم تركها وحدها في القاعة ، ورد القطع الملتهبة التي تتناثر منها احياناً فوق الرخام ، ووضع الحواجز في وجه شرارها القاتل . كانت مدام غروجورج مثل تلك النار ، الثائرة والعاجزة في قلب الموقد ، تلفظ أنفاسها في مواجهة أشياء خالية من البهاء وأشخاص جنباء ساهرين لا تقدر أن تطالهم أبداً .

خرج المسيو غروجورج من شبه إغفائه بشكل مباغت وقال :

— هيه ؟ ماذا ؟ هل قلت شيئاً ؟

فقلت بصوت جاف ينطق ازدرء : « لا ، بل كنت تحلم » ثم
أضافت :

— سوف أصعد بعد هنيهة .

آه ؟ وأنا أيضا . لقد بدأت أغفو . اعطني المجرف كي أغطي الجمر .

أخذ المجرف النحاسي ، الذي ناولته زوجته إياه بصمت ، وأخذ
يفترف به الرماد ويفرغه بنفس السوية فوق الجمر المتأجج فبدأت
السنته تخبو .

— والآن حاجر النار .

وضع اللوح المعدني امام الموقد بنفس العناية ثم تمطى وقال وهو
يدس يده في احدى الجيوب الداخليه من سترته :

— تذكرت ، لقد تلقيت من وقت قريب شيئا قد يثير اهتمامك .

— وما هو ؟

— إنه يتعلق بابنك . لقد نال ابنك علامات متدنية جدا في مدرسته .

اسمعي جيدا .

ركز نظارته فوق انفه وبسط ورقة وأخذ يقرأها بصوت عال :

— مدرسة تير . النشرة الفصلية . التلميذ أندريه غروجورج .

لم تستطع مدام غروجورج أن تكبت حركة تنم على نفاد صبر وهي
تسمع هذا الاسم فقالت :

— اخبرني بالاسم . هل هو مفصول ؟

- مفصول ، كلا : لكن يا لها من درجات ! إنها لفاجعة .
أندريه غروجورج ... السلوك : ستة من عشرة . تقديره وسط
في السلوك . التطبيقات : صفر . أسمع ؟
- بلى ، أسمع .
- اللغة الفرنسية : واحد ، التاريخ : اثنان ، الجغرافيا : اثنان ،
الرياضيات ... إجريي هنا هون تقديره في الرياضيات ؟
- وكيف لي أن أحزر ؟ صف لي كل شيء .
- كلا . بل رأيت رأيت ذلك . ليس بهيئته من تقديره على الإطلاق .
ما دامت لا توجد علامة أدنى من الصفر فانهم لم يعرفوا كيف
يقدرين عدم كفاءة ابنك المربعة فتركوا الحقل فارغاً . بله ؟
ما رأيك بهذا ؟
- — أرى أنك كنت ذا رأي مدهش يوم وضعته بين أيدي
أولئك الحمقى .
- كنت تريد أن أدعه هنا ، عاطلاً عن كل شيء .
- كان ينبغي المشور على معلم من أجله وعدم أن يتركه في أيديهم .
- معلم ! بعد المنقصات التي أصابتنا مع ذاك !
- ليس المعلمون كلهم على شاكلة ذاك . لقد أخطأنا الاختيار . هذا
كل ما في الأمر . لا أريد على أي حال أن أعاد مناقشة هذه
المسألة . اهذا كل ما لديك لثقله لي ؟
- هناك أيضا ملاحظات المدير .

- إنني أهزأ بملاحظات المدير .
- فقال المسيو غروجورج وهو يطوي الورقة ويعيدها الى محفظته :
- يا لك من أم ! من يسمعك يحسب حقاً أن هذا الولد ليس لك .
- فقالت بضحكة قصيرة :
- يا له من صفيّر مسكين ! أما الآن ، فانا صاعدة . طابت ليلتك .
- فقال وهو ينهض بدوره : طابت ليلتك .
- مشيت بضع خطى نحو الباب ثم توقفت على حين غرة وقالت :
- هل سمعت ؟
- سمعت ماذا ؟
- جرس الباب المشبك . هل انت أصم ؟ هناك واحد عند الباب المشبك .
- واحد عند الباب المشبك ؟ في مثل هذه الساعة ؟
- عبرت الحجرة بخطوة سريعة وتوجهت الى النافذة فأزاحت الستارة ثم بدلت رايها فعدت الى منتصف الحجرة . وقالت بصبر نافذ :
- لماذا لم تذهب ماريا لترى من الطارق ؟ لقد سمعت بالتأكيد .
- اراهن على أن تلك الحمقاء خائفة .
- فقال زوجها :
- وما بك لتضطربي ؟ قلت لك لم يقرع من أحد .

لم تلق مدام غروج لكامه من بان فمضت وفتحت باب القاعة
وصاحت في البهو :

— ماريا . احدهم على الباب . هيا بسرعة .

ثم اغلقت الباب بعنف ورمقت زوجها بنظرة سخط . فقال :

— ماذا ؟

— ماذا ، يا صاحبي ، الديك ما تقوله لي ؟

— لا شيء ابدا . لكنك تنظرين الي . قالت :

— اتحسب انني افكر بك ؟ بل انتظر من يفتح الباب .

سمعا وقع خطى على ممشى الحصباء فعلما ان ماريا قد استجابت
اخيراً لنداء سيدتها .

وفي اللحظة ذاتها تقريبا رن الجرس مجددا . فهبت مدام غروج
واقفة وهرعت نحو الباب . فقال المسيو غروج :

— هذه المرة سمعت . لكن كم انت عصبية !

— هيا انظر ما الامر — ثم اضافت على الفور وقد تبدلت نبرة صوتها :

كلا ، لا تذهب . لا داعي لذلك .

— انت خائفة ؟

— خائفة ؟ هل جننت ؟

فقال وقد داهمه قلق مبالغت :

— قد تتخيلين أنه أحد الجناة ؟

— هل يقوم الجناة عادة بقرع أبواب الدارات ؟

وسادت فترة صمت . ثم فتحت الوصيفة باب القاعة وقالت :

— سيدتي ، انه رجل يرغب في التحدث الى سيدتي .

فسالها المسيو غروجورج :

— رجل ؟ من هو ؟

— لا أدري يا سيدي لم أتمكن من رؤيته .

فقلت مدام غروجورج وهي تأخذ المفتاح من يد الوصيفة :

— طيب ، أنا ذاهبة . اصعدي لتنامي ، يا ماري .

فقال المسيو غروجورج :

— لن تذهبي الى هناك . أوعزي الى الرجل بأن يأتي الى هنا . لكن

قبل كل شيء ، ماذا يريد ؟

فقلت ماري :

— طلبت اليه أن يدخل ، لكنه أبى .

ومرت مدام غروجورج من بينهما وخرجت .

فصاح زوجها متظاهرا بأنه يهم بالحاق بها !

— انت متهورة !

اكنها كانت قد بلغت الدرج الخارجي وتوجهت بسرعة نحو الباب المشبك فمئذ بضع دقائق وقلبها يخفق كفعله لدى الاعلان عن حادث خطير ، حتى انها لم تشعر بالبرد الذي احاط بها من كل جانب ونفذ من قماش صدارها الرقيق . كانت تعرف من هو الذي ينتظرها عند مدخل الحديقة . فهرعت نحوه تحذوها الرغبة في الوصول بسرعة ، وبخامرها في ذات الوقت خوف من أن تزول بسرعة عدوبة اللحظة التي تحياها . ما كان يمقدورها أن تمنع قلبها من أن يخفق . وما كان بمقدورها أيضاً أن تجعله لا يتعلل بالآمال . كانت تلك المرأة ، القاسية جداً على نفسها وعلى الآخرين ، شديدة التعلق بالأباطيل حتى لتأول الرنين العادي لجرس نحاسي صغير على أنه نداء بصوت القدر . ولم تحترس ، على الرغم من تحاملها على الحياة ، من الاتكال على المفاجأة ، اذا كان ممكناً جمع تلك الصيغ المتناقضة . وعلى سخاء مفرط من جانب القدر الذي سيفقد عليها بفتة ما كانت تأنف من التوسل في طلبه .

تلك هي الآن تجري بجانب الممشى الموحد مثلما يجري المرء الى موعد مضروب . كان الليل حالكا الظلمة ، لكن مصابيح الطريق صنعت فوق الباب الشبكي شبه هالة ورات خيال غريه وراء القضبان بمنكبیه المريضين ورأسه المطرق بعض الشيء . توقفت فقال :

— مدام غروجورج ؟

— أجل — قالت ذلك وسعت لان تتحدث بلهجة غير حادة فلم تنجح : فالاسم الذي ناداها به هذا الرجل اغاظها كثيراً — لماذا لم تأت مساء اليوم الى اللوضع الذي حددته لك ؟

لم يجب ، مشيت بضع خطى اخرى واقتربت من الباب فظهر لها وجهه غريه . فمضت تقول :

— انا سأقوله لك : كنت خائفاً .

ولم تقاوم دافعاً ، تساوت فيه الغبطة والغضب ، فمدت يدها على نحو مباغت عبر الموارض ووضعتها على كتفه . ثم سحبتها على القور وقالت :

— سأفتح لك فتختبيء وراء هذا السياج لأعود واصططحك بعد ثلاثة أرباع الساعة ، هل تسمعي ؟ لا تخش شيئاً . أريد أن أساعدك ان كنت بحاجة للمال فسوف تلتبئي .

دخل من الباب الذي فتحته دون ان ينبس بكلمة .
قالت : اختبيء بسرعة .

ثم اغلقت الباب ومالت صوب شجيرات المضاير التي توارى خلفها وقالت له بصوت هامس : بعد ثلاثة أرباع الساعة .

سألها المسيو غروجورج : من هذا ؟

فردت بسرعة :

— رجل يطلب الاحسان .

— رجل يطلب الاحسان . في الساعة التاسعة . أرجو ان تكوني قد قلت له ان يمضي في سبيله .

— طبعاً .

ثم تبادلوا التحية وصعدا الى غرفتيهما . وحين أمست مدام غروجورج وحدها جلست على سريرها وانتظرت . لم تعد تأتي بحركة . تنظر أمامها فلا ترى شيئاً ، فهي تائهة في تأمل عميق . وتراءى لها ان الأشياء التي تحيط بها أمست بمظهر آخر ، من غير ان تقدر ان تقول بماذا يختلف عن مظهرها السابق ، الذي عرفته حتى الآن . وكان شعورها قريباً لما يحس به المرء حين يعود الى

ببته بعد غياب طويل جداً . فتأخذ الأشياء التي بقع عليها نظره في الساعات الأولى ، طابماً غامضاً ومألوفاً في آن معاً . ليست هذه أول مرة تشعر فيها أنها غريبة على العالم ، لكن انطباعها في هذا المساء كان على درجة من الشدة والوضوح حتى انتابها ما يشبه الفزع . وكأن قوة لا تقاوم عازمة على انتزاعها من الأرض ومن ذاتها .

قالت في نفسها : « ولكن ما بي ؟ أم هذه حال من يقبل على الموت ؟ »

اعلمها وقع الخطى وصفق الأبواب بتحركات زوجها والخدم . تلك الحياة التي تتحرك من حولها بكل وجوها لا تشبه حياتها في شيء !
الا كم من هوة بين نفس وأخرى !

لبثت ساكنة تنتظر أن تهدأ الدار تماماً وتطفأ الأنوار . لكن نفسها لم تعرف الاضطراب لنفاد صبرها ، بل شعرت على خلاف ذلك بفطة في إطالة تلك الساعة الغريبة التي كانت تحياها . وسرى في أوصالها نوع من الخدر . ولم تعد تبلغها أي نامة . فلم لا تتحرك ؟

اخرجتها دقة ساعة تعلن انتصاف العاشرة من حلم تاهت في أرجائه . فتنهدت تنهيدة امرأة تستيقظ وقامت من غير استعجال . فتحت الباب بحركة هادئة ومطمئنة وأعدت إغلاقه ، وبدأت تهبط الدرج بحذر قطة وخفتها . ثم رفعت السلسلة وأدارت المفتاح في قفل باب الدخول .

ها هي في الخارج من جديد والريح تصفع وجهها . واختارت أن تمشي فوق المرج الذي يفصلها عن الباب الشبكي ، كي لا يسمعها أحد ، ثم بلغت السياج الذي اختبأ غريبه خلفه . فقام لوصولها . قالت كأنها خمنت الظنون التي شغلت فكر ذلك الرجل :

— هل أنت واثق بي ؟

— لماذا تريدان أن تساعدني ؟

— هذا لا يهمك . هل نويت أن تتبعني ؟

— الى أين ستأخذيني ؟

— الى بيتي . فتمضي الليل فيه . سوف اعطيك ملابس ومالا .
وغداً ترحل في الثانية عشرة والنصف بينما يكون الجميع على الغداء .
وما اعطيك إياه ، سيكون كافياً لتبلغ به الحدود . فكرر في الأمر .

— وماذا لو غدرت بي ؟

فتوجهت الى الباب ووضعت المفتاح في القفل ففتحته ، ثم قالت
له :

— هيا انصرف .

فلبث ساكناً ، صامتاً ، واقفاً على خطى من مكان وقوفها . وبعد
هنيهة قال :

— سابقى .

أغلقت الباب من غير أن ترد بكلمة . ومرت من أمامه دون أن تتوقف
فتبعها .

قالت له بصوت هامس وهما يقطعان الممرج :

— تسند على الجدار وأنت تصعد الدرج حتى لا يسمع الدرجات
صرير . سوف أقودك من يدك حين نبلغ الطابق الأول . فالمشى طويلاً
جداً .

— اذكر ذلك .

— هناك قطع أثاث يمكن أن ترتطم بها . وإذا ما حصل ذلك ، فإياك أن تتحرك .

بلغا الدرج الخارجي وصعدا الدرجات بصمت . وحين أصبحا على عتبة الباب همست قائلة :

— فكر أيضاً . بوسعك أن تهرب فوراً إذا شئت .

كانا قريبين جداً أحدهما من الآخر حتى تلامس ذراعاهما فتراجعت قليلاً . وميزت رغم الظلمة حدود كتفيه اللذين كانا يتجاوزانها ، وشكل رأسه . وتبينت أن نظره ممتجه إليها وأنه يسعى بدوره لأن يرى قسمات وجهها . وهبت ريح جمودية من حولهما . قال :

— إنني اتق بك .

وصعدا . سمعت في هداة الليل صوت أنفاسه وصرير الدرجات الخشبية وهي تن تحت ثقل ذلك الجسد الكبير . توقفت عدة مرات واضعة يدها الأمانة على كتف غريبه لتوعز إليه بالبقاء ساكناً . وجعلتهما دقائق الساعة يجفلان .

حين بلغا الطابق الأول ، فبضت على يده بقوة ، لتقوده خطوة بخطوة بين خزائن الأواني والصناديق الخشبية والكنبات ، التي دفع الهوس بالمسيو غروجورج لأن يملأ بها الرواق كله . كانت ماضية كأنها في حلم . يملؤها النصميم والرعب في آن معا . الى جانب غبطة من شأنها أن تشد من عزمها وهي على شفا الهاوية . ومع كل ذلك لم تكن تجرؤ على أن تتساءل لماذا كان قلبها على تلك الدرجة من الخفة . فالزمن في نهاية المطاف ، قد علم تلك المرأة العنيدة ، أن مجرد تفحصها لسبب سعادتها كفيل بالكشف عن هشاشتها . كانت تعرف قيمة التوهم . فاختدت تلك المسيرة وسلك الظلمة تداعب خيالها ، حتى باتت تخشى ، وهي تلمس الجدران والأثاث بأصابعها المتباعدة ، حلول

اللحظة التي ينبغي فيها اضاءة المصباح ، وتبادل كلمات من شأنها ان تبدد نشوتها .

بعد ذلك بدقائق اصبحا في القاعة الصغيرة التي توالى عليها ، وهي فيها ، أعوام عديدة من السأم والعزلة . فأغلقت الباب وتمتت :

— انت فوق غرفة زوجتي . لا تحدث ضجيجا حين تمشي . واذا ما قرع احدهم الباب فلا ترد مهما كان السبب . ثم أضافت :

— سوف أشعل النور . لا تتحرك من مكانك .

وحزر أنها تقطع الغرفة ، لا من وقع خطاها ، لانها كانت تمشي كمن لا يلقي بوزنه على الارض ، وانما من حفيف ثوبها . كان الحفيف يتحرك من حوله عن يمينه وعن شماله ، كصوت امرئ يبحث عن اخر وسط الظلمة وهو يهمس باسمه . ثم أجفل وهو يسمع احتكاك عود الثياب .

كانت على بعد خطوتين منه فتبدت له صورتها الجانبية الصارمة والرقيقة وهي عاتقة على انارة المصباح وتركيب العاكس . بعد قليل غمر النور وجهها كله باستثناء جبهتها . اذ بدا حاجباها السميكان الاسودان المقوسان كالقناطر ، كأنهما يحملانها . انقضت بضع ثوان بدت أثناءها تلك المرأة جميلة مع أنها على عتبة الشيخوخة . ولو رايتها لقلت ان قوى الحياة الاخيرة تجمعت فيها لتضيء تلك النظرة وتجمل تلك القسمات .

ترددت هنيهة واستدارت بفتة نحو غريه ثم قالت وهي تشير ناحية الكنبه من غير أن ترفع نظرها :

— سوف تنام هناك . سأحضر اغطية .

وبدا عليها التردد مجددا ثم توجهت صوب الباب وقالت بصوت متهدج بعض الشيء كأنها تتكلم قسرا :

— أنت لم تتعش دون ريب . سأحضر لك ما تأكله .

ما كان ذلك الا مبررا لانصرافها ، فقد بدا مستحيلا عليها البقاء في حضرة ذلك الرجل بعد أن اخذ النور يستلح في الحجرة .

دلفت الى المطبخ مسرعة فوضعت فوق طبق زجاجة من النبيذ وخبزا ولحما مبردا . كانت يداها ترتعشان . ولاحظت ذلك فازداد اضطرابها شدة حتى تراءى لها عدة مرات انها سترمي الطبق فوق الدرج . وحين بلغت ممشى الطابق الاول ، اضطرت لان تجلس فوق صندوق خشبي لتلتقط أنفاسها التي تقطعت لشدة الانفعال . ولقد أفزعها صوت لهاثها : فالسكون المخيم على الدار بدا وكأنه امتلا بدوي هائل .

حين دخلت كان غريه جالسا على الكنبه كان التعب قد هذه ، فأذهلتها ثيابه بمظهرها البائس . كانت آثار وحل الطرقات تغطي حذاءه وأسفل بنطاله . أما معطفه الممزق في عدة أماكن فينم على استعمال طويل ومستمر .

قام من فوره واقبل نحوها :

— لم كل هذه الطيبة حيالي ، يا مدام غروجورج ؟

رأت عينيه المتوقدتين تحدقان في عينيها . ولم تجد لديها القدرة على تحمل تلك النظرة . فقالت بشيء من المباغتة :

— لا تدعني مدام غروجورج . خذ هذا الطبق . بينما تتناول عشاءك ساهتم بأمر الاغطية .

كان كل ما فيها من طاقة يفضح أمرها . فبلغت الباب بعناء
وخرجت . كانت بحاجة لأن تفرق في العتمة لتخفي وجهها الملتهب
وتساءلت ان كان غيريه قد لاحظ اضطرابها . فكيف السبيل الى دخول
القاعة الصغيرة مجددا والتصدي لفضول ذلك الرجل ؟ وأية أفكار
ستساوره ؟

امسكت المصباح بيديها الاثنتين لتهدئ الى الطابق حيث توجد
الافطية . أحست بركبتها تتراخيان . تلمست الجدران لتعثر على
الخزائن الكبيرة التي تحتوي الشراشف والافطية ففتحتها دون ضجة
لكن تلك الافطية لم تبد لها سمكية بما فيه الكفاية . فكرت هنيهة ثم
أخرجت من خزانة أخرى عباءة ثقيلة مبطنه بالفرو ، خاصة بالمسيو
غروج . ثم صعدت مثقلة الذراعين وهي تتعثر بكل خطوة تقريبا .

قالت وهي تسقط العباءة في وسط الحجرة :

— هاك . لن تجعلك هذه تشعر بكثير من البرد .

تحول نظرها فوراً الى الطبق فرائ الخبز واللحم على حالهما
والزجاجة لم تمس . فقالت باستياء :

— لم تأكل شيئاً .

فهز رأسه قائلاً :

— لا أستطيع . اني قلق جداً .

كان يودها ان تقول شيئاً يطمئنه لكن الكلمات أعوزتها . فقسوتها
المعتادة تجاه نفسها وتجاه الآخرين منعته من الكلام بركة . فتنهدت .
منذ لحظة وشعور غريب يخامرها بأن ما تفعله هو انتقاص لها . لا لأنها
ارتكبت عملاً طالحاً ، لكنها في هذا العمل الصالح لم تعرف نفسها .
قد تكون المرة الاولى في حياتها التي خمنت فيها نوع الغبطة التي تغعم

النفس الصالحة وهي تفعل الخير . ثم ارتأ. الحزن ليغلف قلبها مثلما
يفمر موج البحر الحصباء . قالت :

— سادعك الان . وغدا صباحا سوف أوعز بأن لا يفتح أحد هذا
الباب قبل العصر . أما إذا قرع أحدهم فلا تجب . إياك أن تحدث
ضجة . سأعود الى هنا في حدود الساعة التاسعة ، بعد أن يكون
الجميع قد نزلوا . وسوف آتيك بالمال والملابس التي وعدتك بها .

بدا عليه التردد هنيهة ثم سألها قائلاً :

— الا ترين من الحكمة أكثر أن أرحل في هذه الليلة ؟

— ماذا تقصد ؟

— حبذا لو تكرمت الان باعطائي المال الذي وعدتني به . . .

— انت ترتاب بي .

— كلا ، يا سيدتي . لكنني في وضح النهار معرض لان يروني .

أعوزها الجواب فأحست بغضب يستولي عليها فيجعلها الى حد
ما تثوب الى رشدها . هذا الرجل يقاومها فكيف يجروء على ذلك ؟ وعادت
أخيراً تقول :

— انت ترتاب بي .

— لو أنني أرتاب بك لما كنت هنا .

كان لهائه مسموعاً مثل وحش يخشى الوقوع في الشرك . ولبث
واقفا يفرك يدا بيد . ما كان عليه ان يخاطب مدام غروجورج بتلك النبوة
ولبثت تنظر اليه بصمت ووجهها في الظل بينما وقعت بقعة كبيرة من

النور على أسفل تنورتها . كانت نظرتها قاسية حتى غص طرفه واطرق فوقعت عينه على الرأس المدب لجزمته الصغيرة السوداء ، ووجدته يشبه سلاحا . ثم تخيل رغما عنه تلك القدم وهي ترفس كلبا أو تسحق رأس طائر . قالت :

— كان في مقدورك أن تنصرف قبل قليل . لقد فتحت الباب . لماذا بقيت هنا ؟

— سامحيني يا سيدتي . تكلمت من دون تفكير . انني أسلمت أمري اليك .

وأرغمه دفء الحجرة وما ناله من تعب على الجلوس . فتأملته وقتا من غير أن تتكلم ، وراته يطرق رأسه ويرفع يديه الى خديه كأنه ينوي أن يخفي وجهه . فقالت :

— أنت متعب . عليك أن تنام .

ثم أضافت بمشقة :

— لا تخش شيئا . لا أريد لك الا الخير . أقسم على ذلك .

ورفع نظره نحوها لكنها كانت قد استدارت وغادرت الحجرة .



- ١٠ -

ها هي في غرفتها من جديد ، جالسة أمام مكتب صغير وقد فتحت درجا منه . هل تكفيه ثلاث مئة فرنك ؟ ليس في حوزتها غير هذا المبلغ كانت تتمناه مضاعفا مرتين أو ثلاث مرات . كانت تود لو تعطي ذلك البائس خمسة آلاف بل عشرة آلاف فرنك . لكن تلك الأريحية لم تمنحها أي توهم حول ذاتها . فهي تعرف حق المعرفة أنها لو كانت طيبة حقا ، لقامت على الفور فأعطت تلك الاوراق النقدية الثلاث الى ذلك الرجل التعيس ، الذي سيحرمه الخوف من أن يدوق طعم الرقاد وأضافت الى المبلغ بزة تختلسها من عند زوجها ومعظها سميكا ، وافتحت له الباب الشبكي ، بعد أن تكون قد تحدثت اليه وصافحته ، لتبعث الطمأنينة في نفسه وتجعله يشعر أنه ليس وحيدا في هذا العالم . الا أنها بدلا من ذلك ، أبقته عليه أسيرا في بيتها واقتрحت عليه ان يهرب غدا في وضح النهار . وحسب احدهم آنذاك ان يلقي نظرة من النافذة عن غير قصد ، حتى يراه وهو يمر بالحديقة . ولم تجد قبل قليل ما ترد به على غيرهه حين طلب اليها أن تدعه يرتحل .

لم تكن راغبة في أن تدعه يرتحل . كان يروق لها أن تجد نفسها سيدة مصير ذلك الرجل ، وأن تقوم الى حد ما بدور القدر . ولا يلزمها او شاءت أن يكون طليقا وسعيدا ، الا ان تصعد الى القاعة الصنيرة حاملة المال . ولو شاءت على النقيض من ذلك وبدافع نزوة عابرة ، ان تراه موقوفا ، لتحقيق ذلك بكل يسر . ما عليها الا التوجه الى مركز الشرطة .

- ٢٨٥ -

مرت في ذهنها تلك الخواطر فاثارت الاضطراب في نفسها . اذ لم يسبق لها أن أعطيت مثل تلك القدرة قط . مما جعلها تشعر بما يشبه الفزع ، وكأنها تخشى الكلمات الرهيبة التي يمكن أن يتلفظ بها فمها والحركة التي في وسع يدها أن تقوم بها . وغالبا ما انتابها شعور بأن سعادتها متوقفة على سيادة شخص آخر ، على نحو ما كانت سعادة غيره متوقفة عليها في الساعات العشر أو الاثنتي عشرة التالية . وباتت مقتنعة الآن بأن في ارادتها من الضعف والقسوة والتردد بقدر ما في الارادة التي تتحكم بحياتها .

لكن هل يسهلها أن تتخيل لحظة واحدة انها قد تغدر بذلك الرجل ؟ ان المسألة لا تتعلق بالغدر به وانما بالابقاء عليه بالقرب منها أطول فترة ممكنة . ففدا سوف يمضي الى غير رجعه . وهي تعرف ذلك لكنها ترفض التفكير فيه . لم تكن تريد أن تتفكر فيما ستؤول اليه حياتها بدءا من عصر يوم غد . قد يقع ما ليس في الحسبان أبدا . فيغير مجرى حياتها وينتزعها من السأم الرهيب المهيمن على أيامها الفارغة .

ايكون الليل والسكون هما اللذان يوحيان إليها بتلك الافكار ؟ وضمت الاوراق النقدية في مظروف كأنها تتوقع أن تقوم بتصرف حكيم لتعيد الى فكرها كل التوازن . أما وهي راغبة تلك الرغبة الشديدة في في بقاء غيره وإيائها تحت سقف واحد هذه الليلة ، فما الذي يمنعها من أن تصعد لعنده ؟

هذا السؤال جعلها تضحك بصوت عال وأثار غضبها . تراءى لها أن تتمسك بخط السلوك الذي اختارته وأن لا تتبع منحدر افكارها . وعليها كبدية أن تستلقي وتنام .

نزعت ملابسها بتمهل ونفخت على المصباح فاطفأته ثم اندست تحت الاغطية . كان هواء بارد يدخل من النافذة المفتوحة ويصل اليها . اجتاحتها الرعدة . فجسدها لم يدفع السرير بعد وكانت أسنانها

تصطاك . أهو يشعر فوق بالدفع ؟ قد تكون خطرت بباله فكرة حسنة بأن يزيح الأريكة ليضمها بين النافدين . لكن ضجيج احتكاكها بالأرض قد يوقظ زوجها . قد ينام إذن والنوافذ مغلقة . كم بدا في هيئة متعبة وهو يتهالك فوق الكنبه ! هل سيفكر على الأقل في خلع ثيابه ؟

انقلبت على الجانب الأيسر عليها بذلك تجد النوم الذي جافاها على الجانب الأيمن . فهي راغبة في أن تنام . لكن الظلمة عامرة بصور تسعى لأن تزيحها دون جدوى . كان هناك شيء يرغبها إرغاماً على أن تعيش الساعة المنصرمة دقيقة بدقيقة ، على نحو مايقوم به ممثل أثناء التدريب حين يجد نفسه مرغماً على إعادة مشهد أسوء تقديمه . الواقع أنها كانت تجري تعديلات طفيفة على الحركات التي تعيد تنفيذها في فكرها ، فيحل ماكانت تنوي أن تقوم به محل الذكرى الدقيقة لما قامت به . وهكذا وجدت نفسها تحضر الحافاً إلى غريه وتساعد على إزاحة الأريكة .

بعد أن دخلت في صراع مع نفسها بعض الوقت ، استسلمت للانسياق مع اللعبة التي اقترحها عليها دماغها . فهي الآن تبتسم لذلك الرجل وتخطبه من غير شدة . اية دفقة حنان دفعت بها لأن تمسك بيده ؟ لقد انحنى امامها انحناءة تنم على الخضوع والعرفان ، بينما وضعت امامه ، وقد أغم قلبها غبطة لفعل الخير ، طبقاً مثقلاً بالأطعمة الشهية . عندئذ اكتفى بقدح من النبيذ كرمه دفعة واحدة .

كانت قد حرصت على أن تضع في ذلك النبيذ ، الذي شاهده وهو يشربه بنهم ، مسحوقاً ذا مفعول أكيد ينوم على الفور . أن تنوم غريه ؟ وماذا ستجني من تنويمه ؟ جلست في سريرها . كانت أغطيتها تثقل عليها بدفتها : فكفاها وقدمها بدقة من العرق ، عليها أن تنهض لتضيء المصباح وتطلق النافذة مادامت لاتستطيع النوم ولا تقوى على عدم الانسياق وراء الاحلام .

ازاحت الاغطية جانباً بعد تردد بسيط واسرعت فاغلقت النافذة . احكم البرد قبضته على ساقها وصدرها فأخذت ترتعد . ولقيته

بعض العناء في العثور على علبة الثقاب . وحين لمع النور أخيراً في الغرفة ، ورات قطع الاثاث المعهودة من حولها ، والنوافذ والستائر وكل الاشياء التي تحدثها عن حياتها ، وتذكرها من هي ، استولى عليها الخجل وهي تتذكر الافكار التي راودتها ، فاحمر وجهها .

دقت الساعة العاشرة . امامها ليل طويل شبيه بدرب ينبغي ان تقطعه بمشقة لتصل الى الفجر . فحين تبيض السماء وراء اشجار الحديقة في الدقائق الاولى من الصباح ، وحين يتسرب شيء من البهاء من بين شقوق المصاريع الخشبية ، ستكون ، كما يترأى لها ، اقل اضطراباً وأكثر شجاعة . فمعاناتها القصوى تتمثل في الجمود الذي يحكم به الليل عليها . اما النهار فينجدها بالسعي في البرية . ناهيك بأن الدار عامرة بعدد لا يحصى من المشاغل ، وإصدار الأوامر للخدم ، ومراقبة عمل كل واحد منهم . وتذكرت ان صاحبة المصيفة سترسل إليها الفسيل التنظيف في صباح الغد ، وإن عليها أن تدفع قيمة الحساب فمن أين تأتي بالمال إن كانت ستعطي الأوراق النقدية الثلاث الى غيره؟ واذا طلبت من المسيو غرو جورج فسوف يطالبها بإيضاحات . لا يهم ! ستقول للصغيرة فرناند إنها ستسدد الحساب في الاسبوع القادم .

لم تنسَ أيضاً ماتوارد على ذاكرتها ، فقد وعدت أنجيل بأن تكلف فرناند لتسلمها شيئاً خاصاً بها . لقد تواردت المنفصات دفعة واحدة ! فتلك الفتاة أيضاً تطلب شيئاً من المال . لكن لايسع مدام غرو جورج أن تتردد ثانية واحدة ما بين طلب أنجيل وحاجة غيره .

أما الآن وهي وحيدة مع ذاتها ، تقوم بسبر أغوار قلبها ، ذلك القلب الغامض الذي حرمته الحياة من كل سرور ، فقد فهمت ماكان يشير سخطها على أنجيل . لقد غمرتها غبطة خفية ، وهي ترى على ضوء الفاز ، ذلك الوجه الحزين وآثار الضرب على اللحم الذي أدمي . فالتقدر ثار لها في النهاية ولن يسبب لها ذلك الجمال من ضيق بعد اليوم أبداً .

نهضت من على سريرها حيث كانت جالسة وعبرت الغرفة . لا بد
 أنها فقدت صوابها حقاً حتى تتخيل تلك الأشياء ! فما إن تلبث لحظة
 من غير حركة حتى يشرع خيالها يعمل فمشت بضع خطى أخرى وهي
 مترددة قلقة ، كأنها تخشى من حدث وخيم يوشك أن يوقع . وبفتة
 دقت بقبضتيها على صدرها . لقد نخبطت داخل متاهة مظلمة حتى
 تكشف لها الحقيقة : ما تخيلته هو عين الحقيقة . انها تحقد على أنجيل
 يقدر ما تحقد امرأة على غريمتها . سوف تمنع غريبه من الرحيل لانها
 باتت متعلقة به تعلق الجوارح بفريستها . فكان بودها أن تنومه وأن
 تدس له مخدراً وأن تفعل كل ما صورته لها أحلامها الساعة . لقد
 رفضت طوال شهور أن تفهم ما كان يعتمل داخلها لانها كانت خائفة .
 لقد خافت من الحياة على الدوام . لو لم تكن خائفة لكانت أقل قسوة
 حيال الآخرين . لكن حذرها الطبعي حملها على أن ترى كل الذين
 يقاربونها أعداء لها وهي بينهم . وما زالت تعتقد وهي في الخامسة
 والاربعين ، أن المرء يستطيع أن يتخلص من أهوائه اذا لم يفكر بها ،
 كفعل القاضي الذي يبعث بمجرم الى حبل المشنقة ثم يتوجه ليتناول
 غداءه . فيا للكارثة المروعة التي تفوس فيها الآن ! انها تحتجز رجلا
 في بيتها وعليها أن تطلق سراحه بعد بضع ساعات . فكيف ستكون حياتها
 من بعد ؟

اعاد وضوح ذلك السؤال الذي طرحته على نفسها شيئاً من الهدوء
 الى روعها . فحياتها لن تتغير بكل تأكيد . والايام سوف تكون شبيهة
 بما عرفتة من ايام . مواعيد الطعام لن تتبدل أبداً ، وكل شيء سيظل
 يتبع خطأ لا محيد عنه . وهي سوف تتألم كما في الماضي وربما أكثر
 وقد يحمل لها السن ، على النقيض من ذلك السلام ولطمأنينة . لكن
 ذلك ما تفكر به ، انما همها ما ستقوم به على الفور . فالساعة التي
 تمر بها الآن لم تكن مثل غيرها ، بل هي ساعة استثنائية تحتل مكانة

خاصة بها ضمن سنين من السأم ، وعليها أن تدرك هذا الامر وأن تحقق منه الفائدة . فهي في هذه اللحظة موضوع نعمة من قدرها الذي منّ عليها بشيء ما ، ولا يسعها أن تقبل به . والا فماذا كانت تأمل من ارغام غريه على مبيت الليلة في الدارة ؟ لقد توقفت عند منتصف الطريق من خطة لم تصرح بها لنفسها ، وكانت تعوّل دون شك على ظرف خارق للعادة ، كأن مسألة قدرتها على اخفاء رجل في القاعة الصغيرة لم يكن شيئاً خارقاً أكثر مما عداه .

خطرت ببالها فكرة الصعود الى ذلك الرجل واعطائه المال واخلاء سبيله على نحو ما كان في نيّتها أن تفعله بادیء الامر . فوجود غميره في المنزل جعلها غاية في الشقاء . لقد طلب هو نفسه أن ينصرف . ستقوده اذن الى الباب الشبكي وتقول له وداعاً ، لتكون تمزييتها على الاقل وسط ما يغمرها من يأس ، أنه سيكون مدينا لها بقدرته على مفارقة البلاد .

الا أنها لا تستطيع ذلك . فمظهر تلك المرأة ، من رباطة الجأش والحزم ، يخفي تحته الكثير من الوجّل والكثير من الضعف . على حين غرة شعرت أنها مرهقة ، مرهقة من الحياة ومن ذلك الصراع الدائم في قلبها . ودقت الساعة معلنة العاشرة والرّبع . لا ريب في أنه ينام الآن نوما عميقا . فكيف السبيل الى ايقاظه والطلب اليه بان ينصرف ؟ كان ينبغي فعل ذلك قبل قليل . كان عليها أن تقول وأن تتصرف . أما الآن فقد فات الاوان وأمسى الوقت متأخراً .

عادت ففتحت النافذة واطفأت المصباح وأوت الى سريرها . اذا لم يكن في وسعها أن تنام ، فان بمقدورها على الاقل أن ترقد ساكنة مغمضة العينين . وقد يأتيها النوم مخدوعاً بذلك المظهر . وهكذا حاولت أن تبدد الساعات بعد أن انتظرت قدومها بنفاد صبر بلغ حد اليأس . عبء ثقيل ينوء به صدرها فتعجز عن التقاط أنفاسها . ونشأ لديها

انطباع بأنها بلغت حدود الألم وأنها على وشك أن تموت . كانت الظلمة
ملاى بالدوي . وجعلتها الهلوسة تسمع ساعمة الطابق الارضي تدق بلا
انقطاع . كان الدم في عروقها يجري بسرعة قصوى بينما تصفع رياح
جمودية وجهها من غير أن تنعم عليها ببرودة منعشة . واضطرت لان
تنهض مجددا لتغلق النافذة . وحين طلع الفجر وجدها وقد أغفت
اخيرا في سريرها وبقربها المصباح الذي لم تجد الجراة على أطفائه .



- ١١ -

كانت تجلس في سريرها متلغعة بمبذل من الراخية (١) . تراقب الخادمة وهي تشعل النار . وبدأت السنة صغيرة من اللهب تجري تحت الحطبات الكبرى وقد فاح في جو الغرفة أريج خشب بشكل خفيف .

قالت مدام غروجورج :

- كيف حال الطقس اليوم ؟
- أشد برداً من الأمس ، يا سيدتي .
- هل النار مشتعلة في غرفة الطعام ؟
- أجل ، يا سيدي . منذ نصف ساعة .
- طيب . سأنزل بعد لحظة . وتولين ترتيب الغرفة أثناء غيابي .
- سيدتي لن تتناول فطورها في السرير ؟
- كلا . إذهبي الى لويـز وقولي لها بأن تحمله الى غرفة الطعام .
- ونهضت فعبرت الغرفة وقبل أن تدخل حجرة الهندام قالت :
- تذكرت : لا ضرورة لأن ترتبي القاعة الصغيرة .

(١) قماش ناعم من الصوف .

فاستدارت الخادمة نحو سيدتها وقالت وقد بدت عليها علائم
الدهشة :

— ماذا يا سيدتي ؟

— ماذا ؟ ألم تفهمي ؟ لا بأس . بعد انتهائك من ترتيب غرفتي يمكنك
أن تخرجي . فانا امنحك اجازة طوال الفترة الصباحية . أما الحجرات
الأخرى فتقومين بترتيبها بعد العصر .

اغلقت على نفسها باب حجرة الهندام وجلست أمام منضدة الزينة .
كانت خلستان رماديتان طويلتان تحيطان بصديها . إنها تقوم في العادة
بإخفائهما ساعة تستيقظ داخل كلفة شعرها الأسود ، حتى لا تراهما
من بعد حين تنظر في المرآة . لكنها شعرت هذا الصباح بالرضى المرير
وهي تتحقق من وجودهما . فهما تضيفان على عمرها خمسة اعوام
او ستة . ومع ذلك فقد بدا لها أن هاتين الخصلتين اللتين تزيدانها
شيخوخة على ذلك النحو ، تسفان على وجهها عذوبة لم تعرفها البتة
من قبل . وتنهدت وهي تفكر بان تلك العذوبة ناجمة ، من دون شك ،
عن مظهر الاحباط الذي شاهده في اعماق عينيها . سيتوجب عليها
حتى موتها أن تستيقظ صباحاً وتواصل الحياة من حيث تركتها . ولن
تعفى من تلك المهمة يوماً واحداً . اما الليل والأحلام الفريدة التي تراهها
أحياناً فإنها تزيد رتابة ساعات اليقظة حدة . فقبل خمس دقائق كانت
ما تزال غارقة في أحلام لم يعد بوسعها أن تتذكرها ، فكانت تشعر أنها
عائدة من بلد بعيد ، ليس للكآبة من مكان فيه ، بلد يناصب دروب
الآلام العدا .

مشطت شعرها وغسلت وجهها بماء الورد ثم دلفت الى قاعة
الطعام . اما زوجها الذي كانت تسمعه يتحرك في الطابق الأول ، فلم
ينزل بعد . رغم أن الساعة قاربت الثامنة . واسمدها ذلك الوضع .
فقد بدا لها الحديث مع المسيو ذروج ، في الحالة النفسية التي

كانت عليها ، أمراً مستحيلاً في الواقع . فالعذاب كان ينهاها مثلما تنهك المريض الحمى . ولم يتبق لديها إلا القوة الضرورية للسير في الخطة التي وضعتها حتى النهاية . كانت ترتعد خوفاً من أن تتضافر جهود الأشخاص مع الأشياء . لتزيد عبئاً اضافياً على مهمة ، تشعر سلفاً أنها غاية في الثقل .

حين انتهت من شرب القهوة صعدت الى غرفتها ثانية فوجدتها مرتبة فارتدت ملابسها بسرعة . وانقضى أكثر من ربع ساعة قبل أن تسمع الميسو غروجورج ينزل أيضاً على طريقته البطيئة الثقيلة ، التي كانت تمقتها ، وفي هذه اللحظة بشكل خاص ، أكثر من أي شيء في العالم . كان قلبها يطرق بعنف . فهي تخشى اللحظة التي يتوجب عليها أن تقوم فيها بالمبادرة وتعلم حق العلم أنها قد دنت . وتأكدت بدافع من الحذر أن الوصيفة في المطبخ فصعدت الدرج المؤدي الى الطابق الأول .

حين صارت امام باب القاعة الصفرى ، قرعت ، ناسية انها أوصت غريه بأن لا يرد على نداء من هذا النوع ، وفي ذات اللحظة وضعت المفتاح في القفل وفتحت .

لم تستطع في بداية الامر أن تتبين شيئاً ، فقد بوغت بتعتيم لم تتوقعه ، ثم رأت غريه على حين غرة ، واقفاً في وسط الحجرة . قالت بصوت هامس :

— سأفتح المصاريع الخشبية . لا تقترب من النافذة . يمكن أن يروك من الحديقة .

تلفظت بتلك الكلمات على مجل كأنها تريد إخفاء ما انتابها من اضطراب . وعبرت القاعة واتجهت الى المصاريع ففتحتها . أما غريه فمشى بضع خطى صوب الباب وبقي يحدق في مدام غروجورج صامتاً .

ثم اضافت وهي تستدير صوبه :

— لقد أوعزت بأن لا يأتي أحد الى هنا هذا الصباح . فليس هناك ما تخشاه أبداً .

لكنها كانت ترتجف من شدة الانفعال فاضطرت للقفود . لقد احست بالدم يهرب من وجنتيها . وغضت الطرف لمعجزها عن تحمل النظرة التي سلطها ذلك "الرجل عليها . قالت :

— تعال اقعد . كلا ، ليس قرب النافذة . بل هنا .

واشارت الى كنية غير بعيدة عن مكان جلوسها . فقطع الحجرة بخطى متعثرة كخطى الأعمى ، ثم وقف امامها وتساءل على نحو مباغت:

— هل يمكن ان تقسمي لي بأنك في الوضع النفسي ذاته ، مثل أمس مساء ، يا سيدتي ؟ ما إن جاءها صوته الأجش حتى أجفلت . لكنها سيطرت على اضطرابها وقالت دون ان تتحرك :

— انت لا تزال خائفاً . لو كان في بيتي توقيفك لأرسلت في طلب الشرطة أمس مساء .

سمعتة يلهث ورات بطرف عينها انه يضع يديه على صدره كمن يجد صعوبة في التنفس . وظلت ساكنة رغم قلقها . بعد برهة ، وحين تفادوا أكثر هدوءاً . ستنهض وتفادر هذا الرجل حتى ساعة هروبه . أخيراً قال :

— سامحيني . فانت لا تدريين ما الليلة التي امضيته .

كيف ؟ انت لم تنم ؟

— استيقظت قبل 'الحادية عشرة بقليل ولم أعد أقوى على الرقاد مجدداً . إن وقع الخطى هو الذي يقظني .

— كنت تحلم .

— اعتقدت وقتاً طويلاً بوجود شخصي يمشي حقاً في الممر ، بل
اتنين ، ثلاثة أشخاص يصعدون الدرج . ثم تراءى لي أنني أسمع
طرقاً على الباب ، بين دقيقة وأخرى ، طوال الليل .

— يا لها من مشاعر صبيانية ! كان عليك ان تتعقل ، وترغم نفسك
على الرقاد .

— انتابني الحمى .

تذكرت كيف امضت ايلتها هي نفسها وجعلتها ذكرى آلامها تشعر
بالشفقة على عذاب ذلك الرجل . لكن شيئاً ما حال بينها وبين
الانصراف الى تنفيذ الخطة التي وضعتها . اضاف قائلاً :

— ان المرء الذي يعيش متخفياً وحيداً . على نحو ما فعلت طوال
شهور ، يصبح عرضة اكافة اشكال الهلع . وعليه فاني لا قسم بأن
رجلاً كانوا يروحون ويفدون في الحديقة تحت هذه النوافذ . وقلت في
نفسي لمل خادماً سمعني صدفة وأنا داخل مساء أمس . وأن الدار
مطوقة .

فقاطعته بصوت عاد الحزم يتجلى فيه . وبدأ لها أن ضعف ذلك
الرجل يثار لها من ذلك التخاذل البسيط الذي وجدت عليه نفسها
بالأمس ، ويثار لها من دموعها . فقالت :

— الا تحمرّ خجلاً وانت تسرد لي قصة مخاوفك ؟ الى أين
سيؤدي بك كل ذلك ؟ الا انني لا أستطيع منعك من أن ترتعد اذا ماكنت
خائفاً مذعوراً .

— سيدتي . أريد أن انصرف . انتابني الخوف . أجل . ولا أزال خائفا . لكنني أريد أن انصرف . حتى وإن لم توافقي على منحي ذلك المبلغ ...

كان جوابها الوحيد أن نهضت وأخرجت من نطاقها المظروف الذي أعدته من قبل . 'إن ما رأيته على غيره من قلق جعله مستضعفا في نظرها ، فهنأت نفسها لأنها لم تنم على المشاعر التي أحست بها نحوه . قالت وهي تناوله المال : « هاك » . ثم أضافت تقول في نفسها : « خذ يا جبان ! »

— لم تفعلين ذلك ؟

هذا شأني . هيا ، خذ هذا المال .

فرضخ ووضع المظروف في جيبه . ثم حوّل نظره مستفسرة فاستقرت عليها وقال على شبه مضض : « شكرا » . قالت وهي تقعد مجددا :

— لا فائدة من التفكير في الانصراف الآن ، ينبغي أن تنتظر حتى الثانية عشرة والنصف .

— طيب ، يا سيدتي .

— سوف أتركك حين يغادر زوجي الدار . فلو خطر على باله أن يأتي الى هنا ...

— ماذا تفعلين ؟

— أطمئن . لن افتح ، لكنني ساكون هنا على الاقل حتى أرد على ندائه . تذكر على كل حال ، اذا قرع احدهم وانت في الغرفة وحدك فلا تجيب .

— طيب يا سيدتي .

قامت فمرت من أمامه دون أن تنظر اليه ومضت لتقف حيال
النافذة . وتمتت :

— لماذا لم يخرج بعد ؟ مع أن الطقس حسن .

جعلها نفاذ الصبر تُعْمِلْ أظافيرها في طرف الستارة التي تقف
حيالها . كانت تعرف أن غيره يتفحصها بعينه ويتابع حركاتها واحدة
فواحدة . سوف تنقضي السنون لكنها ستظل تتذكر هذا الوقت دقيقة
بدقيقة ، وتتذكر الحديقة الميتة ، ووحل الماشي وقد جمده البرد ،
ودفء الغرفة التي تقف فيها ولهاث ذلك الرجل الخائف .

سأله دون أن تتحرك :

— ماذا كنت تفعل في باريس ؟ كيف كنت تؤمن معيشتك ؟

— كان معي شيء من المال يوم هربت .

ورغبت في أن تسأله من أين جاء بذلك المال لكنها اثرت الصمت ،
وقد تحرك فيها الحياء على نحو مباغت . لقد ارتأت بدافع من غرورها
أن تتصنع اللامبالاة وأن تتكتم على كل الاسئلة التي كانت تتحرق شوقا
لطرحها على ذلك الرجل ، لكن قلبها انقبض فزعا وهي ترقب انقضاء
ساعة لن تجود عليها الحياة بمثلها أبدا . فما الذي إبقاها ساكنة على
ذلك النحو قرب النافذة : رباطة الجأش أم الحمق ؟ ما همها أن تكون
قوية أم ضعيفة ؟ كانت تتعذب . لو انها غادرت القاعة الصفراء قبل
بضع دقائق لتفادت الاغراء العنيف في التحدث الى غيره . اما الان فهي
لا تتمنى شيئا بقدر رؤيته وهو ينصرف . سينتهي كل شيء في الثانية
عشرة والنصف . سوف تستعيد هدوء روعها وسط القنوط ، لكنها
لن تقوى على التقاط أنفاسها مادام هناك . فقبل قليل كانت تزدرية .

وتهللت بسبب ما اكتشفته من جبن لدى هذا الرجل لان ذلك الجبن يفصلها عنه حسبما رأت . أما الان فلم تعد تدري ما الذي انتابها على وجه الدقة . فبقاؤها مع غيره في نفس الحجرة اضحى غير مقبول ، لكنها كانت متيقنة من جهة أخرى من أنها لن تنصرف ما لم تكن مرغمة على ذلك . فالمرء الذي قدمته الى غيره كان بمثابة زوغان من وجه الحقيقة فها هو زوجها يعبر الحديقة ليخرج . الا انها لم تشر لذلك . بل املت أن لا يسمع صرير الباب وهو يفتح ثم يفلق وراء المسيو غروج . وقررت فيما اذا سمع الصوت أن تقول انه أحد الخدم وليس زوجها . وسعت لتحويل انتباهه عن وقع الخطى فوق حصباء الممشى فصادت تقول مجددا :

— كان معك قليل من المال .

واستدارت صوبه فاعتقد أنها تستجوبه ، فاطرق رأسه وقال :

— أكثر من مئة فرنك بقليل . وبعد اتفاق ذلك المبلغ بعت ساعتى ثم بعت خاتما .

وسأله بشيء من الفظاظة :

— ألم تسول لك نفسك يوما أن تسرق ؟

— كلا .

في الاسفل عند طرف الحديقة فتح المسيو غروج الباب الشبكي وخرج .

— لكنك ارتكبت جريمة قتل : اليس حريا بك أن تكون قد سرق ؟

نطقت بتلك الكلمات على نحو من العنف لم تقو أن تسيطر عليه واجتازت القاعة حتى مكان غيره . انه لم يسمع الباب الشبكي ينفتح

وينفلق ، وهو يحسب أن المسيو غروجورج مايزال في الدارة . فبوسعها
أن تبقى .

قالت وقد تضايقت من هيئته المرتبكة : أجب .

فهز رأسه وأجاب : لم أسرق . أقسم لك على أنني لم أسرق قط .

وفكرت قائلة : « ماذا يعنيني من ذلك ؟ انه مرتحل » . ثم تحولت
بغثة من موقف الى موقف آخر ، وحدثت في وجهه فأرغمته على أن
يفض من بصره . قالت :

— لم تصرفت على ذلك النحو ؟ لماذا قتلت ذلك الرجل ؟

وقالت في نفسها مجددا : « وماذا يعنيني أن كان قتله ؟ ليس هذا
ما أريد أن أعرفه . » سمعت صوتها هي ، الحازم والقاسي جدا ،
فبوغت للبرة الهادئة التي تتكلم بها ، بينما تولاهما احساس بالدوار
فتشبثت براوية خزانة . وتمتم ممتع الوجه :

— لم اقتل ذلك الرجل .

فمضت تقول : وماذا عن تلك الفتاة اذن ؟ لن تقول إنك ... لم
توشك أن تقتلها ..

رأت وجهه يتشنج كمن تلقى ضربة . لكنه لم يجب . هل أتيح
لها أن تلاحظ من قبل تلك الفضول تحت أجفانه وفي طرفي عينيه ، وأن
تدقق النظر في حدقتيه بلونهما الاصهب الغريب ؟ لقد تهيأ لها أنها لم
تأمل قسمائه قط حتى ذلك النهار وتلك الدقيقة . وتساءلت عن
مبعث القوة التي جاءتها لتقف أمامه وتستجوبه . أخيرا قال لها بتهيدة،

— لم تطرحين علي كل هذه الاسئلة ؟

وقالت في نفسها : « أجل ، لم ؟ » لكنها رغم ذلك مضت تقول :

— تلك الفتاة ، أنجيل ... لقد عذبتها ، أليس كذلك ؟ عند ضفة
النهر . لقد أخبروني .

ترأى لها وهي في تلك الحجرة الصغيرة المحكمة الاغلاق ان الصمت
يحاول اخماد وقع كلامها ، فقد كان صوتها خافتا وغير واضح تقريبا .
وفهمت من نظرة غريبه انه ادرك اضطرابها فاحمرت خجلا . وكان بودها
لو تصرخ . ثم اضافت :

— بلى . لقد أخبروني بكل شيء . والصحف روت كل شيء . لم
كنت حاقدا عليها لتسيء معاملتها على ذلك النحو ؟ لقد أوشكت ان تبوء
لماذا كنت تكرهها ؟

وهز راسه نفيا :

— لم اكن اكرهها .

شمرت ان غضبا مباغتاً فد استبد بها فخبطت بقبضتها ظهر
الكنبة .

— لم تكن تكرهها ؟ لم تكذب عليّ ؟ هل أنت خائف مني ؟ أنا لست
قاضي تحقيق . هيا ، قل لي !

— قلت لك الحقيقة . كنت ساخطا عليها ، لكنني لم اكن اكرهها ،
بل على العكس . كان بودي ...

ثم توقف بغتة ووضع يده على صدره . فتراجعت قليلا . وبادرت
بحركة كأنها تريد ان تمنعه من مواصلة الكلام . فصارت خائفة مما
سيقوله وندمت على اسئلتها ، لكنها لم تدع امامه من سبيل قال :

— لو كان بوسع المرء أن يكره ما يعبد ...

فقطاعته على الفور وهي تنغمم :

— ذلك مستحيل . فاما هذا وإما ذاك .

فواصل وهو يرفع صوته ، اذ بدا أنه نسي منذ بعض الوقت
كل حذر :

— لقد انتابني الغيرة . كنت أعرف أن الجميع يعطونها مالا . إلا أن
المال يعوزني فكانت تهزأ بي . وذات يوم ، اختلست مالا مما وفرته
زوجتي وقلت في نفسي إني سأعطيه لأنجيل . من ثم ، حين وقعت
عيني على أنجيل في ذلك الصباح ، بدا لي أنني قد فقدت صوابي .
فضربتها ، ضربتها ...

— أجل ، إخرس . أنا لم أسالك ...

والصقت كفا بكف ولبثت ساكنة . قال :

— لا يسمعك أن تعرفي كم تأملت بسبب تلك المراز . مكثت بعيدا عنها
طوال ما استطعت . وفي غضون شهرين صرت مرغما على العودة
إلى هنا .

لم تفهم فحوى كلامه بادئ الأمر ثم اتضح لها المعنى بغتة فاعتقدت
أن من المستحيل أن تكون أحسنت سمعا . وتشبثت يداها الواحدة
بالأخرى كأنها تريد سنداً من وراء ذلك .

— عدت إلى هنا بسببها ؟

— بكل تأكيد ، لقد قلت لك ...

شعرت بشيء يمسك بخناقها . فقالت بمشقة :

— ظننت أنك عدت اتطلب مني أن أساعدك .

وأسفت من قورها على قول بدا لها مضحكا ، لكنها لو لم تتكلم
لانفجرت بالبكاء .

ولاحظ اضطرابها فقال بنبرة مغايرة وشبه مستندلة :

— لم أجسر على الاعتماد على سخائك .

هزت يدها نحوه مشيرة ألا يضيف شيئا ومشت صوب الباب
بخطى متصلبة وبطيئة كأنسان آلي . وحين مرت من أمامه دون أن تلتفت
ناحيته تمنى أن يرتمي على قدميها متوسلا لكي ينصرف ، لكنه خشي أن
يستثير غضبها إذا ما أبدى لها أنه حذر منها . وساورته ظنون رهبة
على حين غرة : هذه المرأة ستفدر به .

— سيدتي ...

حين وصلت الباب استدارت صوبه وحدقت في وجهه ، فرأى أن
عينيه قد اضمحتا بلا حياة في وجهها الشاحب ، وانتابه شعور بأنها لم
تكن تراه . قالت بصوت مخنوق :

— يجب أن أقول لك . لقد رايت أنجيل . وهي تكرهك .

وأجفل .

وأضافت باندفاع :

— إنها تكرهك . إنها نخشاك . أجل ، أنت تخيفها ، تخيفها ...

فتمتم :

— هذا غير صحيح . أنا اعرف ...

فأومات بحركة متسججة من رأسها كمن يريد أن يقول لا ،
وخرجت . وسمع المفتاح يتحرك داخل القفل .

- ١٢ -

عبرت الممر مثل من يمشي وهو نائم وجاءت لتجلس فوق صندوق خشبي يشغل الحيز بين بابين . كان يسود المنزل صمت مطلق . فالطاهية الآن في السوق بشكل مؤكد . ثم تذكرت أنها أذنت للوصيفة بالخروج . كان النور يتسرب من قبة المنور الذي يضيء الدرج . إنها تعرف هذا النور حق المعرفة وتعرف أيضا شكل قطع الاثاث كلها وشكل الدرجات ، في صباح يوم شتوي . كما تعرف ظل المقاعد فوق الجدران وكيف ينعكس النور عن القضبان النحاسية اللامعة التي تحمل الستائر فيسقط فوق السجادة الحمراء . وبدا لها ، وهي على وضعها ذاك غارقة في حلم موجه ، إن تلك الأشياء كلها تؤلف من حولها عالما ، ترى انها توشك أن تغادره ، بينما هو يتمسك بها . حين كانت قبل قليل بصحبة ذلك الرجل ، لم يكن أي شيء يشابه ما عرفته من قبل . قاعتها الصغيرة تغيرت على نحو لا يمكن تفسيره . وتراءى لها طوال نصف ساعة أنها ليست في بيتها ، بين قطع اثاث يقع نظرها عليها يوميا ، ومنذ ثلاثين عاما . هذا الشعور كان مألوفاً لديها . ففي ساعات الالم الشديد او في ساعات السأم المضمي ، ينتابها الاحساس بأنها غريبة عن هذا العالم . ويكون إحساسها على درجة من القوة تفقد منه الأشياء الأرضية على نحو مباغت كل أهمية لها مدة بضع دقائق . شعرت بذلك هنيهة وهي حيال النافذة ثم جاءت كلمات غريبه فأعادتها الى ذاتها . والآن تجد نفسها ضمن مجرى الحياة .

قالت في نفسها : « كيف يقاسي الانسان كل هذا العذاب ولا يموت ؟ » لم يكن بوسعها أن تفكر في غيره من غير أن يتولاها إحساس بالعار ، فيحمر وجهها خجلا ، لانها أضحت مقتنعة بأنها انساقت لتصير هزاة في عين ذلك الرجل ، وهذا ما يتسبب لها بأشد العذاب . فأى اضطراب

عقلي أصابها حتى حسبت أنه رجع من أجل أن يطلب منها المون ؟ ما من شيء يمكن أن يدفع به السير على درب مغامرة خطرة خطورة الرجوع الى لورج غير الهوى ، لكن ذلك الهوى ليس يقصدها ، ليس لها من نصيب في ذلك الحب الطاغى الذي قاد ذلك الرجل نحو امرأة . كل دورها في تلك القصة لا يعدو دور امرأة على منحدر الشخوخة تتدخل في ما ليس من شأنها . وهو ما رأيته ؟ لقد أضحت تكرهه بغتة ، بسبب ما يحمله من أفكار . ماذا اوتخيل أنها واقعة في هواه ؟ لكن ، أليست تلك هي الحقيقة ؟ خبات وجهها بيديها . فالعبارات والكلمات التي تحدثت الى نفسها بها وصاغت بها هواها ، بدت لها مثيرة للجزء الى درجة غير مقبولة ، فيما كانت تسلم بوجود ذلك الحب الذي كان يفتك بأحشائها . كانت تخشى ان تقرب من التعابير الدقيقة التي ينبغي استخدامها لوصف حالتها النفسية ، وتفضل بصورة عامة ان ترمي بهواها وسط فوضى من المشاعر غير المباح بها . أما الآن ففدا التهرب من وقائع الحياة مستحيلا عليها . وفي هذه الساعة عينها . وهي تجلس فوق هذا الصندوق الخشبي عند ذلك الدرج ، كان مصيرها ينجز . وكانت على دراية بذلك . كانت تتمنى بينها وبين نفسها ، بفزع مرعب ، أن لا يكون غيريه وراء باب القاعة الصغرى قد تبين افكارها : « أنا واقعة في هوى ذلك الرجل وهو يعشق امرأة غيري . »

لم تجرؤ على أن تدير نظرها ناحية الباب الذي أغلقته لتوها . ليته لا يشك بشيء ! إن حظها لسعيد ، إذ لم تدعه للنزول الى غرفتها أمس مساء ، على نحو ماخطر ببالها لحظة . فلو تعرضت للاذلال عن طريق الصد البشع ، لألهبت دماغها بطلقة مسدس . لأن حياتها ستغدو مستحيلة . وتفجرت بالدمع مآقيها لفكرة موتها ، بعد أن عجز الانفعال العنيف الذي اجتاحتها قبل قليل عن انتزاع دمة واحدة .

سمعت على حين غرة صوتا صبيانيا يناديها ، فجفت مآقيها وقامت فنزلت . كانت فرناند تنتظرها في الطابق الأرضي وقد وضعت

أمامها سلة غسيل كبرى . لقد نسيت مدام غروج جورج أنها ستأتي . وهل
يسع المرء في ساعات الآلام القصوى أن يفكر في تسديد حساب الغسيل ؟

إلا انها الحياة العابثة بجراحنا . وها هي ترغمها على تفحص
القمصان والمناديل بينما قلبها ينزف دما . خطر ببالها أن تطلب من
الوصيفة القيام بتعداد القطع بدلا عنها ، لكنها تذكرت أنها قد أجازتها .
بيد أن الاهتمام بالغسيل سوف يمنعها في نهاية المطاف من الاستغراق
في التفكير ، فيساهم في إنقاص دقائق من ذلك الصباح المقيت .

— نَعَمْ صَبَاحَك ، يَا سِيدَتِي .

صغيري . قربي سلتك من المنضدة . أين دفتر

على درجة من البراءة ، بساقيها المحمرتين من
شقتين وشالها الصوفي الأسود الشنيع وقد
ما !

.

للمي أن يعطوك طاسة قهوة بالحليب من المطبخ .
د بسبب ساقيك العاريتين . ما هذا الشال
ينبغي على أمك أن تشتري لك ممطفا وقفازات

صوفية .

(من أين جاءت دقيقة الحنان تلك على حين غرة ؟ لقد وقعت عيناها
عشرات المرات على تلك البنية من قبل ، من غير أن تلقي بالا لثيابها مرة
واحدة . أما الآن فتحدوها رغبة غامضة في تقبيل هاتين الوجنتين
الحمراوين . والقبض على هاتين الكفين لتدفئتهما داخل يديها . وأخذت
ركبتاها تصطكان فاضطرت لأن تقعد :)

— لن أقوم اليوم باحصاء عدد قطع الفسيل يا فرناند . قولي لمدام
برود : إذا نقص شيء فسوف ندونه على الدفتر في الأسبوع القادم .
أسألي الطاهية عن الثياب المتسخة .

— طيب يا سيدتي . لك هنا رسالة داخل الدفتر .

— رسالة ! ممن ؟

وأخرجت من بين أوراق الدفتر رسالة وقرأتها :

« أتوسل الى سيدتي أن تتذكر أنها وعدتني بأن تساعدني . أما
إذا ما تكرمت سيدتي وأخبرتني بما تنوي القيام به نحوي فسوف أكون
ممتنة لسيدتي . ليس على سيدتي غير تسليم كلمة الى فرناند —
أنجيل » .

أنجيل ! أرخت مدام غروجورج الرسالة فسقطت عند قدميها ،
وكررت في ذهنها ذلك الاسم الذي تكرهه . ما هي النية المختصة وراء
مصادفات الحياة لو تفكرنا في الأمر لما كان مدهشاً أن تسلم إليها تلك
الرسالة . لكن اسم أنجيل بدا كأنما جاء بشكل خاص ليزيد ألم
مدام غروجورج حدة ، وهي في حالتها النفسية تلك . فلبثت ساكنة
لحظة ثم انتزعت ورقة بيضاء وأخذت القلم الموضوع في دفتر الحسابات
وقالت بصوت قاس وهي تلهث :

— سلمي أنجيل هذه .

بيد أنها لم تكتب شيئاً . فقد استقر نظرها على البنية . فقالت
لها بفتة :

— اليس هذا الذي تتلفعين به هو شالها ؟

— أجل ، يا سيدتي . أنجيل أعارتني إياه .

قالت في نفسها : « لا ادري ان كان يعرف انها مشوهة . سأذهب
لاخبره بذلك » .

وقامت بحركة عنيقة من يدها . كلا ، لن تذهب لتقول له ، لن
تذهب لتنازع على ذلك الرجل احدى بنات الشوارع . ومهما تكن
الافكار التي تتنازعها وهي وحدها ، فانها تشعر الآن بزهوها كله
يستميدها ، لأن أمامها كائنا بشريا ينظر اليها . وعاد اليها ازدراؤها
للعالم ، فقد بدا لها ان العالم كله ينظر اليها ويحكم على سلوكها من
خلال عيني تلك البنت . وانتابها الخجل من نفسها . . فبأي حق تزدي
البشرية ؟ اليست ضعيفة مثل أية امرأة أخرى ؟ لو اتيج لاحد أن يراها
في الليلة الفاتنة ، وان يسبر أغوار قلبها ، لراها وهي تحلم بذر المخدر
وبآلاف الاشياء المستحيلة ، لما تعرف فيها على المرأة المتفطرة الباردة
التي يراها في النهار . ومهما بدت على درجة من الكبرياء ، فان رجلا قد
انف منها وأشاح بوجهه عنها هي ، لامن تلك الفتاة التي تزديها .

— ما بك يا سيدتي ؟ ألسنت على ما يرام ؟

لكن مدام غروجورج ابعدت البنت التي أقتربت منها . وامتقع
لون وجهها ويديها ، وملأت صدرها ضربات كبرى خافتة . لو تحطم
شيء داخلها في هذه اللحظة لبدا لها الموت مقبولا . لكن الحياة واصلت
مسيرتها داخل ذلك الجسد الذي حطمه العذاب النفسي . لا يعلم ما
ينبغي لقتل انسان الا الله .

— قوليني .. انجيل .

وملا قلبها السخط على العثرات التي أوقعها فيها القدر .
النساء الأخريات سعيدات ، أما هي فلن تعرف السعادة أبدا . وإذا
صح أن الانسان يولد على الارض ليستمتع بالحياة ، لكان من الخير
الا تولد البتة . واستبدت بروحها على نحو مباغت ضفينة جنونية ،
فسولت لها نفسها مدة ثوان أن تضرب تلك البنت ، التي كان وجهها

قريباً منها حتى كاد يلامس يديها . فعبء الآلام الثقيلة التي رزحت تحتها ، حشها على الحاق الأذى بغيرها حتى تهناً نفسها قليلاً . أضحت حياتها خاسرة خسارة أبدية ومن الخير لها أن تتخلى عنها . فهذه المعذبة بنفسها ، تنحرف العواطف لديها منذ البداية حتى يتخذ الحب نفسه لبوس الحقد . أما الرجل الذي سلمها آياه القدر ، فتكرهه مثلما تكره المرأة التي وقع في هواها . وله تصمد أمام الاغراء في وضع مصير أحدهما في يد الآخر . فدونت على ورقة بيضاء ، وكأنها تنتحسر ، الكلمات التالية :

« غيريه مختبئ هنا . هيا ابلفي الشرطة » .

قالت للبننت الصغيرة وهي تكز على اسنانها :

— دعي سلتك هنا ، وخذي هذه الرسالة الى أنجيل . امضي ناقصى سرعة . المسألة هامة جداً .

* * *

- ١٣ -

انقضت ساعة بحالها ومدام لوند جالسة قرب المدفأة في قاعة الطعام ، تحيك شالا من الصوف الاسود وتكلم نفسها . لكن ينبغي أن يتمتع المرء بسمع مرعف ليدرك ما كانت تقوله ، فالصوت الخارج من بين شففتيها أشبه بلفظ مشوش تختلط الكلمات فيه . لقد وضعت كنبه القش التي تجلس عليها بين المدفأة ومكتبها ، حرصا منها دون ريب على أن لا تقع عليها عيون المتنزهين الفضوليين . وما نجمت حاجتها للتواري عن الاعين الا لانها كانت تضع نظارتها . فهذه المرأة الصائرة الى الموت ماتزال لديها رواسب صغيرة من وسائل الاغراء تبلغ في تفاهتها حد الشؤم . واذا كان الاغراء يخضع للرغبة في نيل الاعجاب ، فمن هو الذي ستحظى باعجابه مدام لوند وقد ربت اعوامها على خمسة وخمسين؟ ولو رأيتها وهي مجللة بالسواد ، ضخمة الجثة . مقوسة الظهر ، لقلت انها تحدث النار التي ترد عليها بانينها . كان رأسها يميل من وقت لآخر مؤديا تلك الحركة التي يقوم بها المسنون كأنهم يجيبون : « كلا » حين يدعوهم القبر . وتستقر يداها بهدوء على ركبتيها فينزلق الشال ويسقط على الارض . عندئذ يخرجها من اغفاءتها القصيرة صوت ارتطام الصنارتين الأعظميتين بالارض ، فتجبل نظرها فيما حولها بهيئة ذاهلة ، فتثبت نظارتها فوق أنفها الكبير المكرب ، ثم تنطوي نصفين وهي تنن وتحرك يدها كالمجذاف الى أن تشر على شالها .

انفتح باب المطعم على حين غرة ودخل احدهم الى القاعة الكبرى ركضا . انها فرناند . لم تقع عينها على مدام لوند . وحين أوشكت أن تمر من امامها ، أوقفها صوت المعلمة في مكانها :

— الى أين انت ذاهبة ، يا صغيرة ؟

فصدرت عن الصغيرة صرخة فزع :

— لم اكن اعرف انك هنا . يا مدام لوند .

— أولا ، قل لي يا خالتي ، وانت ، من بعد ، في عجلة من امرك .
لقد سألتك الى أين انت ذاهبة . فهل ستجيبين ؟ لم عدت في هذه
الساعة المبكرة ؟ أين سلتك ؟

— عند مدام غروجورج .

— تركت سلتك عند مدام غروجورج ؟ قل لي . هل جننت ؟ هيا ،
مابك ؟ تعالي حدثيني .

وقبضت عليها من يدها وارغمتها على الاقتراب منها .

— دعيني اذهب . يا مدام لوند .

— مدام لوند ستوجه اليك صفقة اذا لم تقولي لها يا خالتي . اما
بعد ، فلا تبكي . اهنالك شيء ؟ ما هو ، قل لي ؟

وشدت على الطفلة بركبتيها وقبضت على مرفقيها بحزم .

— لم عدت راکضة . بعد ان تركت سلتك عند مدام غروجورج ؟

— مدام غروجورج حملتني توصية الى انجيل .

— آه . اية توصية ؟

— لا ادري .

— هل تريدین صفة ؟

— انها مكتوبة على ورقة ؟

— اذن اعطني تلك الورقة .

— لن يروق ذلك لمدام غروجورج . اقد قالت ان هذه لانجيل .

— انا ساتولى الامر . اين الورقة ؟

أخرجت البنت الورقة من تحت مريلتها السوداء واعطتها للمعلمة
ففتحت هذه أسر فرناند وقالت لها : « اجلسي هناك » مشيرة بيدها الى
أحد الكراسي البعيدة عن المكتب .

ما ان ابتمعت الصغيرة ، حتى أعادت مدام لوند تثبيت نظارتها
وقطبت حاجبيها وهي تنظر الى الورقة . فكتابة مدام غروجورج أشبه
بما تخطه ريشة المرجاف (١) . لكن بضع دقائق من الجهد مكنتها من
تفكيك الكلمات الاولى : فلم تقو على كتم صرخة . وقالت وهي تهتز في
كنبتها :

— هذا غير ممكن !

عاد نبض حياة جديد ليدفع بالدم الى قلبها مما جعل ضرباته
تشتد . فهذا الرجل تسبب بمصائب عديدة : أرعبت المدينة وحملت
الويلات الى مطعمها هي . تم جاءت عدالة السماء لتضعه بين يديها .

لم تفكر حتى في مواصلة قراءة الورقة التي شدت عليها بقبضة
يدها . ثم لبثت بضع ثوان عاجزة عن الاتيان بحركة من شدة الانفصال
لم تعمل في نفسها غير فكرة واحدة :

١ — آلة لتسجيل درجات الزلازل .

أن تستعجل ، لكنها لم تتحرك . هناك شيء يسمرها فوق مقعدها
فيما تتجمع كل القوى المسنة في داخلها متحفزة للوثبة الكبرى التي
ستضعها على الطريق . لبثت فاعرة فاها ، ثم انطلقت من بين شفيتها
صرخة على نحو مباغت .

— يا فرناند ! قبعتي !

لكن ما من جواب .

— أين هي ؟ يا الهي . لا بأس ، سامضي بلا قبعة ، بلا ...

وتحررت بغتة ، فقامت منتصبة فوق ساقبها بجهد شاركت فيه
عضلاتها كلها . ثم أجالت الطرف فيما حولها ، وهي واقفة ، كمن أصيب
بدوار . فقد غربت عيناها وراء نظارتها تحت تأثير الغبطة والمفاجأة .
وتنهدت بعمق وقالت :

— لا بأس .

كانت تبحث دون شك عن ثوب تضعه على كتفها ، فالبرد قارس .
وكلمة « لا بأس » تلك ، التي نطقت بها بكل إجلال ، كانت ذات طابع بطولي
مثل العبارات التي يتفوه بها الجنود قبل خوض المعركة : كان بمقدورها
أن تصعد الى غرفتها لأخذ معطف أو عباءة ، لكنها فضلت أن تضحي
براحتها الشخصية ، وتعرض نفسها في الشارع لنزلة برد ، كي تمضي
بسرعة نحو واجبها الهائل .

وبينما هي تدفع بالكنبة جانبا لتتوجه نحو الباب ، ازعجت جرذا
طرده البرد من مسكنه في القبو ، فجاء يبحث عن الدفء والراحة تحت
نياب تلك المرأة التي كانت تجهل وجوده .

في تلك الاثناء صعدت فرناند الى غرفة انجيل . كانت الفتاة ،
رغم الوقت المتأخر ، مازال في سريرها ، ووجهها الى الجدار والأغطية

الى فوق أذنيها . ربما كانت غافية حين دفعت الصغيرة الباب وقالت
بصوت مسموع :

— أنجيل . انهضي !

— هذه انت يا فرناند ؟ لم عدت باكراً هكذا ؟

— لذيّ نأ هام أحمله اليك . ينبغي أن تنهضي وتلبسي ثيابك بسرعة .

— لكنني لا أستطيع ، فطوال الليل لم يغمض لي جفن . إني مريضة .
ما المسألة ؟

— حملتني مدام غرو جورج توصية اليك . لقد أعطتني ورقة ، لكن
مدام لوند أخذتها مني قبل قليل .

— وماذا في تلك الورقة ؟ هيا قولي .

— لقد قرأتها وأنا في الطريق . كتبت مدام غرو جورج : « غريبه
مختبئ هنا . هيا أبلغني الشرطة » .

جلست أنجيل في سريرها وأطلقت صرخة .

— مدام لوند قرأت الورقة ؟ ؟ ماذا قالت ؟

— سمعتها تناديني وأنا أصعد الدرج . كانت تريد قبعتها .

— ذلك كي تذهب الى السراي ! ينبغي منعها من ذلك ، يا فرناند
إلحقي بها . ناديتها .

يا الهي !

— لقد خرجت . سمعت لتوي الباب يفتح ويفلق . عليك ان تنهضي
وتسرعى الى مدام غرو جورج .

- ان اجد الوقت الكافي حتى ارتدي ثيابي . فالسراي على خطوتين من هنا . اسرعي الى الدارة واطلبي مقابلة غيرهه .
- من المؤكد ان مدام غرو جورج ليست راغبة في أن أراه .
- في أية حجرة يقيم ؟
- لا ادري .
- نأديه من الحديقة . قولي له ان يهرب . هيا بسرعة ، بافرناند !

* * *

- ١٤ -

حين وجد غيريه نفسه محتجزاً في قاعة مدام غروجورج الصفري ،
 حصر اهتمامه الاول في البحث عن كيفية الهرب من ذلك السجن ، لانه
 غداً واثقاً منذ بعض الوقت من انها ستوقع به ، وان رجال الشرطة
 سيدخلون الدارة قبل انقضاء ساعة ، بل قبل خمس عشرة دقيقة ،
 ويوقفونه . وسوف يقع ما يرهبه أكثر مما يرهب الموت : سيضعون
 القيد في يديه ، ويقتادونه الى السراي ثم ينقلونه من هناك بعد بضعة أيام
 الى السجن الرئيسي في المقاطعة . لقد قامر وخسر . راهن على كل شيء
 وخسر كل شيء . خسر أولاً حريته ومعها أنجيل . لقد انتهت تصفية
 حساب سعادته على الأرض ؛ لم يبق أمامه الا سنوات من الاختناق في
 زنزانة ضيقة أو المشي المضني لحكوم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

خاطر بأن يراه أحد ففتح النافذة ونظر : المسافة التي تفصله عن
 الأرض تتجاوز ثمانية أمتار . يستحيل عليه الانزلاق على الجدار .
 فالحجارة خالية من أي نتوء . أما القفز فيعني الانتحار .

الباب الذي أدار قبضته حتى لوى محورها ، صمد أمام قوة يديه
 الجبارتين . عندئذ حاول انتزاع بزالات القفل بمديّة صغيرة . لكن نصليها
 انكسرا من غير أن يقوى على ادارة واحد من البزالات الاربعة نصف دورة .
 وزاد القفل من اضطرابه فحصر همه في العمل على اقتلاع القفل بأي
 ثمن من أجل فتح الباب ، وبحث في الغرفة حسى أن يجد ما يساعده على
 تحقيق هدفه . فعثر على مقص صغير في جزار خزانة ، لكنه انكسر وهو
 يحاول اعماله بأصابه الخرقاء : لا بد من الوقت والمهارة وهُدوء

الاعصاب ، من أجل تحريك الرؤوس الحديدية الصغيرة التي استشارها من دون فائدة .

بفتة تخطى عن مشروعه وهرع الى النافذة مجدداً ففتحها . وبينما كان ينحني خارجاً ، جففت الريح الجهودية العرق عن جبينه وجددت طاقته . لو تشبث بيديه بحرف النافذة وترك جسده يتدلى لانقصر المسافة بينه وبين الأرض بشكل ملحوظ ولأمكنه أن يقفز . فهو طويل القامة ، ويصل طوله ، وذراعاه ممدودتان ، الى مترين . لكن كيف السبيل الى القفز من علو ستة أمتار ؟ سوف يسقط الى الخلف ، فتنتهي السقطة بكسور في ظهره . لو لم يكن يخشى الموت لقبول فرصة الخلاص المهيأة له . لكن الخوف في تلك الساعة كان مسيطراً عليه .

ابتعد عن النافذة من غير أن يفلقها ، وكأن الاحتكاك بالهواء الداخل بحرية الى جو القاعة قد حمل شيئاً مطمئناً . أما خارجاً ، فالأشجار على مقربة منه تهتز بمشيئة الريح ، وصدى العربات البعيدة على الطريق جاء ليترك مسمعه . فالتاس يتوجهون الى حيث يطيب لهم ، بلا مبالاة مطلقة . أمام الغم المسيطر عليه فليس موضع اهتمام أحد . رزح طوال ثوان عدة تحت عبء الشعور بالعزلة التامة . فاجتاحته رغبة عنيفة في أن يهرع نحو الجمهور ليلتقي بالانسانية التي أرغم على الهروب منها .

اجال نظره وهو واقف وسط الغرفة في كل ناحية . كان الباب مغلقاً بالفتاح والنافذة مفتوحة على الموت . لم يبق إلا المدخنة . لقد قرأ قصص هروب كثيرة قام فيها الرجال بالهرب عن السطوح التي صعدوا إليها من داخل المدخنة . لكن ما هو ممكن في المدينة التي تتلاصق أبنيتها بداً مستجيلاً في الوضع الراهن : سترقى به الحال درجة الى الاعلى ليجد نفسه يتجول على اثني عشر متراً عن الأرض ، وهو الممتلىء خوفاً من علو ثمانية . ثمانية أمتار : بعض البهلوانيين يقدفون بأنفسهم من ارتفاع أعلى .

قعد وفكر . ربما كانت تمر الآن أثنى دقائق في حياته ، بينما لا يقوم بأي تصرف . ويركن الى السكون فيما تحيك امرأة الدسائس للعمل على توقيفه . فمنذ قليل رأى خادمة تخرج . الى اين هي ذاهبة ؟ تلك لم تكن الظاهية التي يعرفها مثلما يعرف جميع الخدم في المنزل . إنها الوصيفة التي تحدثت إليه بالأمس عند باب الحديقة . واستعاد في ذهنه بفتة عشرات التفاصيل . لم تتعرف تلك المرأة عليه وهو في الظلمة . لكن كيف استطاع هو أن يتعرف عليها ؟ من صوتها . من يدري إن كانت هي أيضا قد عرفته من صوته ؟ ضم يديه في كرفته فأحس أنهما متجمدتان . وفتح باب الحديقة في تلك اللحظة ، ثم أغلق لكنه لم يسمعه . لقد بدا معزولا عن العالم الخارجي لاستغراقه في تأمل الخطر الذي يهدده . ففي تلك اللحظة تغلب كل ما لديه من جانب حالم ومتخاذل على الحاجة للاضطراب الناجم عن التوجس الشديد . لكن الخوف عاوده على الفور تقريبا . إنه الخوف من أن يعقل الى الأبد في سجن حقيقي ليس فيه من نافذة مفتوحة أو باب يمكن خلعه .

فهرع مجدداً الى الباب وأمسك قبضة القفل بعنف وشد عليها بكلتا يديه كأنه يريد بفتة أن يقتلع القفل . لقد بدا له مستحيلا أن تقوى تلك التركيبة من القطع الحديدية الصغيرة على احتجاز رجل في مثل قوته . وتولاه الفيظ بعد دقائق من الجهد فوجه ضربة بمنكبه الى الباب .

بدأ يلهث من التعب فتوقف ، ثم تقوس نصفين وظهره الى الجدار وأجال فيما حوله نظرة غيظ وبأس . أثار مشهد تلك الحجرة حقدا في نفسه بلغ حد التفكير في احراق الستائر ، لكن فكرة الانتقام من الأشياء الجامدة بدت صبيانية ، فتحول بفكرة نحو مدام غر وجورج . ما الدافع لديها كي تغدر به ؟ لم ذلك الجمود في صوتها وذلك الشحوب الذي اعتراها حين حدثها عن أنجيل ؟ أنها معتوهة دون شك . أنها مهروسة بالحاق الاذى بالآخرين وتعذيبهم . لقد استمتعت بأحياء آمال واهنة في نفسه لتسلمه الى الشرطة من بعد . كان عليه أن يتبين نوع الفرائز التي تتحكم بها مذ أن رآها تصفع ابنها بمزيج من البرود والوجد .

خطرت ببائنه فكرة خلع الباب فحاول زحزحته من جديد ، لكنهم لم يسلخوا عليه بخشب السنديان أيام البناء ، فبقي القالب ثابتا لا يتزحزح .

شعر انه اذا ما بقي ربع ساعة اخرى في تلك الحجرة فسوف يقفز من النافذة ، لا ليهرب ، بل ليضع حدا نهائيا لعذابه . وبدت له الارض قريبة جدا من مكان وقوفه . لكن الامر وهم فقط . فما ان اقترب من النافذة وينحني حتى يبرز امامه علو ثمانية أمتار ، يتجده ان يفلت من غير أن يموت .

الا انه ترجه صوب النافذة ، ليتأكد مرة أخيرة ، من أن كل فرصة امامه للنجاة عن هذه الطريق مستحيلة . لكنه توقف . لقد لمح شخصا خارجا . انها في الواقع فرناند . كان يستطيع أن يراها تركض على الطريق المؤدية الى الدارة . لم يعرفها في البداية . ثم ما لبث أن تذكر انه صادفها ذات يوم وهي تخرج من المصبة برفقة أنجيل . وأطلق لتلك الذكرى زفرة ألم . ليته كان يعرف آنذاك ان سعادة المرء تتمثل في أن لا يكون أسيرا .

لامست يده احدى الستائر فتراى له بفتحة بصيص أمل . الستائر ! كيف لم يفكر بها ؟ لكن ذلك القماش السميك الثقيل كان محكم التشبث على الجدار . لا بد من وقت وأناة طويلين لانتزاعه وعقده وصنع جبل منه . لكنه أين سيربطه ؟ كيف السبيل الى العثور على فتحة كافية لتمرير ستارة من قلب الخزاف الحديدية الدقيقة التي تحيط بالنافذة ؟

ارتد ناحية الباب ووجه ضربة بقبضته الى القالب . وسمع في ذات اللحظة تقريبا من يصعد الدرج بسرعة فتراجع الى داخل الغرفة .

دار المفتاح في القفل ودخلت مدام غرور جورج . كان ينوي أن يندفع ناحيتها ليخرج لكن مظهر تلك المرأة أصابه بالدهشة فتوقف .

كانت على درجة من الشحوب ، ونظرتها على درجة من القسوة والجمود
حتى بدت أشبه بامرأة ميتة ، نسوا أن يغمضوا عينيها .

تمتعت من غير أن تنظر اليه :

— جئت القى عليك سؤالا .

— ماذا ؟

فأغلقت الباب وهي تمد يدها وراءها .

— قلت لي انك عدت الى اورج بسبب أنجيل . فهل تعتقد أنها
تحبك ؟

لبث محتاراً لحظة .

— أجل ، أعتقد ذلك .

— مصيرك يتقرر في هذه الساعة . انظر الى ما يجري في الحديقة .

هرع الى النافذة وانحنى خارجاً . فاستغلت الفرصة وارتحت
الباب مرتين .

وقبل ان يجد الوقت لاستدراك ما حصل ، عبرت القاعة ورمت
بالمفتاح من النافذة . فاطلق صيحة .

— ماذا فعلت ؟

— مثلما رأيت . ألقيت بمفتاح هذا الباب من النافذة . ينبغي أن
يعود زوجي في حدود الثانية عشرة والنصف . سأناديه ليأتي بالمفتاح
ويفتح الباب . سوف تختبئ خلف تلك الستائر كي لا يراك . ثم تنصرف
بينما نكون نحن على مائدة الغداء .

— لماذا رميت بالمفتاح من النافذة .

فاستدارت ونظرت اليه .

— أنجيل تعرف أنك هنا . ليس ما يدعوك لان تقلق ، لا سيما أنك تقول إنها تحبك . أما اذا جاؤوا يقبضون عليك ، فاعلم انها ابلغت الشرطة . ويكون ذلك برهانا على انها تكرهك .

لبث جامداً يحدق في مدام غروجورج ، كأنما يحاول أن يقرأ في ذلك الوجه المتشنج معنى الكلمات التي سمعها . ثم قال بغتة :

— لو أوقفوني ... لكن هذا مستحيل ، يا سيدتي . أنت لن تغدري بي .

— من قال هذا ؟ إن غدر بك من أحد ، فأنجيل هي التي ستفعل ذلك .

— كيف عرفت أنني هنا ؟

— أنا بعثت أقول لها .

— لماذا ؟

— ذاك ليس من شأنك .

— سيدتي ، دعيني أمضي في سبيلي . استدعي من يأتيك بالمفتاح .

— أنت تخشى إذن أن تغدر بك تلك المرأة ؟ كنت أحسب انها تحبك كثيراً .

— أريد أن اخرج من هنا . إن لم تستدعي أحداً ، أخلع الباب .

— عندئذ أنادي كي يوقفوك . في الدار الآن رجلان : البستاني والوصيف . كما أنني مطمئنة . بوسعك أن تتعامل مع الباب إذا ما طاب لك ، فهو متين .

فخبط الأرض بقدمه صائحاً :

— وماذا لو قتلك أنت ؟ ماذا لو خنقتك ؟

فهزت كتفيها كأن رعدة اعترتها ، لكنها لم تحول نظرها عن ذلك الرجل الذي انتابه السخط بغتة . وقالت وهي تقعد ، لخور في ركبتها :

— لست خائفة منك . أظنني كنت أجيء الى هنا لو أنني أخاف منك ؟

— إحذري يا سيدتي ! أقسم لك إنني سأقتلك لو جاؤوا للقبض عليّ .

— سوف نرى . على كل حال ، أنا لا أخشى الموت .

كانت تتكلم بنوع من الهدوء سبب ذهوله . ربما كانت تلك المرأة الفامضة تنعم ، في تلك الساعة من القلق الذي لا يقوى إنسان على احتماله ، بهدوء لم تعرف مثيلاً له من قبل . وبعد بضع ثوان بدت خلالها وهي تجهد لاستجماع قواها ، نهضت وعبرت القاعة لتجلس أمام مكتب موضوع في إحدى الزوايا . لم يحول غيره نظره عنها فراها تفتح أحد أدراج المكتب .

فسألها قائلاً :

— ماذا تفعلين ؟

اجابت وهي تغلق الدرج :

— ابحث عن ريشة لاكتب رسالة .

— لمن ؟

— لأول من يمشر عليها .

فقدم ليقف وراءها واضعاً يده على ظهر الكرسي . وقال بصوت متوعد :

— سوف تذهبين الى النافذة لتنادي على الخادم . ينبغي ان يفتح هذا الباب في غضون خمس دقائق . إنهضي .

— كلا .

— أندرك بأن حياتك في خطر .

فردت عليه من غير أن تتحرك .

— سوف تجني على نفسك بسرعة حين تقتلني . لأنني لن أقدم لك من نفع وأنا ميتة ، أما وأنا على قيد الحياة ، فبوسعي أن أوعز بفتح هذا الباب ، إن شئت .

— سيدتي ، ارحميني . أتوسل اليك أن تستدعي أحداً .

— دعني اكتب هذه الرسالة .

— بماذا أسأت إليك ؟ لماذا تكرهيني ؟

ولم تجب . فسألها مجدداً :

— لماذا تكرهيني ؟

— هذا شأني .

— هل أسأت إليك عن غير قصد ؟ لماذا احتجزتني هنا ؟

— قلت لك أن تدعني أكتب .

— الا تعلمين ان حياتي في خطر ، إذا ما قبضوا عليّ ؟

ولم تجب . فارتمى عند قدميها :

— أتوسل إليك ، يا سيدتي . فكري فيما ستشعرين به من تأنيب الضمير ، فيما بعد ، إذا ما حكم علي بالإعدام . فأنت لا ترغبين في إرسالني الى المشنقة ...

أما وهو يرى الى ذلك الوجه الذي لم يتوصل الى اجتذاب نظره ، فقد خامره الشك في أن تكون كلماته مسموعة . فهب واقفا وصاح :

— كان عليّ ان أرتاب في أنك ستغدرين بي . فقد يضربون عنق ابنك من غير أن تهتزي قيد أنملة . أنت لست امرأة ، أنت وحش مربع وان كنت قد جئت الى هنا فذلك لكي تستمتعي باستغاثتي . أنت تكرهيني . لكن حقدك لا يساوي شيئا مما أحمله نحوك من حقد في هذه اللحظة . هل تسمعينني ؟ ليتك لا تعرفين طعما للراحة بعد اليوم وأن تعاني من العذاب يوما مثل ما أعاني منه الان .

لم تتحرك . فحقد في لحظة وود لو ينهال عليها ضربا ، لكنه لم يجرؤ بسبب ما تجلّى في سكون تلك المرأة من قوة . عندئذ ، هرع بحركة سخط نحو الباب محاولا ان يخلعه .

وبدا كأن مدام غروج كانت تترقب تلك اللحظة لتفتح الجرار
لكن لا لتأخذ ريشة بل مسدسا صغيرا مرصعا بالصدف ، فدسته في
نطاقها قرب الساعة المربوطة بسلسلة طويلة .

وسمعا صوتا قادمًا من الحديقة فأجفلا معا . انها فرناند تنادي
غيريه . فهرع الى النافذة . ونهضت مدام غروج .

صاح غيريه وهو يرى الفتاة : « ماذا هناك ؟ » فردت فرناند قائلة :
- أهرب . لقد تم ابلاغ الشرطة . سوف يوقفونك .

فاستدار يائسا نحو مدام غروج . فقالت بصوت متقطع :
- أنت ترى جيدا أنها لم تكن تحبك .

ورآها تمشي نحو طرف القاعة مثل من يسير وهو نائم ، فعاد الى
النافذة مجددا وصاح بالفتاة :

- المفتاح ! التقطي المفتاح واتيني به ، انه هناك فوق الممشى .
ابحثي عنه ، في . . .

ودوى صوت طلقة من ورائه . لم يفهم شيئا بادية الامر ، ونظر
الى الفتاة فرآها تنطلق في الحديقة هاربة ، ثم ارتد الى داخل الحجرة
كأن يدا قد أمسكت به من طوقه .

كانت مدام غروج جاثية فوق السجادة منطوية نصفين وذراعها
تحتها . وفهم من الأنين المنطلق من بين شفثيها هذه الكلمات : « أجهز
عليّ . لا أريد أن أعيش . »

* * *

- ١٥ -

— ماذا يقلن ، يا فرناند ؟ انهن يتحدثن جميعهن في وقت واحد .
سأنزل الدرج لحظة لاسمعهن . أعطيني قميصي .

مسحت البنت الصغيرة بكفها على ذراع انجيل وقالت لها بتوسل:

— اهدئي . هذه مدام لوند. تكرر دوما حديثها ذاته . الجو بارد
عند الدرج وانت غارقة في العرق . تدثري ، يا انجيل .

لكن الفتاة قاومت جهود فرناند وهي تريد أن ترغمها على التمدد
كائن جالسة في سريرها ، شبه عارية . دونما خوف من برودة جليدية
تسود ما حولها . ثم قالت بحماس :

— ان كنت لا تريدن اي أن انهض ، فاهبطي الدرج وافتحي باب
القاعة قليلا حتى اتمكن من سماع ما يقلنه .

استلقت انجيل في سريرها ، لتضمن طاعة البنت الصغيرة بسرعة
وسحبت الاغطية على صدرها . لكن ما ان غادرت فرناند الغرفة حتى
أزاحتها مجددا وهي تلهت من الحمى . كان العرق يسيل من اطرافها .
وبفتة ضاقت ذرعا بتلك اللزوجة التي ألصقت قميصها بجسدها ،
فاخذت مندبلا مسحت به عنقها وكتفها وجنبها .

سمعت بعد هنيهة فرناند ، التي اضحت عند أسفل الدرج ، وهي
تفتح بتان باب قاعة الطعام ، ومثلما يتدفق الماء من فتحة في سد ، اندفع
لفظ الاصوات الصارخة نحو الفتاة .

قالت مدام كوز : « لن تغيرن رأيي أنه كان يريد أن يقتلها . »

فردت مدام كوب ، بائعة الخردوات قائلة : « لكنها لم تقل ذلك » .

فعمقت مدام لوند : التي بدأ دورها منحصرا على الدوام في احتواء مخاوف مدام كوز ، ومنعها من اشاعة الدعر فيما حولها :

— هذا صحيح . فهل تتخيلين أنها خافت ان تقول لرجال الشرطة : « هذا الرجل اطلق علي رصاصة من مسدس ؟ » لاسيما وانهم اوقفوه على كل حال ...

فردت طاهية آل غروجورج بعناد :

— لماذا لم تقل إذن ، إنها نوت ان تقتل نفسها ؟

اجابت مدام لوند التي وجه السؤال إليها ، وقد بدأ عليها شيء من التبرم :

— لأنها لم ترغب في ذلك .

ساد الصمت فترة قصيرة دلالة على ما قوبل به رأي المعلمة من تقدير . إلا أن مدام كوز اعادت الكرة بسؤالها مجدداً :

— ولِمَ لا ترغب في قول ذلك ؟

اما مدام بيلاتان . بائعة اللحوم . وهي امرأة وقحة ، تستقبلها مدام لوند لأنها مدينة لها بمبلغ من المال . فقد كررت السؤال ذاته قائلة :

— اجل . لماذا ؟

فقالت المعلمة : « انا اعرف . »

وترددت بعض الوقت لتعثر على شيء داخل رأسها الهرم المرهق من أحداث النهار . وقالت أخيراً بوحى إلهام مباغت :

— كان ذلك الرجل ينوي الاعتداء على شرف مدام غروجورج .

وعلت ضحكة حادة على اثر تلك العبارة . فمن الواضح أن مدام كوز ومدام بيلاتان لا تعتقدان بذلك التفسير للواقعة المأساوية . لكن صوت مدام لوند علا مجدداً حين سألت مفتازة :

— ماذا دهاكن لتضحكن . أنا أعرف ما أقوله . تذكرن كيف تصرف حيال أنجيل .

أمسكت أنجيل ، لدى سماعها تلك الكلمات ، بيد البنت الصغيرة التي عادت الى القرب منها . وقالت :

— لماذا يتحدثن عني ؟ ماذا يقلن يا فرناند ؟

— لا أدري . هل تريدن أن أمضي لاغلاق الباب الآن ؟

— أجل . كلا . أريد أن أصفي قليلاً ايضاً ، إنهن يتكلمن بصوت عال فلا يفهم من كلامهن شيء .

لم يكن يفهم شيء من الكلام في الواقع لان أولئك السيدات شرعن يتكلمن كلهن في ذات الوقت . ولم يكن الحديث يدور حول أنجيل الآن بل حول حال مدام غروجورج .

صاحت مدام كروب بالطاهية :

— أقول لك إنها ستخرج سالمة .

— والرصاصه التي في جسمها ؟ هآ ! هآ !

فهمت مدام لوند مفتاظة ، كان مدام كوز تبحث بها هي الى العالم
الآخر :

— تلك الرصاصة سوف يستأصلونها . أما انت فلا تتفوهين
إلا بالحماقات . كما يجن جنونك إذا لم تري الأمور تسير نحو
الأسوأ .

ولم يصدر عن مدام كوز الجالسة امام الباب المفتوح قليلا غير
العطاس الشديد . ثم تأوهت قائلة :
— هنا تيار هواء . لقد أصبت .

فقالت مدام لوند وقد سرها أن تثير الفزع في قلب تلك الخوافة :
— إحترسي . فقد تبدئين بالعطاس وفي غضون اسبوع يمضون بك الى
الكنيسة وقدماك في المقدمة .
وقامت واحدة فأغلقت الباب .
وسألت انجيل قائلة :

— فرناند ، لماذا لم اعد اسمع شيئا ؟
— لانهن اغلقن الباب . لقد بدأت مدام كوز تعطس بسبب تيار الهواء .
الم تفهمي ما كانت تقوله ؟

ولم تجب انجيل . ففكرها الذي امسى أكثر نشاطا بسبب الحمى ،
تاه على دروب اخرى . لقد خيم الليل منذ ساعة . ولم تعد الغرفة
مضاءة إلا بهاء مصابيح الساحة ، لكن بشكل باهت لا يميز المرء فيه غير
اغطية السرير .

قالت الفتاة على حين غرة :

— دعيني الآن ، يا فرناند . أريد أن أنام .

لم يكن ذلك صحيحا . لم يكن بوسعها أن تنام . فالصباحات التي تتردد في أذنيها أكثر من أن تحصى . والكواكب التي تسطع في الظلمة أكثر من أن تسمح للنوم بإغماض عينيها . لكنها كانت تريد البقاء وحدها من أجل أن تنهض وترندي ثيابها . فتلك الفكرة التي شقت طريقها في ذهنها ببطء ، منذ أن غاب النهار ، ظلت تتعاطم حتى لانت أمامها الإرادة . لقد بدأت بالنسبة لها حياة غريبة ، فلا هي من عالم اليقظة ولا من عالم الأحلام . لكنها تستعير عناصرها من العالمين وتقوم بمزجها . فكل ما عرفت في العالم قد بدل اتجاهه . ما كان مستحيلا أصبح حقيقيا ولم يعد الزمن يفرض استبداده على الأفعال البشرية .

إنها الآن وحيدة ، تتلمس ماحولها بحثا عن ثيابها فترنديها قطعة قطعة . فالساعة تقترب . ليس عليها أن تلتكأ ، بل ينبغي لها أن تستفيد من تلك الفرصة القصيرة المتاحة لتفادر غرفتها وترك البيت لتصل الى الطريق . سوف تمر من المطبخ . وإذا مارآها أحد وسألها عن حالها فسوف تجيب إنها بخير . وإن البابونج الذي أرغموها على شربه قبل قليل قد شفاها . كانت تردد ذلك لنفسها مع أشياء أخرى كثيرة ، وهي تتحرك في غرفتها وتصطدم بقطع الأثاث ، مثل امرأة افترطت في الشراب ولم تعد تعرف أين الباب .

أما الوهن الكبير الذي أرغموها على أن تستند الى الجدار ، فقد اثار استغرابها . لاسيما أنها تشعر الآن بحاجة كبرى للنشاط ، بينما كانت قبل قليل تشعر بمجز شديد ، حتى أن التقاط نفسها تطلب منها كبير عناء . كان بودها أن تجزي ، أن تثب فوق درجات السلم وهي تهبط . على نحو ما كانت تفعله فيما مضى .

لم يكن في المطبخ غير النادل جالساً يقرأ جريدته ويدخن . فنظر إليها وهم بالنهوض لكنها مرت من أمامه ، وقد تفرزت من رائحة المطبخ ودفعته ، ثم خرجت .

لم تكذب تغلق الباب وراءها حتى أوشت أن تقع على العتبة الخارجية . فالهواء المتجمد صفعها ونفذ إليها من فمها المفتوح . كانت تلهث دائخة ، ويداه ممدودتان إلى أمام ، كأنها تبحث عن شيء تمسك به وتتكىء عليه .

مشيت في الشوارع المقفرة بخطى مضطربة متنقلة من جانب إلى جانب ومن جادة لأخرى حتى بلغت الشارع الرئيس . كان قصدها أن تتوجه إلى هناك ، تنفيذاً لذلك الأمر الفامض الذي يتردد داخلها منذ ساعات . إذا كان للسعادة من وجود فعليها أن تبحث عنها على هذا الطريق ، لا في تلك المدينة التي تفادرتها إلى الأبد . لقد أسعدها أخيراً ، بعد شهور من الغم ، أنها سترتحل . لن ترى مدام لوند من بعد ولا زبائنها الذين تسببوا في عذابها . هناك من ينتظرها على الطريق . هناك من وعدها بأن ينتظرها . كانت الظلمة حالكة حتى لم يعد الوقت بعيداً عن السابعة والنصف . قبلها في السابعة والنصف بين المصباحين الثالث والرابع بعد المعبر . وهامى ذي في الموعد المضروب .

• • • • •

بائع اللبن هو الذي تولى نقلها في عربته . لقد أوشك حصانه أن يطأها بسنابكه ، لأنها كانت مرتمية على الأرض بلا حراك . كان هم مدام لوند الأول أن تمدها في السرير وتشعل في غرفتها نار حطب صغيرة . كانت تلك أول مرة تنعكس فيها السنة الذهب على حجارة ذلك الموقد ، لكن عناء مدام لوند كان بلا طائل .

بلا طائل أن يشع النور في تلك الغرفة أو يعمّ الظلام ، وأن يكون قلب المرء قاسياً أو عامراً بالإحسان . فالعالم يتلاشى مثل حلم مزيج . ولم يبق من هذه الحياة غير الألم ، وجسدها مازال يحمل آثاره . لكن ذلك الألم نفسه أصبح ضئيلاً جداً ، فالروابط الأخيرة تقطعت . أما الاختلاط الأقصى الذي عمّ كل الأشياء على الأرض ، فلم يعد يصل منه إلى تلك المرأة ، غير أصداء أصوات إنسانية خافتة من غير أن تلتقط معناها . لقد شخّصت عينها إلى الرؤيا التي يتأملها الموتى على نحو أبدي .

كانون الثاني ١٩٢٨ - كانون الثاني ١٩٢٩

* * *

